سلسلة الرسائل الجامعية (٥)

التناسق الموضوعي في سورة النور

دراسة تحليلية تطبيقية



تأليف

نور سمير يونس الحيالي



سلسلة الرسائل الجامعية (١)

التناسق الموضوعي في سورة النور دراسة تحليلية تطبيقية

تأليف

نور سمير يونس الحيالي

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

الكتاب: التناسق الموضوعي في سورة النور – دراسة تحليلية تطبيقية-

المؤلف: نور سمير يونس الحيالي

دار النشر: "وأشرقت" للطباعة والنشر / العراق – الموصل

عدد الصفحات: ٣٢٦ صفحة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق الوطنية: ٢٤٥٠ لسنة ٢٠٢١

رقم الكتاب المعياري الدولي (ISBN): 978-9922-9584-6-0



للتواصل مع دار "وأشرقت" للطباعة والنشر

البريد الالكتروني:

dar.ashraqat@gmail.com

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب متناسبة سوره وآياته، متشابهة فواصله وغاياته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي أنزل الفرقان فجعله مُحكم التنسيق، مُعجز البيان، كامل الإتقان، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾[1]. وأشهد أنَّ سيدنا محمداً ﷺ رسول الله، أرسله ربه هادياً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، حتى تركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلَّا هالك، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، أمَّا بعد:

فإنَّ أشرف العلوم وأرفعها قدراً هو علم التفسير؛ لتعلقه بكلام الله تعالى، فالاشتغال به شرف عظيم، وأجر كبير، ومن هنا اهتم علماء الإسلام بهذا العلم، وأولوه عنايتهم، بل أفنى بعض علماء السلف والخلف أعمارهم في خدمة هذا العلم الجليل، دراسةً وتعليماً.

إنَّ القرآن الكريم معجزة خالدة، وحجة باقية فهو كتاب نور وهداية، وكتاب علم وعمل، فلا تنقضي عجائبه، نزَّله الله تعالى على قلب رسوله ﷺ منجماً حسب الوقائع والأحداث، وكان كلما نزلت عليه آية أمر أصحابه بكتابتها في مواضع يعينها لهم، حسبما يبلغه جبريل عليه السلام دون مراعاة لترتيب النزول، وقد تألف مما جُمع على هذا النحو سور مؤتلفة المباني منسجمة المعاني متناسقة الموضوعات، لا تكاد تحس بأدنى خلل في بنائها أو تنافر بين أجزائها.

إنَّ البحث في أوجه الإعجاز القرآني ذو مسارب عِدة، فقد اجتهد الباحثون قديماً وحديثاً في البحث في الكتاب المُعجز، للوصول إلى اللطائف البديعة التي يقف أمامها العقل حائراً، ولعل أحد أنواع البحث في الإعجاز القرآني ما يُعرف بمصطلح (التناسق

(١) سورة النساء، من الآية: ٨٢.

المندرج تحت علوم القرآن، فهو يبحث في كنوز القرآن الكريم، وأسراره البلاغية الأُسلوبية، فمن خلاله نَلقم الحجر لأولئك المتخرصين الذين يزعمون أنَّ موضوعات القرآن لا يجمعها سياق متناسق، وليس بين أجزائها وفاق، فالوحدة الموضوعية تُبرز لنا مدى التناسق الكامل، والتناسب التام، والإحكام الرَّصين بين هذه الأجزاء.

إنَّ الله تعالى أمر عباده بتدبر الآيات، وإعمال العقل، وإمعان النظر، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[1]، فكان مِن فضل الله تعالى عليَّ أن يسر لي متابعة الدراسة، ووفقني لطلب هذا العلم، وسلوك دربه، للاستفادة من أهله ومصادره، ولأكون ممن يدلون بدلوهم في تدبر سورة من سور القرآن الكريم، من خلال التناسق الموضوعي في السورة، علنا نغرس غرساً يُعجب الزرَّاع، ويغيظ أهل الزيغ والريب والنِّفاق، لنصل به إلى مرضاة الله تعالى.

والكشف عن التناسق بين موضوعات سورة النور، والموضوعات الأساسية التي تناولتها السورة، وبيان المقاصد القرآنية في السورة، هو ما نسعى إليه في هذا البحث، وذلك من خلال الإجابة عن تساؤلات عدة، مفادها:

١. ما المراد بـ (التناسق الموضوعي)؟
٢. ما هي الألفاظ ذات الصلة بالتناسق الموضوعي؟ وما هي العلاقة بينها؟
٣. ما هو المقصد القرآني الذي تدور حوله سورة النور؟
٤. ما الموضوعات الأساسية لسورة النور؟ وكيف يكون التناسق بين موضوعات السورة وقد توسطتها آيات تتحدث عن مسائل عقدية؟

وجاءت المقدمة مشتملة على أمور عدة، وهي:

---
(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

أولا: أهمية البحث:

تظهر أهمية هذه الدراسة في الأمور الآتية:

١. إنَّ الوقوف على التناسق الموضوعي في السورة الواحدة، وبيان الترابط السياقي في موضوعاتها، يدفع المسلم إلى دراسة كتاب الله تعالى، وتدبر آياته.
٢. تعتبر هذه الدراسة لونا مهماً وإضافة جديدة في فن علوم القرآن.
٣. كما أنَّ دراسة هذا المصطلح مهم في رد الشبهات المتعلقة بترتيب القرآن الكريم، من ناحية آياته أو موضوعات سوره، والتي تولى كبرها عامة المستشرقين.

ثانيا: أسباب اختيار البحث:

الذي دفعني إلى اختيار هذا البحث الأسباب الآتية:

١. التشرف بخدمة كتاب الله تعالى من خلال البحث في مثل هذا الموضوع، وخدمة الدين الحنيف، والعمل على طلب العلم الشريف المبارك، والتبحر فيه.
٢. إنَّ التناسق مصطلح يتداخل مع علم المناسبة الذي أفرد له المفسرون الأوائل بعض التصانيف، بيد أن التناسق لم ينل حظاً وافراً من الدراسة، فقد كان يبحث في إطار عام، خال من التفصيل والبسط في المصادر والمراجع.
٣. جِدة الموضوع وقلة المؤلفات في التناسق الموضوعي رغم أهمية هذا الموضوع ومكانته، ولذلك أحببنا الكتابة فيه والوقوف على مقاصد الكتاب العزيز.
٤. إدراكنا للحاجة الماسة إلى إخراج هذا الموضوع لحيز الوجود ليكون في متناول طلبة العلم والباحثين، خاصة المهتمين ببيان الإعجاز القرآني، والإحاطة ولو بقدر يسير بهذا الموضوع توفيراً للوقت والجهد.

٥. سورة النور تحمل ثروة علمية تتعلق بالأحكام الشرعية، والآداب الرفيعة، وغيرها من الأحكام التي تعالج أمراض المجتمع، والمسلم بحاجة لمثل هذه الأمور والعلاجات.

ثالثا: الدراسات السابقة:

انقسمت الدراسات السابقة على قسمين:

القسم الأول: الدراسات العامة:

من أهم كتب التفسير الأكثر اعتناءً بذكر التناسب بين السور والآيات واظهار التناسق بين موضوعات السورة – مع تفاوت فيما بينها – هي:

١. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: للبقاعي[١]، تحقيق: عبد الرزاق غالب، دار الكتب العلمية، ط٣ (بيروت/١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). يهتم هذا التفسير بذكر المناسبات بين الآيات والسور فيربط الآية بسابقتها، ويربط السورة بالسورة التي قبلها، ويظهر في كلام المؤلف التناسق الموضوعي في بعض المواضع، وهو من أهم ما أُلف في هذا المجال.

(١) أبو بكر إبراهيم بن عمر بن حسن برهان الدين البقاعي، العلامة المحدث الحافظ، جمع بين علمي المعقول والمنقول، من أهم مؤلفاته: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) و (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) توفي سنة (٨٨٥هـ). نظم العقيان في أعيان الأعيان، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) تحقيق: فيليب حتي، المكتبة العلمية، د.ط (بيروت/ د.ت) ص٢٤.

٢. **تناسق الدرر في ترتيب السور:** للسيوطي[١]، تحقيق: عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية، ط (بيروت/١٤٠٦هـ/١٩٨٦م). تحدَّث فيه المؤلف باختصار عن تناسق السورة بسابقتها، وبيَّن وجه التناسق.

٣. **في ظلال القرآن:** لسيد قطب[٢]، دار الشروق، ط١٧ (بيروت/١٤١٢هـ/ ١٩٩١م). يربط المؤلف كثيراً في تفسير سورة النور بين الآيات بأسلوب يُظهر لحمة موضوعات السورة وتناسقها.

٤. التفسير الحديث: لمحمد عزة[٣]، دار إحياء الكتب العلمية، د.ط (القاهرة/ ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م). تميز هذا التفسير بترتيب مختلف، فقد رتبه المؤلف وفق ترتيب نزول السورة، وذكر أنَّ سورة النور احتوت على فصول عدة، ومع تعددها فإنَّ فيها تناسقاً موضوعياً وزمنياً.

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، إمام حافظ، مؤرخ، أديب، نشأ يتيماً فحفظ القرآن، وألفية النحو، من أهم مؤلفاته: (الإتقان في علوم القرآن) و (تناسق الدرر في ترتيب السور) توفي سنة (٩١١هـ). ينظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (ت: ٩٠٢هـ) دار مكتبة الحياة، د.ط (بيروت/ د.ت) ج٤ / ص٦٥.

(٢) سيد قطب بن إبراهيم بن حسين الشاذلي، مفكر إسلامي مصري، رئيس سابق لقسم نشر الدعوة في جماعة الإخوان المسلمين، من أهم مؤلفاته: (في ظلال القرآن) و (التصوير الفني في القرآن) توفي سنة (١٣٨٠). ينظر: الأعلام، خير الدين محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي (ت:١٣٩٦هـ) دار العلم للملايين، ط١٥ (بيروت/ ١٤٣٣هـ/ ٢٠٠٢م) ج٣/ ص١٤٧.

(٣) محمد عزة بن عبد الهادي دروزة، باحث ومؤرخ موسوعي، ارتاد مجالات فكرية عديدة، من أهم مؤلفاته: (التفسير الحديث) و(عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة) توفي سنة (١٤٠٤هـ). ينظر: تتمة الأعلام للزركلي، محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، ط٢ بيروت/ ١٩٢٢هـ/ ٢٠٠٢م) ج٢/ص ١٩٦- ١٩٧.

القسم الثاني: الدراسات الخاصة:

ومن أهم المؤلفات والدراسات التي تعرضت لتفسير سورة النور ودراستها، هي:

١. **تفسير سورة النور:** لابن تيمية[١]، راجعه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد، الدار السلفية، ط (الهند/١٤٠٨هـ/١٩٨٧م). شرح المؤلف سورة النور وفسرها تفسيراً موسعاً، أبرز بعض الإشارات واللطائف، وتحدث في بعض المواضع عن تناسب الآيات وتناسق الموضوعات.

٢. **قبسات من سورة النور:** للدكتور محمود كامل احمد[٢]، دار النهضة العربية، د.ط، (بيوت/١٤٠١هـ/ ١٩٨١م). تحدث المؤلف كثيراً عن المسائل الفقهية في سورة النور، واختلاف الفقهاء فيها، ومقاصد سورة النور، وتناسق موضوعاتها.

٣. **سورة النور دراسة تحليلية نحوية (رسالة ماجستير):** لعلي محمد النوري[٣]، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، د.ط (السعودية/١٤٠٥هـ/١٩٨٩م). تناولت هذه الدراسة القراءات في سورة النور، ودراسة الأبنية الصرفية في السورة، ودراسة في أدوات المعاني، ودراسة التراكيب.

(١) أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، كان إمامة حجة، بارعة في الفقه والحديث والتفسير، وله معرفة تامة في الأصول، من أهم مؤلفاته: (تفسير سورة النور) و (منهاج السنة) توفي سنة (٧٢٨هـ). ينظر: فوات الوفيات، صلاح الدين محمد بن شاكر ابن أحمد بن عبد الرحمن (ت: ٧٦٤هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ط (بيروت/١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ج٢/ ص ٣٢؛ الأعلام، ج١/ ص ١٤٤.

(٢) لم أعثر على ترجمة له

(٣) لم أعثر على ترجمة له.

٤. **سورة النور دراسة وتحليل:** للدكتور إسماعيل إبراهيم علي السامرائي[١]، دار عمان، ط١ (الأردن/١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م). هذه أطروحة دكتوراه وقد تم طباعتها ككتاب، اعتنى المؤلف بذكر ظروف السورة وتاريخ نزولها وترتيبها في النزول وفي المصحف، وإبراز الوحدة الموضوعية فيها، ولكنه لم يتحدث عن التناسق بين موضوعات السورة.

٥. **الانسجام في القرآن الكريم سورة النور أنموذجا (أطروحة دكتوراه):** لنوال خلف[٢]، جامعة الجزائر، قسم اللغة العربية وآدابها، د.ط (الجزائر/١٤٣٨هـ/ ٢٠٠٧م). كانت هذه الدراسة عبارة عن جمع بين نتائج الدراسات الغربية في مجال النص، والبحث عن قضية الانسجام ونتائج الدراسات العربية الإسلامية خاصة وكتب التفسير بعلم المناسبات بين الآيات والسور.

ولم نقف على أطروحة أو رسالة علمية تناولت التناسق الموضوعي في سورة النور بشكل خاص ومستفيض، ونظرة شاملة، وبيان وافٍ لمقاصدها وأهدافها واختصاصاتها، والمناسبات بين السورة وما قبلها وما بعدها، وبين اسمها ومحورها، وبين فاتحتها وختامها، وربط موضوعات السورة بعضها ببعض على نسق واحد، فكان هذا موضوع عملي في هذا البحث.

رابعاً: منهجية البحث:

١. سِرتُ في كتابة البحث لهذه الدراسة على المنهج الاستقرائي وذلك للبحث الدقيق عن مواطن التناسق في موضوعات سورة النور، وإبراز أوجه الترابط في أجزاء السورة ومتعلقاتها.

---

(١) لم أعثر على ترجمة له.

(٢) لم أعثر على ترجمة لها.

٢. تقسيم السورة إلى موضوعات، ووضع عنوان مناسب لكل موضوع، والكشف عن بعض اللطائف التي تتضمنها السورة.

٣. تفسير آيات الموضوع تفسيراً وسطاً ليس بالموجَز ولا بالمُطنب.

٤. أترجم ترجمة موجزة لكل الأعلام الواردة في صلب البحث في أول ذكر لهم، ماعدا الأنبياء "عليهم" والخلفاء الراشدين ﷺ وأمهات المؤمنين "رضي الله عنهنَّ".

خامساً: خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث ومادته العلمية أن ينتظم عقده في: مقدمة، وتمهيد، وبابين، وخاتمة.

المقدمة، وتشتمل على: أهمية البحث، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومنهجيته، وخطته.

التمهيد: التناسق الموضوعي في السورة، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات البحث، حيث بينتُ فيه المعاني اللغوية والاصطلاحية التناسق والموضوعي، ثم أوضحت التناسق الموضوعي، فالدلالة الاصطلاحية تستقي مفهومها من المعنى اللغوي، وهذا أمر واضح في الدراسات الإنسانية.

المبحث الثاني: الألفاظ ذات الصلة بالتناسق الموضوعي، وقد ذكرت فيه مجموعة من المصطلحات التي ترتبط بشكل أو بآخر بمصطلح هذه الدراسة، حتى يبدو الأمر واضحاً، والفرق بادياً، من ذلك: المناسبة، الانسجام، الوحدة الموضوعية، التفسير الموضوعي.

المبحث الثالث: اقتصر على بيان أهمية دراسة مصطلح التناسق الموضوعي.

ثم انتقلت إلى **الباب الأول:** الذي ضمَّ مقدمات تعريفية لسورة النور، واشتمل على تمهيد وفصلين.

وأوضحتُ في **التمهيد:** اسم السورة، ووجه تسميتها، وعدد آياتها، وفضلها.

أما **الفصل الأول:** فتناولت فيه خصائص السورة المكانية، والتاريخية، والمناسبية، والاختصاصية، بيَّنتُ فيه مكان نزول السورة، وتاريخها، ومناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، وخواصها التي اختصت بها من بين سور القرآن الكريم.

ودرست في **الفصل الثاني:** المحور الأساسي لسورة النور، ومقاصدها وأغراضها، والمناسبة بين مفتتح السورة وخاتمتها.

وخصصتُ **الباب الثاني:** للدراسة التحليلية التطبيقية للتناسق في سورة النور، وقد اشتمل هذا الباب على تمهيد وأربعة فصول.

ثم بيَّنتُ في **الفصل الأول:** براعة استهلال السورة، وبعض الحدود الشرعية وحكمها، وحادثة الإفك وما يتعلق بها.

وجاء **الفصل الثاني:** ليتناول استئذان دخول البيوت، وما يتعلق به، والمثل النوراني في آية النور، وأحكام النظر والحجاب، وزواج الأحرار ومكاتبة الأرقاء.

وتلى ذلك **الفصل الثالث:** لبيان آيات حال المؤمنين والكافرين، والآيات الدالة على توحيد الله تعالى، ومقومات أهل الإيمان، والسمات الدالة على نفاق المنافقين.

أما **الفصل الرابع والأخير:** ففيه الاستئذان، وآدابه في مجلس النبي ﷺ وحكم الأكل في بيوت الأقارب من دون إذن.

ثم أنهيتُ الدراسة بأهم النتائج، والتوصيات.

وفي الختام الله تعالى أدعوه أن يوفقني لمرضاته ويُيَسر لي طريق الصواب، وأن يتقبل مني هذا العمل المتواضع، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، راجية عفوه ورحمته ورضوانه، وأن يغفر لنا ولوالدينا وإخواننا المسلمين والمسلمات، ولمن أعانني على جمعه وإخراجه، فإن حالفني الصواب فهذا من فضل الله عليَّ ومنّه وكرمه، وإن يكن غير ذلك فمن نفسي، فرحم الله من دلني على الصواب ناصحاً، ومن أسدى لي النصيحة فأصححه وأرجع عنه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.



التمهيد

التناسق الموضوعي

توطئة:

التناسق الموضوعي اصطلاح مُحدث، وقد تزايد الاهتمام به تسديداً لعلم التفسير، وتجديداً لطرائق التعامل مع القرآن الكريم وتدبر آياته وسوره[١]. وقبل البدء بهذا الموضوع لابد من تعريف التناسق الموضوعي، وذكر الألفاظ ذات الصلة به، وبيان أهمية دراسة هذا المصطلح.

المبحث الأول

تعريف مصطلحات البحث

توطئة:

إنَّ التناسق الموضوعي اصطلاح مركب تركيباً وصفياً من جزأين أو كلمتين، هما: (التناسق) و (الموضوع) فالمدخل إلى معرفة المعنى الكلي لـ (التناسق الموضوعي) سيكون بذكر المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكل من التناسق، والموضوع، وجاء بيان ذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التناسق لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تعريف الموضوعي لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثالث: تعريف التناسق الموضوعي.

(١) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية فوائدها وطرق دراستها, رشيد الحمداوي، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، عدد٣ (جدة/١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ص١٣٨.

المطلب الأول

تعريف التناسق لغةً واصطلاحاً

أولاً: تعريف التناسق لغةً:

قصد الكشف عن المفهوم اللغوي للتناسق، قمتُ بتتبع المادة اللغوية لهذه الكلمة في أغلب المعاجم، فظهر أنَّ:

التناسق: مأخوذ من نَسَقَ ينسُق نَسْقا، ونَسَقَ الشَّيء يَنسُقُهُ نَسقاً، وانتسق هُوَ، وتناسق، وَالِاسم: النسق[(١)]. يقال: انتسقت هذه الأشياء وتناسقت، أي: تنسقت بعضها إلى بعض[(٢)].

ويأتي التناسق في اللغة العربية على معانٍ عدة، منها:

١. **التتابع**: قال ابن فارس[(٣)]: (النون والسين والقاف أصل صحيح يدل على تتابع في الشيء)[(٤)]. يقال: ناسق بين الأمرين، أي: تابع بينهما ولائم[(٥)]. فيقال للشيء الذي اتّبع بعضه بعضاً: هذا نسق لهذا[(٦)].

---

(١) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت:٤٥٨هـ) تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ج٦/ ص٢٣٩.

(٢) ينظر: العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي (ت:١٧٠هـ) تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، دار الهلال، د.ط (بغداد/١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ج٥/ ص٨١؛ القاموس المحيط، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت:٨١٧هـ) تحقيق: التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط٨ (بيروت/١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) ج١/ ص٩٢٥.

(٣) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، الإمام اللغوي، كان رأسٌ في الأدب، ومذهبه في النحو على طريقة الكوفيين، من أهم مؤلفاته: (مقاييس اللغة) و (جامع التأويل) توفي سنة (٣٩٥هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت:٧٤٨هـ) دار الحديث، د.ط (القاهرة/١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ج١٢/ ص٥٣٨.

(٤) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت: ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد، دار الفكر، د.ط (بيروت/١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ج٥/ ص٤٢٠.

(٥) ينظر: لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن منظور الأنصاري (ت:٧١١هـ) دار صادر، ط٣ (بيروت/١٤١٤هـ/١٩٨٤م) ج١٠/ ص٣٥٣؛ المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة، د.ط (الإسكندرية/ د.ت) ج٢/ ص٩١٨.

(٦) ينظر: جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت:٣٢١هـ) تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط١ (بيروت/١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ج٢/ ص٨٥٣؛ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزَّبيدي (ت:١٢٠٥هـ) دار الهداية، د.ط (بيروت/ د.ت) ج٢٦/ ص٤١٩.

٢. **العطف**، أي: عطف الكلام بعضه على بعض، ليخرج بوحدة متناسقة، يقال: (نسقت الكلام إذا عطفت بعضه على بعض، ويقال: نسقت بين الشيئين وناسقت)[(١)].

قال الأزهري[(٢)]: (حروف العطف يسميها النحويون حروف النسق؛ لأنَّ الشيء إذا عطفته على شيء صار نظاماً واحداً)[(٣)].

٣. **التنظيم**، فالنسق يطلق على ما جاء من الكلام على نظام واحد[(٤)]. والتنسيق: التنظيم، يقال: نسّقَه تنسيقاً، أي: نظّمَه على السواء[(٥)]. وخرز نسق، أي: منتظم، ونسق الأسنان: انتظامها في النبتة وحسن تركيبها[(٦)]. قال أبو زبيد[(٧)][(٨)]:

بجيدِ رِيمٍ كَريمٍ زانَه نَسَقٌ يكاد يُلْهِبُهُ الياقوتُ إلْهابا.

الشاهد فيه: قوله (نَسَقٌ) أراد بالنَسق: النظم أو الانتظام[(٩)].

---

(١) لسان العرب، ج١٠/ ص٣٥٣.

(٢) هو أبو منصور محمد بن احمد بن الأزهر الأزهري، الإمام اللغوي، كان فقيهاً شافعي المذهب، غلبت عليه اللغة فاشتهر بها، من أهم مؤلفاته: (تهذيب اللغة) و(معاني القراءات) توفي سنة (٣٧٠هـ). ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنباري (ت:٥٧٧هـ) تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، ط٣ (الأردن/١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ج١/ ص٢٣٧؛ الأزهري مفسراً في كتابه تهذيب اللغة، الدكتور ماهر حسن الأومري، ديوان الوقف السني، ط١ (بغداد/١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) ج١/ ص٢٣.

(٣) تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت:٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١ (بيروت/١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ج٨/ ص٣١٣.

(٤) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت:٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٤ (بيروت/١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ج٤/ ص١٥٥٨؛ لسان العرب، ج١٠/ ص٣٥٢.

(٥) ينظر: لسان العرب، ج١٠/ ص٣٥٣؛ القاموس المحيط، ج١/ ص٩٢٥؛ تاج العروس، ج٢٦/ ص٤١٩.

(٦) ينظر: لسان العرب، ج١٠/ ص٣٥٣؛ تاج العروس، ج٢٩/ ص٤١٩.

(٧) هو أبو زبيد المنذر بن حرملة الطائي القحطاني، شاعر من نصارى طيء، عاش زمناً في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم، له ديوان: (أبو زبيد الطائي) توفي سنة (٦٢هـ). ينظر: الأعلام، ج٧/ ص٢٩٣.

(٨) شعر أبو زبيد الطائي، أبو زبيد حرملة بن المنذر بن النعمان بن حية الطائي (٤٠هـ) تحقيق: الدكتور نوري حمودي القيسي، المعارف، د.ط (بغداد /١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) ص٣٧.

(٩) ينظر: شعر أبي زبيد الطائي، ص٣٧.

ووصف الحموي[1]، الصحابة ﷺ في بيت شعري موضحاً فيه حسن النسق، فقال[2]:

مَن ذا يُنَاسِقُهُم مَن ذا يُطَابِقُهُم مَن ذا يُسَابِقُهُم في حَلبَةِ الكَرَمِ.

الشاهد فيه: قوله (يُناسقهم) أراد وصف الصحابة ﷺ بحسن انتظامهم في الأمور، وأنَّه لا يوجد من يطابقهم بهذا النسق.

قال الزمخشري[3]: (كلام متناسق، وقد تناسق كلامه، وجاء على نسق ونظام)[4].

٤. **التلاؤم**، أي: الملائمة بين أجزاء الكلام، (يقال: كلام نَسَق، أي: متلائم على نظام واحد من كلِّ شيء)[5].

ويظهر مما سبق أنَّ المعنى اللغوي للتناسق يدور حول هذه المعاني الأربعة، هي: التتابع، والعطف، والتنظيم، والتلاؤم.

---

(١) هو أبو بكر بن علي بن عبد الله بن حجة الحموي، إمام أهل الأدب في عصره، كان شاعراً جيد الإنشاء، من أهم مؤلفاته: (خزانة الأدب وغاية الأرب) و (بلوغ المرام من سيرة ابن هشام) توفي سنة (٨٣٧هـ). ينظر: الضوء اللامع، ج١١/ ص٥٣- ٥٦؛ الأعلام، ج٢/ ص٦٧.

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب، أبو بكر بن علي بن عبد الله بن حِجة الحموي الأزراري (ت:٨٣٧هـ) تحقيق: عصام شقيو، دار الهلال ودار البحار، الطبعة الأخيرة (بيروت/ ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ج٢/ ص٣٨٩.

(٣) هو أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، النحوي، اللغوي، المتكلم، المعتزلي، المفسر، يلقب جار الله؛ لأنَّه جاور بمكة زماناً، من أهم مؤلفاته: (الكشاف) و (أساس البلاغة) توفي سنة (٥٣٨هـ). ينظر: طبقات المفسرين العشرين، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، ط١ (القاهرة/١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) ج١/ ص١٢٠.

(٤) أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ج٢/ ص٢٢٦.

(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة، الدكتور أحمد مختار عمر (ت: ١٤٢٤هـ) عالم الكتب، ط١ (الرياض/١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ج٣/ ص٢٢٠٤؛ ينظر: المعجم الوسيط، ج٢/ ص٩١٩.

ثانياً: تعريف التناسق اصطلاحاً:

قال الكفوي[1]، في تعريف التناسق، مُعبراً عنه بلفظ (حسن النسق): (هو أن يأتي المتكلم بكلمات متتالية معطوفة، متلاحمة تلاحماً سليماً مستحسناً، بحيث إذا أفردت كل جملة منه قامت بنفسها، واستقل معناها بلفظها)[2]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

ونـرى أنَّ التناسـق اصـطلاحاً هـو: انتظـام العبـارة فـي الكـلام، وحسـن تركيبهـا، وارتباطها بعضها مع بعض، حتى تكون كل جملة آخذة بعنق الأخرى.



(١) هو أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، من قضاة الأحناف، وُلِي القضاء في تركيا، والقدس، وبغداد، من أهم مؤلفاته: (الكليات) وله بالتركي (تحفة الشاهان) توفي سنة (١٠٩٤هـ). ينظر: الأعلام، ج٢/ ص٣٨؛ هدية العارفين، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي (ت:١٣٩٩هـ) دار إحياء التراث العربي، د.ط (بيروت/ د.ت) ج١/ ص٢٢٩.

(٢) الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت:١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، د.ط (بيروت/د.ت) ص٤١٠.

(٣) سورة هود: الآية ٤٤.

المطلب الثاني

تعريف الموضوعي لغةً واصطلاحاً

أولاً: تعريف الموضوعي لغةً:

الموضوعي: نسبة إلى الموضوع، وهو اسم مفعول، مأخوذ من وَضَعَ يَضَعُ وَضعاً ومَوضِعاً[1]. ويأتي في اللغة العربية على معانٍ عدة، منها:

١. **الخفض والحط**، قال ابن فارس: (الواو والضاد والعين: أصل واحد يدل على الخفض للشيء وحطه)[2]. يقال: (وضعتُ الشيء أضَعُه وَضعَا، وهو ضد رفعته)[3]. قال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴾[4]، أي: الأرض بسطها ووطأها للخلق ليستقروا عليها، ويقتاتوا منها[5].

٢. **إلزام الشيء وتثبيته في مكان**، فالموضوع يأتي بمعنى الموضع الذي هو اسم مكان[6]. يقال: وَضَع الشيء في المكان: إذا أثبته به[7]. قال الزمخشري: (وضع الشيء موضعه ومواضعه، والخياط يوضّع القطن على الثوب توضيعاً)[8]. أي: يثبت القطن على الثوب. ويقال: الإبل وضيعة، أي: رعت الحمض حول الماء، ووضعتها، أي: ألزمتها المرعى فلم تبرح إلى غيره، فهي موضوعة[9].

ثانياً: تعريف الموضوعي اصطلاحاً:

إنَّ لفظ الموضوع اصطلاح متعدد الاستعمالات، وهو وصف يتعلق بموضوعات القرآن الكريم، ويدخل في بعض المباحث والدراسات القرآنية، كالتفسير الموضوعي، والتناسق الموضوعي، والوحدة الموضوعية، وغير ذلك.

---

(١) ينظر: لسان العرب، ج٨/ ص٣٩٦؛ القاموس المحيط، ج١/ ص٧٧١؛ المعجم الوسيط، ج٢/ ص١٠٣٩.

(٢) مقاييس اللغة، ج٦/ ص١١٧.

(٣) تهذيب اللغة، ج٣/ ص٤٨؛ ينظر: لسان العرب، ج٨/ ص٣٩٦.

(٤) سورة الرحمن: الآية ١٠.

(٥) ينظر: النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي (ت:٤٥٠هـ) تحقيق: السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/ د.ت) ج٥/ ص٤٢٥.

(٦) ينظر: الصحاح، ج٣/ ص١٢٩٩؛ تاج العروس، ج٢٢/ ص٣٣٥.

(٧) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ج٢/ ص٢٩٦.

(٨) أساس البلاغة، ج٢/ ص٣٤١.

(٩) ينظر: القاموس المحيط، ج١/ ص٧٧١.

إنَّ المفهوم الاصطلاحي يختلف من علم لآخر، فعند المحدّثين، نجدُ أنَّ الحديث الموضوع هو: (المختلق المصنوع)[1]. أي: كل كلام يُنسب إلى الرَّسول ﷺ كذبًا واختلاقًا.

والموضوع عند الفلاسفة: (ما يتمثل في الذهن وهو المدرك)[2]، أمَّا الموضوعي عندهم، فهو: (ما تتساوى علاقته بجميع المشاهدين، برغم اختلاف الزوايا التي يشاهدون منها)[3]. وعند المناطقة الموضوع هو ما (وضع ليحكم عليه بشيء)[4].

وعرَّف الجرجاني[5]، الموضوع بأنَّه: (محل العرض المختص به، وقيل: هو الأمر الموجود في الذهن)[6].

وعرفه علماء التفسير المعاصرين بأنَّه: (القضية التي تعددت أساليبها وأماكنها في القرآن الكريم، ولها جهة واحدة تجمعها، عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة)[7].

منهم من عرفه بأنَّه: (قضية، أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة، أو السلوك الاجتماعي، أو مظاهر الكون تعرضت لها آيات القرآن الكريم)[8].

إنَّ المقصد في بحثنا هذا من التقييد بالموضوعي هو: وصف يتعلق بموضوعات آيات السورة الواحدة.

وتبين لنا من خلال ما سبق أنَّ **التناسق في الموضوع اصطلاحاً:** هو إبراز نظام البناء الموضوعي للسورة في ترتيب وترابط وانسجام.

---

(١) معرفة أنواع علوم الحديث، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح (ت:٦٤٣هـ) تحقيق: نور الدين عتر، دار الفكر، ودار الفكر المعاصر، د.ط (سوريا/بيروت/١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ج١/ ص٩٨.

(٢) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، د.ط (القاهرة/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص١٩٦.

(٣) المصدر السابق، ص١٩٧.

(٤) تحرير القواعد المنطقية، قطب الدين محمود الرازي (ت:٧٦٦هـ) مصطفى البابي الحلبي، ط٢ (مصر/١٣٦٧هـ/١٩٤٨م) ص٨٦.

(٥) هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي السيد الشريف الجرجاني، علَّامة دهره، فيلسوف ومن كبار العلماء بالعربية، من أهم مؤلفاته: (التعريفات) و (شرح مواقف الإيجي) توفي سنة (٨١٦هـ). ينظر: طبقات المفسرين، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي (ت:٩٤٥هـ) دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/ د.ت) ج١/ ص٤٣٢؛ الأعلام، ج٥/ ص٧.

(٦) التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت:٨١٦هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ج١/ ص٢٣٦.

(٧) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط٢ (بور سعيد/١٤١١هـ/١٩٩١م) ص٢٠.

(٨) مباحث في التفسير الموضوعي، الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، دار القلم، ط٧ (دمشق/ ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) ص١٦.

المطلب الثالث

تعريف التناسق الموضوعي

إنَّ التناسق الموضوعي هو اصطلاح دَرج حديثاً في الدراسات القرآنية، وإن كانت قد وُجدت له إشارات في كلام المتقدمين، ولكن لم أجد من علماء التفسير من تكلم فيه بتعريف جامع مانع، إلَّا أنني ومن خلال استقرائي في كتب التفسير وكتب علوم القرآن، وسؤالي لأهل الاختصاص في هذا الشأن، والتأمل في المعاني اللغوية السابقة، فقد سعيتُ في أن استخلص له تعريفاً على حسب ما أدى إليه جهدي المتواضع، وبعد طول تدبر، وإعمال فكر، وبناءً على ما سبق من تعريفه لغة، وما سبق من آثار وأقوال علماء التفسير الأجلاء في لفظ التناسق، فقد رأيت أن أعرفه بالتعريف الآتي:

التناسق الموضوعي: هو انتظام وتتابع موضوعات السورة، ومعرفة أوجه علل الترابط والانسجام، داخل السياق القرآنيّ في السورة.

ولقد أشار الدكتور محمد دراز [١]، إلى التناسق الموضوعي، عندما كان يتكلم عن الثروة المعنوية في أسلوب القرآن الكريم، وقد وصف التناسق بأنَّه زينة تلك الثروة وجمالُها، فقال: (تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنَّها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها)[٢].

وقد نُوقِشت عدة رسائل جامعية[٣]، تحت عنوان (التناسق الموضوعي) وتم فيها

---

(١) هو محمد بن عبد الله دراز، فقيه مصري أزهري، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر، من أهم مؤلفاته: (النبأ العظيم) و (الدين) توفي سنة (١٣٧٧هـ). ينظر: الأعلام، ج٦/ ص٢٤٦.

(٢) النبأ العظيم، الدكتور محمد عبد الله دراز (ت:١٣٧٧هـ) دار الثقافة، د.ط (الدوحة/ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص١٤٢.

(٣) منها: التناسق الموضوعي في سورة النحل (أطروحة دكتوراه) ماجد بن عبد العزيز بن سعيد الحارثي، جامعة أم القرى، قسم الكتاب والسنة، د.ط (المملكة العربية السعودية /١٤٣٢هـ/٢٠١١م). التناسق الموضوعي في سورة الأحزاب (رسالة ماجستير) محمد بن عزيز بن عبد الرحمن، جامعة أم القرى، قسم الكتاب والسنة، د.ط (المملكة العربية السعودية/١٤٣٣هع/٢٠١٢م). التناسق الموضوعي في سورة الأعراف (أطروحة دكتوراه) معتوقة بنت محمد حسن الحساني، جامعة أم القرى، قسم الكتاب والسنة، د.ط (المملكة العربية السعودية/١٤٣٤هـ/٢٠١٣م). التناسق الموضوعي في سورة السجدة (رسالة ماجستير) عبد الرحمن احمد حسن نصر، جامعة أم القرى، قسم الكتاب والسنة، د.ط (المملكة العربية السعودية/١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).

تعريف التناسق الموضوعي بعدة تعاريف، أذكر منها:

التناسق الموضوعي: (هو المعنى الذي يربط بين موضوعات السورة وبين علل ترتيبها، لإبراز التلاؤم والانسجام والنظام والتتابع بين موضوعات السور، بعد تحرير مقاصدها والغاية التي ترمي إليها كل سورة، فتنتظم موضوعات القرآن الكريم في تناسق تام، ونظام بديع، يبهر العقول، ويأخذ الألباب)[١].

من خلال هذه التعاريف لمصطلح التناسق الموضوعي، يتضح أنَّ هذا المصطلح هو جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم، وفن من فنونه، وعلماء الإعجاز القرآني المتقدمين يؤكدون هذا، فقد اطَّرد عندهم أنَّ مِن مظاهر الإعجاز في القرآن ارتباط الآيات، وشدة تماسكها، واتساق معانيها وانتظام موضوعات السورة، كما نقل الزركشي[٢] قول ابن العربي[٣]، حين بيَّن نظرته إلى القرآن باعتباره وحدة متماسكة متسقة، وذلك حين قال: (ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني)[٤].

(١) التناسق الموضوعي في سورة المجادلة (رسالة ماجستير)، ناهد عمر سعيد سريجي، جامعة أم القرى- قسم الكتاب والسنة، د. ط (المملكة العربية السعودية/١٤٣٤هـ/٢٠١٣م) ص٢٩.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله بدر الدين الزركشي، عالم بالفقه والأصول والحديث، من أهم مؤلفاته: (البرهان في علوم القرآن) و (الديباج في توضيح المنهاج) توفي سنة (٧٩٤هـ). ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت:٨٥٢هـ) تحقيق: محمد عبد المعيد، دائرة المعارف العثمانية، ط٢ (صيدر اباد/١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) ج٥/ ص١٣٤؛ الأعلام، ج٦/ ص٦٠.

(٣) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المالكي، القاضي الحافظ، بلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، وصنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ، ومن أهم مؤلفاته: (سراج المريدين) و (العواصم من القواصم) توفي سنة (٥٤٣هـ). ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ) تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، د.ط (بيروت/١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ج١١/ ص٨٣٤؛ الأعلام، ج٦/ ص٢٣٠.

(٤) البرهان في علوم القرآن، أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت:٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط١ (بيروت/١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) ج١/ ص٣٦؛ أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) دار الفضيلة، د.ط (د.م/ د.ت) ج١/ ص٤.

فالمعنى المراد من متسقة المعاني يقرب من معنى التناسق الموضوعي.

وبناءً على تعريف التناسق الموضوعي الذي ظهر لي، سوف أسير – إن شاء الله– في هذا البحث معتمدةً على المولى جل في علاه، لأبين التناسق الموضوعي في سورة النور، وما توفيقي إلَّا بالله عليه توكلت واليه أنيب.



المبحث الثاني
الألفاظ ذات الصلة بالتناسق الموضوعي

توطئة:

قال طاهر الجزائري[1]: (ذكر المحققون أنَّه ينبغي لمن تكلم في فن من الفنون أن يورد الألفاظ المتعارفة فيه، مستعملاً لها في معانيها المعروفة عند أربابه، ومخالف ذلك إما جاهل بمقتضى المقام، أو قاصد للإبهام أو الإيهام)[2]. وعلى هذا فقد ظهر في أثناء البحث بعض الألفاظ ذات صلة بالتناسق الموضوعي، كالمناسبة، والانسجام، والوحدة الموضوعية، والتفسير الموضوعي، ويكثر ذِكر هذه الألفاظ في كتب اللغة، وكتب التفسير الحديثة، والدراسات القرآنية المعاصرة، وقد أفردت لكل لفظ من هذه الألفاظ مطلباً أُبين فيه الصلة بينه وبين التناسق الموضوعي، ويشتمل هذا المبحث على أربعة مطالب:

المطلب الأول: المناسبة في القرآن العظيم.

المطلب الثاني: الانسجام في القرآن العظيم.

الطلب الثالث: الوحدة الموضوعية.

المطلب الرابع: التفسير الموضوعي.

---

(١) هو طاهر بن صالح بن أحمد بن موهب الجزائري، من أكابر علماء اللغة والأدب في عصره، كان يحسن أكثر اللغات الشرقية كالعبرية والسريانية والتركية والفارسية، ومن أهم مؤلفاته: (توجيه النظر إلى أصول الأثر) و (بديع التلخيص) توفي سنة (١٣٣٨هـ). ينظر: الأعلام، ج٣/ ص٢٢٢.

(٢) توجيه النظر إلى أصول الأثر، طاهر بن صالح بن أحمد بن موهب الجزائري (ت:١٣٣٨هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط١ (حلب/١٤١٦هـ/١٩٩٥م) ج١/ ص٧٨.

المطلب الأول
المناسبة في القرآن العظيم

أولاً: المناسبة لغةً:

تأتي المناسبة في اللغة العربية على معانٍ عدة، منها:

١. **الاتصال**، قال ابن فارس: (النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها: اتصال شيء بشيء، ومنه النسب، سمي لاتصاله وللاتصال به)[١].

٢. **المشاكلة**، قال أهل اللغة: ليس بينهما مناسبة، أي: مشاكلة[٢]. وقال الزبيدي[٣]: (يقال بين الشيئين مناسبة وتناسب، أي: مشاكلة وتشاكل)[٤].

٣. **المقاربة**، قال ابن سيده[٥]: (والنسب القرابة)[٦]. يقال: (فلان يناسب فلاناً فهو نسيبه، أي: قريبه)[٧]. وانشد ابن الأعرابي[٨]، بهذا المعنى قائلا[٩]:

**يا عَمْرُو يا بنَ الأكْرَمينَ نَسْبا		قد نَحبَ المجد عليك نَحْباً.**

---

(١) مقاييس اللغة، ج٥/ ص٤٢٣.

(٢) ينظر: الصحاح، ج١/ ص٢٢٤؛ لسان العرب، ج١/ ص٧٥٦؛ القاموس المحيط، ج١/ ص١٣٧.

(٣) هو أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق مرتضى الزبيدي، من أهل العراق، علّامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، ومن أهم مؤلفاته: (تاج العروس في شرح القاموس) و (إتحاف السادة المتقين) توفي سنة (١٢٠٥هـ). ينظر: الأعلام، ج٧/ ص٧٠.

(٤) تاج العروس، ج٤/ ص٢٦٥.

(٥) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، إماماً في اللغة والعربية حافظاً لهما، من أهم مؤلفاته: (المحكم والمحيط الأعظم) و (المخصص) توفي سنة (٤٥٨هـ). ينظر: وفيات الأعيان وأنباء بناء الزمان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان البرمكي (ت:٦٨١هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، د.ط (بيروت/ ١٣١٨هـ/١٩٠٠م) ج٣/ ص٣٣٠.

(٦) المحكم والمحيط الأعظم، ج٨/ ص٥٢٩؛ المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت:٤٥٨هـ) تحقيق: خليل إبراهيم جفال،دار إحياء التراث العربي،ط١(بيروت/١٤١٧هـ/١٩٩٦م)ج١/ ص٣٣١.

(٧) الصحاح، ج١/ ص٢٢٤.

(٨) هو أبو عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي، صاحب اللغة، من أهل الكوفة، لم يُرى أحد في علم الشعر أغزر منه، ومن أهم مؤلفاته:(النوادر) و(أبيات المعاني) توفي سنة (٢٣١هـ). ينظر: وفيات الأعيان، ج٤/ ص٣٠٦، ٣٠٨؛ الأعلام، ج٦/ ص١٣٠- ١٣١.

(٩) لم أجد ديوان بن الأعرابي، ولكن أهل اللغة ينسبون هذا البيت له، وقد ورد هذا البيت في كتب اللغة والنحو، منها: المحكم والمحيط الأعظم، ج٨/ ص٥٢٩؛ التصريح بمضمون التوضيح، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري (ت:٩٠٥هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ج٢/ ص٥١٦.

الشاهد فيه: قوله (نَسبا) أراد قرابة الكرماء من جهة الآباء والأمهات، أو من جهة الآباء خاصة[1].

إنَّ المعنى اللغوي للمناسبة يدور حول هذه المعاني الثلاثة: الإتصال، والمشاكلة، والمقاربة.

ثانياً: المناسبة اصطلاحاً:

عرَّف العلماء علم المناسبة بتعاريف عدة، منها:

١. قال الزركشي، نقلاً عن ابن العربي، هو: (ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني)[2].

٢. عرفه البقاعي بقوله هو: (علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه)[3].

عرفه بعض العلماء المعاصرين بتعاريف أخرى، منها:

١. هو: (وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة)[4].

---

(١) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ج٨/ ص٥٢٩؛ لسان العرب، ج١/ ص٧٥٥؛ ضياء السالك إلى أوضح المسالك، محمد عبد العزيز النجار، مؤسسة الرسالة، ط١ (بيروت/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ج٤/ ص١٧٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص٣٦. وقد ذكر الزركشي أنَّ هذا التعريف منقول من كتاب (سراج المريدين) لبن العربي، ولم أجد هذا الكتاب، وقال محب الدين الخطيب في مقدمة (العواصم من القواصم): (سراج المريدين، منه مخطوطة بمكتبة عبد الحي الكتاني، وبأولها خط المؤلف) ص٢٨. وبن العربي يشير إلى كتاب (سراج المريدين) في كتابه (العواصم من القواصم) ويتضح من كلامه أنَّه قد أفرد قسماً لعلوم القرآن، ينظر: العواصم من القواصم، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي الاشبيلي (ت:٥٤٣هـ) قدم له وعلق عليه: محب الدين الخطيب، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١ (المملكة العربية السعودية/ ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ص١٩١.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أبو بكر إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي (ت:٨٨٥هـ) تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط٣ (بيروت/١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م) ج١/ ص٥.

(٤) مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (ت:١٤٢٠هـ) مكتبة المعارف، ط٣ (د.م/ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ص٩٦.

٢. هو: (معرفة الأصول الكلية[١]، والمسائل[٢] المتعلقة بعلل[٣] ترتيب أجزاء القرآن العظيم بعضها ببعض)[٤].

الذي يبدو أنَّ التعريف الأخير هو تعريف جامع لأفراد المُعرف، مانع من دخول الأغيار فيه.

قبل أن نذكر النسبة بين التناسق الموضوعي وعلم المناسبة، لابد من ذكر موضوع كِلا المصطلحين ليتضح الفرق بينهما.

موضوع التناسق الموضوعي:

هو دراسة موضوعات السورة، ووجه انتظامها على هذا النسق الذي عطفت فيه بعضها على بعض، وتوالى فيه بعضها عقب بعض، لإظهار تلاؤم الموضوعات في السورة، وترتيبها في نظم بديع، يخرس الطاعنين في القرآن الكريم برميه بالاضطراب وعدم التلاؤم[٥].

موضوع علم المناسبة:

يتضح لنا من خلال التعاريف التي مرَّ ذكرها آنفاً، أنَّ موضوع علم المناسبة يختلف عن موضوع التناسق، فهو يبحث عن سر ترابط الآية بالآية والسورة بالسورة، ومعرفة وجه مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها.

(١) الأصول الكلية: (الأمور العامة التي يرجع إليها هذا العلم، كقولهم: الأصل أنَّ ترتيب سور القرآن العظيم وآياته توقيفي، الأصل أنَّه لم يقدم هذا على هذا، أو لم يأت هذا كذا إلَّا لحكمة وسر، الأصل أنَّ الرابط إمَّا أن يكون لفظياً أو معنوياً، الأصل أنَّ طلب المناسبة توفيقي، الأصل أنَّ مقاصد القرآن ثلاثة: تقرير التوحيد والعقيدة، وتقرير الأحكام والحلال والحرام، وتقرير قصص السابقين). علم المناسبات في السور والآيات، الدكتور محمد بن عمر بن سالم بازمول، د.ط (د.م/ د.ت) ص٢٧.

(٢) المسائل: (الأمور الجزئية المتعلقة ببيان الرابط في موضع ما). المصدر السابق، ص٢٧.

(٣) العلل: (هي المعاني التي تصلح أن تكون رابطة بين الآية والآية والسورة والسورة). المصدر السابق، ص٢٧.

(٤) المصدر السابق، ص٢٧.

(٥) ينظر: التناسق الموضوعي في السورة القرآنية، الدكتور محمد بن عمر بن سالم بازمول، د.ط (د.م/د.ت) ص١٣.

وينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها هل هي مكملة لما قبلها أم مستقلة؟ ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها وما بعدها، ففي ذلك علم غزير، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له[1].

ونقل السيوطي عن النيسابوري[2]، أنَّه كان إذا قرئ عليه القرآن، يقول: (لِمَ جُعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة)[3].

يتضح لنا من خلال ما تبين أنَّ النسبة بينهما هي: العموم والخصوص المطلق[4]، فالتناسب اعم من التناسق؛ لأنَّ كل تناسق موضوعي مناسبة، وليس كل مناسبة تناسق موضوعي.

وإلى هذا الفرق أشار الإمام السيوطي من خلال تسمية كتابه: (تناسق الدرر في تناسب السور).

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط (مصر/١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) ج٣/ ص٣٧٠.

(٢) هو أبو القاسم محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري، عالم، ومفسر، ولغوي وفقيه، له تصانيف ادعى فيها الإعجاز، ومن أهم مؤلفاته: (إيجاز البيان في معاني القرآن) و (خلق الإنسان) توفي سنة (٥٥٠هـ). ينظر: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين الحموي (ت:٦٢٦هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١ (بيروت/١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ج٦/ ص٢٦٨٦؛ الأعلام، ج٧/ ص١٦٧.

(٣) الإتقان، ج٣/ ص٣٧٠.

(٤) العموم والخصوص المطلق: (هو أن يجتمع شيئان في مادة، وينفرد واحد منهما في أخرى). مغني الطلاب، محمود حسن المغنيسي (ت:١٢٢٢هـ) تحقيق: عصام بن مهذب السبوعي، دار البيروتي، ط١ (دمشق/١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) ص٩٢. أو (هي النسبة بين معنى ومعنى آخر مخالف له في المفهوم، وذلك من جهة أنَّ احدهما ينطبق على كل ما ينطبق عليه الآخر من أفراد دون العكس). ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط١٢ (دمشق/١٤٣٢هـ/٢٠١١م) ص٤٨.

المطلب الثاني
الانسجام في القرآن العظيم

أولاً: الانسجام لغةً:

يأتي الانسجام في اللغة العربية على معانٍ عدة، منها:

١. **الانتظام**، قال الزبيدي: (وانسجم الكلام: انتظم)[١].

٢. **الانصباب والسيلان:** (وانسجم الدمع والماء فهو منسجم إذا انصبَّ)[٢]. يقال: سجمت العين الدمع والسحابة الماء، وتَسجُمُه سَجماً وسُجُوماً وسَجَماناً، وهو قطران الدمع وسيلانه، قليلاً كان أو كثيراً، وانسجم الماء والدمع، فهو منسجم إذا انسجم، أي: انصب[٣].

قال الفيروزآبادي[٤]: (سَجَمَ الدمع سُجوما وسِجاما، ككتاب، وسجمته العين، والسحابة الماء، تَسجِمُه وتَسجُمُه سَجماً وسُجوماً وسَجَماناً: قطر دمعها، وسال قليلاً أو كثيراً)[٥].

إنَّ المعنى اللغوي يوضح لنا أنَّ الانسجام هو: (انصباب الماء من العين بشكل قليل أو كثير، ثم استعمل في انتظام الكلام وترتيبه، ففي انصباب الماء انسجام وانتظام، وكذلك الكلام يكون مُنسجماً انتظاماً معبراً عما يريده المخاطب)[٦].

ومن خلال تتبع المعاني المتعلقة بمادة (سجم) نجد أنَّها تدور حول: القطران،

---

(١) تاج العروس، ج٣٢/ ص٣٤٩.

(٢) تهذيب اللغة، ج١٠/ ص٣١٧؛ ينظر: المعجم الوسيط، ج١/ ص٤١٨.

(٣) ينظر: لسان العرب، ج١٢/ ص٢٨٠- ٢٨١.

(٤) هو أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم مجد الدين الفيروزآبادي، من أئمة اللغة والأدب، كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، من أهم مؤلفاته: (القاموس المحيط) و (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز) توفي سنة (٨١٧هـ). ينظر: الضوء اللامع، ج١٠، ص٧٩، ٨١ ؛ الأعلام، ج٧/ ص١٤٦.

(٥) القاموس المحيط، ج١/ ص١١١٩.

(٦) انسجام الخواتيم في الآيات القرآنية، الدكتور حازم ذنون إسماعيل، مجلة التربية والعلم، المجلد (١٦) العدد (٢) (الموصل/١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) ص٧٣.

والصب، والسيلان، وهذه المفردات توحي بالتتابع، والانتظام، وعدم الانقطاع[1]. وإذا ما ربطنا هذه المعاني بالكلام، نجد الانسجام هو: (أن يأتي الكلام متحدراً كتحدر الماء المنسجم)[2].

ثانياً: الانسجام اصطلاحاً:

الانسجام: هو العلاقات التي تربط معاني الجمل في النص[3]. فهو إذن يتصل برصد وسائل الاستمرار الدلالي في النص، أو العمل على إيجاد الترابط المفهومي[4]. أي أنَّه يهتم بالروابط الدلالية المتجسدة في ظاهر النص[5].

ومن العلماء من قال، إنَّ الانسجام هو: (الترابط بين أجزاء الآية، في صورة جميلة أخاذة، تسترعي الانتباه وتُريح الحواس وتتماشى والذوق الرفيع، بحيث لا خلل ولا فوضى، بل تراص والتحام في أسلوب بديع)[6].

وعلى ذلك فإنَّ الانسجام يغدو أعم وأعمق من الاتساق، وهذا لارتباطه بالعلاقات الخفية التي تنظم النص وتولده[7]. فالنسبة بين التناسق الموضوعي والانسجام هي العموم والخصوص المطلق، فالانسجام أعم من التناسق؛ لأنَّ كل تناسق موضوعي انسجام، وليس كل انسجام تناسق موضوعي.

---

(١) ينظر: الانسجام النصي وأدواته، قواوة طيب العزالي، مجلة المَخبَر، جامعة محمد خضير، عدد(٨) (الجزائر/١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) ص٦٢.

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العدواني (ت:٦٥٤هـ) تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، إحياء التراث الإسلامي، ط١ (مصر/١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) ص٤٢٩.

(٣) ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، الدكتور صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء، ط١ (القاهرة/١٤٣١هـ/٢٠٠٠م) ج١/ ص٩٤.

(٤) ينظر: نحو النص، الأستاذ الدكتور احمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق،ط١(القاهرة/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)ص٩٠.

(٥) ينظر: علم اللغة النصي، ج١/ ص٩٥.

(٦) انسجام الخواتيم، ص٧٤.

(٧) ينظر: لسانيات النص، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، ط١(بيروت/١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)ص٥-٦.

المطلب الثالث

الوحدة الموضوعية

الوحدة الموضوعية مركب وصفي. وعلى السُنة التي يُجرى عليها في التعريف، نبدأ بتعريف ركني الاسم المركب، ثم نُعرفه كمركب وصفي[١].

أولاً: الوحدة لغةً واصطلاحاً:

أ. الوحدة لغةً:

تأتي الوحدة في اللغة العربية على معانٍ عدة، منها:

١. الإنفراد، وَحُدَ وُحوداً ووَحداً، ووُحدَةً وحِدَةً: بقي مُنفرَداً، كتَوحَّد[٢]. قال ابن فارس (ت:٣٩٥هـ): (الواو والحاء والدال: أصل واحد يدل على الإنفراد، من ذلك الوحدة، وهو واحد قبيلته، إذا لم يكن فيهم مثله)[٣].

٢. التميز، قال ابن سيده: (وحد الشيء من غيره يحده حداً وحدده: ميزه)[٤]. فالمعنى اللغوي للوحدة يدور حول: الانفراد، والتميز.

ب. الوحدة اصطلاحاً:

الوحدة عند أهل التفسير هي: (المحور أو الأساس الوحيد الذي يجمع الموضوعات المتعددة في السورة)[٥].

ثانياً: الموضوعية لغةً واصطلاحاً:

سبق تعريف الموضوع لغةً واصطلاحاً[٦].

---

(١) ينظر: تحرير التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية للسورة، الأستاذ الدكتور محمد بن عمر بن سالم بازمول، د.ط (د.م/د.ت) ص٥٢.

(٢) ينظر: القاموس المحيط، ج١/ ص٣٢٤.

(٣) مقاييس اللغة، ج٦/ ص٩٠.

(٤) المحكم والمحيط الأعظم، ج٢/ ص٥٠٤؛ لسان العرب، ج٣/ ص١٤٠.

(٥) تحرير التفسير الموضوعي، ص٥٢.

(٦) ينظر: ص١٦- ١٧ من هذا الكتاب.

ثالثاً: الوحدة الموضوعية:

بعد تعريف ركني الوحدة الموضوعية كل على حدة باعتباره مركب من جزأين، الآن نشرع بتعريفه كمركب وصفي، فقد عرفه العلماء بتعاريف عدة، منها:

١. قال محمد حجازي[١]: هي (اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثراً، وأنَّه لا تباين فيه ولا اختلاف، بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة)[٢]. والمراد بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، هي: (البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة؛ ليُظهر ما فيها من معان خاصة، تتعلق بالموضوع العام الذي نبحثه)[٣].

٢. أو هي: (ترابط سور القرآن الكريم وآياته حتى تكون كالكلمة الواحدة)[٤]. فالوحدة الموضوعية تعتبر وحدة الغرض في السورة الواحدة التي تحتوي على موضوعات متعددة[٥].

بالنظر إلى تعريف الوحدة الموضوعية والتناسق الموضوعي يظهر لنا النسبة بين المصطلحين، وهي العموم والخصوص المطلق، **فالتناسق الموضوعي أعم من الوحدة الموضوعية**؛ وذلك لأنَّ التناسق الموضوعي (يهدف إلى إبراز التقارب والتلاؤم بين موضوعات السورة في نظام بديع ، بينما الوحدة الموضوعية يُطلب فيها إبراز الهدف والغاية التي ترمي إليها السورة، ومحله مع المقاصد الكلية)[٦]. فكل وحدة موضوعية تناسق موضوعي، وليس كل تناسق موضوعي وحدة موضوعية.

---

(١) هو الأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمود حجازي، من علماء الأزهر الشريف ومن رجال التفسير البارزين، مدير معهد المنصورة، ومن أهم مؤلفاته:(التفسير الواضح) و(الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم). ينظر: موقع وكيبيديا، ar.wikipedia.org/wiki

(٢) الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، الدكتور محمد محمود حجازي، مطبعة المدني (القاهرة/١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ص٣٣.

(٣) المصدر السابق، ص٣٣، ٣٤؛ محاضرات في التفسير الموضوعي، الأستاذ الدكتور عباس عوض الله عباس، دار الفكر، ط١ (دمشق/١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ص٣٨.

(٤) تحرير التفسير الموضوعي، ص٥٣.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ص٥٤.

(٦) التناسق الموضوعي في السورة القرآنية، ص١٢.

المطلب الرابع

التفسير الموضوعي

يتألف مصطلح التفسير الموضوعي من جزأين رُكِّبا تركيباً وصفياً[1]. وعند تعريف الأسماء المركبة فإننا نأخذ كل لفظة ونبين معناها على حدة من جهة اللغة، ثم من جهة الاصطلاح، ثم نذكر ما ينتج من معنى للاسم بعد التركيب[2].

أولاً: التفسير لغةً واصطلاحاً:

أ. التفسير لغةً:

يأتي التفسير في اللغة العربية على معانٍ عدة، منها:

١. **الوضوح والبيان**، قال ابن فارس: (الفاء والسين والراء: كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه، من ذلك الفسر، يقال: فسرت الشيء وفسرته)[3]. قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾[4]. أي: أحسن بياناً للمطلوب[5]. والفسر: البيان، فسر الشيء يفسره، أبانه[6].

٢. **الكشف**، قال ابن منظور[7]: (الفسر: هو كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل)[8].

---

(١) ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، ص١٥.

(٢) ينظر: تحرير التفسير الموضوعي، ص١٢.

(٣) مقاييس اللغة، ج٤/ ص٥٠٤.

(٤) سورة الفرقان: من الآية ٣٣.

(٥) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (ت:٤٦٨هـ) تحقيق: الدكتور أحمد محمد صيرة والدكتور أحمد عبد الغني وآخرون، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ج٣/ ص٣٤٠.

(٦) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ج٨/ ص٤٨٠.

(٧) هو أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري، الإمام اللغوي الحجة، اختصر كثيراً من كتب الأدب المطولة، من أهم مؤلفاته: (لسان العرب) و (مختار الأغاني) توفي سنة (٧١١هـ). ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، د.ط (لبنان/ د.ت) ج١/ ص٢٤٨؛ الأعلام، ج٧/ ص١٠٨.

(٨) لسان العرب، ج٥/ ص٥٥.

ب. التفسير اصطلاحاً:

عرَّف العلماء التفسير بتعاريف عدة، منها:

١. عرفه أبو حيان[١] بأنَّه: (علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك)[٢].

٢. عرفه الزركشي بأنَّه: (علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه)[٣].

٣. عرفه ابن عاشور[٤] بأنَّه: (اسم للعِلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع)[٥].

٤. منهم من عرفه بأنَّه: (علم يُكشف به عن معاني آيات القرآن، وبيان مراد الله تعالى منها، حسب الطاقة البشرية)[٦].

يظهر مما سبق أنَّ التعريف الأخير هو التعريف الذي يحقق معنى التفسير، فهو تعريف جامع لأفراد المُعرف، مانع من دخول الأغيار فيه.

(١) هو أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، نحوي عصره، ولغويه، ومفسّره، ومحدثه، ومقرئه، ومؤرخه، وأديبه، ومن أهم مؤلفاته: (البحر المحيط) و (تحفة الأريب) توفي سنة (٧٤٥هـ) ينظر: طبقات المفسرين للداوودي، ج٢/ ص٢٨٧؛ الأعلام، ج٧/ ص١٥٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (ت:٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، د.ط (بيروت/١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ج١/ ص٢٦.

(٣) البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص١٣.

(٤) هو محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، من أهم مؤلفاته: (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) و (حاشية على المحلي على جمع الجوامع) توفي سنة (١٣٩٣هـ). ينظر: الأعلام، ج٦/ ص١٧٣.

(٥) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (المعروف بالتحرير والتنوير) محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور (ت:١٣٩٣هـ) الدار التونسية، د.ط (تونس/١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ج١/ ص١١.

(٦) مباحث في التفسير الموضوعي، ص١٥.

ثانياً: الموضوعي لغةً واصطلاحاً:

سبق تعريف الموضوع لغةً واصطلاحاً[١].

ثالثاً: التفسير الموضوعي:

بعد تعريف ركني هذا المصطلح، فلا بد من وضع تعريف لمصطلح التفسير الموضوعي، ومن الواضح أننا لن نقف على تعريف عند القدماء لهذا العلم، نظراً لحداثته، فقد أصبح هذا المصطلح لون من ألوان التفسير، وقد اعتنى الباحثون المعاصرون بهذا المصطلح وعرفوه بتعاريف عدة، منها:

١. التفسير الموضوعي: (هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة لبيان معانيها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع)[٢].

٢. منهم من عرَّفه بأنَّه: (هو علمٌ يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورةٍ أو أكثر)[٣].

٣. منهم من عرَّفه بأنَّه: (هو جمع الآيات التي تتناول موضوعاً واحداً، أو مصطلحاً واحداً، أو الاقتصار على الآيات في السورة الواحدة، ويفسَّرُ ذلك تفسيراً موضوعياً مُبرزاً وحدة الموضوع، ومحققاً لمقاصد القرآن وأهدافه)[٤].

ويظهر مما سبق **أنَّ التعريف الأخير هو التعريف الذي يحقق الهدف والغاية والوسيلة**؛ وذلك لأنَّه جامع لأفراد المُعرف، مانع من دخول الأغيار فيه[٥].

---

(١) ينظر: ص١٦- ١٧ من هذا الكتاب.

(٢) المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص٢٠.

(٣) مباحث في التفسير الموضوعي، ص ١٦.

(٤) وقفات مع نظرية التفسير الموضوعي، عبد السلام حمدان اللوح، مجلة الجامعة الإسلامية، مجلد (١٢) عدد (١) (غزة/١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ص٢٥.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ص٢٥.

بعد بيان التعريف اللغوي والاصطلاحي للتفسير الموضوعي تبين أنَّ النسبة بين المصطلحين هي التباين[1]؛ وذلك لأنَّ الغرض في التناسق الموضوعي غير الغرض في التفسير الموضوعي[2].

(ففي التناسق الموضوعي يقدم الباحث ما يدل على انتظام وتناسق السورة الواحدة من القرآن العظيم أو مجموعة من السور، لفظاً ومعنىً، بهدف إبراز التلاؤم والتوافق بين الموضوعات، أمَّا في التفسير الموضوعي؛ فإنَّ نظر الباحث إلى ما جاء في القرآن الكريم عن هذا الموضوع، وعرض عناصر الموضوع، بحسب ما تدل عليه الآيات وما يكمله من السنة النبوية لاستجلاء هدايات القرآن الكريم في الموضوع)[3].



(١) التباين: (هو أن يختلف معنى لفظ عن معنى لفظ آخر، بحيث لا يصدق أحدهما على شيء مما صدق عليه الآخر). مغني الطلاب، ص٩٢. أو (هي النسبة بين معنى ومعنى آخر مخالف له في المفهوم، ولا ينطبق أي واحد منهما على أي فرد مما ينطبق عليه الآخر). ضوابط المعرفة، ص٤٧.

(٢) ينظر: التناسق الموضوعي في السورة القرآنية، ص١٣.

(٣) المصدر السابق، ص١٣.

المبحث الثالث

أهمية دراسة مصطلح التناسق الموضوعي

ترجع أهمية دراسة مصطلح التناسق الموضوعي إلى أنَّه كغيره من أنواع العلوم المختصة بالقرآن الكريم له أهميته ومنزلته الخاصة، وتنبع أهمية هذا المصطلح من وثيق اتصاله بالقرآن الكريم، حيث يرتبط التناسق الموضوعي بقضايا السورة، وما يمكن أن يدل عليها، ومن ابرز الأمور التي تبين أهميته ومكانته، هي ما يأتي:

١. **إنَّ التناسق الموضوعي في السورة القرآنية من أبرز دلائل الإعجاز القرآني:** فالتناسق في آيات القرآن المجيد وسوره مع اختلاف موضوعات السورة الواحدة، كالعقائد، والأحكام، والقصص، والأوامر، والنواهي، يعتبر وجهاً من وجوه الإعجاز، فهو يدل على أنَّ القرآن معجز بنظمه وترتيبه المتناسق ومعانيه الشريفة. والسيوطي، جعل تناسق الآيات والسور وجهاً من وجوه الإعجاز، إذ قال: (وجوه إعجازه، حُسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحتها، ووجوه إيجازه، وبلاغته)[١]. فحسن تأليفه، هو المراد بتناسق الآيات والسور، من وجهة نظر الباحثة.

في هذا المقام قال الرازي[٢]، عند تفسيره لسورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾[٣]: (ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، عَلِم أنَّ القرآن كما أنَّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته)[٤].

إنَّ من المفسرين من بيَّن أنَّ للسورة مسائل وموضوعات مختلفة، وجعلها في سلك موضوع واحد، وهو نوع من أنواع بلاغة القرآن العظيم، إذ قال: (إنَّ التفنن في مسائل

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ج١/ ص٢٣.

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي، الإمام المفسر المتكلم، أوحد زمانه في المعقول والمنقول، من أهم مؤلفاته: (مفاتيح الغيب) و (معالم أصول الدين) توفي سنة (٦٠٦هـ). ينظر: طبقات المفسرين للسيوطي، ج١/ ص١١٥؛ الأعلام، ج٦/ ص٣١٣.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٢٨٥.

(٤) مفاتيح الغيب، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي، ط٣ (بيروت/١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ج٧/ ص١٠٦.

مختلفة منتظمة في سلك موضوع واحد هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التي لم تسبق لبليغ، ... والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه، وحسن اتساقه في سبكه، فهو دائر على قطب واحد في فلكه)[1].

نجد أنَّ سيد قطب يؤكد هذا المعنى، حين قال: (إنَّ لكل سورة من سوره شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب، كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يُظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تُحقق التناسق بينها وفق هذا الجو)[2].

٢. إنَّ دراسة التناسق الموضوعي، الذي يبين التتابع والانتظام بين موضوعات السورة الواحدة، **فيه ردٌّ على المستشرقين، الذين يَدَّعون تشتت الموضوعات وتفرقها،** ويقولون بأنَّ القرآن ليس نسقاً واحداً، فهو يخضع لأمزجة مختلفة وثقافات متغايرة[3]. وزعم بعضهم بان أسلوب القرآن الكريم يؤدي إلى تقطيع الفكرة واقتضاب[4] المعاني، وغرضهم من ذلك كله هو التشكيك في أنَّ القرآن من عند الله سبحانه[5]. ومهما بلغوا من التشكيك والطعن، فإنَّ تناسق آيات وموضوعات السورة الواحدة لاشك فيه، إذ ليس في كتاب الله المجيد تنافر، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[6].

(١) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد بن علي رضا القلموني (ت:١٣٥٤هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط (مصر/١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ج١/ ص٢٤٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت:١٣٨٥هـ) دار الشروق، ط١٧ (بيروت/القاهرة/١٤١٢هـ/١٩٩١م) ج١/ ص٢٧.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ج٢/ ص٥٧٨.

(٤) اقتضاب: اقتضب يقتضب، اقتضاباً، فهو مقتضب. والمعنى: القطع. قال بن فارس: (القاف والضاد والباء: أصل صحيح يدل على قطع الشيء). مقاييس اللغة، ج٥/ ص١٠٠؛ ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج٣/ ص١٨٢٧.

(٥) ينظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شُهبة محمد بن محمد بن سويلم (ت:١٤٠٣هـ) مكتبة السنة، ط٢ (القاهرة/١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م) ص٢٣٣.

(٦) سورة النساء: من الآية ٨٢.

٣. **بيان الحكمة في نظم الآيات واتساق موضوعاتها:** قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]. قال السيوطي: (قد تنزل الآيات على الأسباب الخاصة، وتوضع مع ما يناسبها من الآي العامة، رعاية لنظم القرآن، وحسن السياق)[2].

٤. **إنَّ الوقوف على التناسق الموضوعي في آيات السورة يبرز البناء المحكم بين أجزاء القرآن الكريم:** ويظهر نظم الآيات بأعلى ما توصف به من الدقة والإحكام والاتساق، ولا ريب أنَّ من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، قال تعالى: ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾[3].

قال الزرقاني[4]: (بين كلمات الجملة الواحدة من التآلف والتناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب، وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط، ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات)[5].

قال محمد دراز: (إنَّ السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد، يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وأنَّه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية)[6].

يقدم لنا البقاعي صورة بديعة يصف بها مدى الاتصال والتلاحم بين آيات وموضوعات السورة، حينما يقول: (تكون السورة كالشجرة النضيرة العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية، المزينة بأنواع الزينة، المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر،

---

(١) سورة هود: من الآية ١.

(٢) الإتقان، ج١/ ص١١٣.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٨.

(٤) هو محمد عبد العظيم الزرقاني، من علماء الأزهر، تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن والحديث، من أهم مؤلفاته: (مناهل العرفان في علوم القرآن) وله (بحث) في الدعوة والإرشاد، توفي سنة (١٣٦٧هـ). ينظر: الأعلام، ج٦/ ص٢١٠.

(٥) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (ت:١٣٦٧هـ) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣ (مصر/ د.ت) ج٢/ ص٣١٦.

(٦) النبأ العظيم، ص١٥٩.

وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرةً كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغُرِّ، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها)[١].

٥. **إنَّ لكل سورةٍ مقصدها ومحورها الخاص، ودراسة التناسق الموضوعي في السورة يعين على معرفة مقاصد السورة وبيان ما اختصت به من موضوعات:** قال الزركشي: (ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به)[٢].

ويوضح ما سبق سيد قطب إذ قال: (إنَّ لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة، وملامحها المميزة، ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعا، ومن مقتضيات الشخصية الخاصة، أن تتجمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها، تبرز فيه ملامحها، وتتميز به شخصيتها)[٣].

٦. هناك سور لا تحتوي إلَّا على موضوع واحد، وذلك كالسور القصار، وهناك سور تحتوي على أكثر من موضوع، كالطوال[٤]، والمئين[٥] من السور، **ودراسة التناسق تعين على التلذذ بجمال القرآن الكريم، ومعرفة تتابع الموضوعات بسلاسة من غير تنافر أو تفكك.** وإنَّ السورة القرآنية في تناولها لشتى المواضيع المتداخلة والمسائل المتشابكة والمشاهد المتراكبة والمناظر المتآلفة تشبه الحديقة التي تشتمل على مختلف الأزهار ومتنوعة الورود في مختلف الصور والهيئات[٦].

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، أبو بكر إبراهيم بن عمر بن حسن بن البقاعي (ت:٨٨٥هـ) دار المعارف، ط١ (الرياض/١٤٠٨هـ/١٩٨٧م) ج١/ ص١٤٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص٢٧٠.

(٣) في ظلال القرآن، ج١/ ص٥٥٥.

(٤) الطوال: وهي سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة، وقيل: إنَّها سورة يونس، سميت بذلك لطولها على سائر السور. ينظر: الإتقان، ج١/ ص٢٢٠.

(٥) المئون: وهي السور التي وليت السور الطوال، وسميت بذلك؛ لأنَّ كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها. ينظر: المصدر السابق، ج١/ ص٢٢٠.

(٦) دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، الدكتور محمد خليل جيجك، مؤسسة الرسالة، ط١ (بيروت/١٤٢١هـ/٢٠٠١م) ص١٨١.

أكد ذلك الفراهي[١]، إذ قال: (زيادة الشوق والمحبة واللذة، إنَّما يحصل بقدر زيادة المعرفة بمحاسن الكلام، وحسن النظام، وقوة الاستدلال)[٢].

٧. **إنَّ لكل سورة من سور القرآن المجيد موضوعاً كلياً تدور حوله السورة، ودراسة التناسق ترشدنا إلى هذا الموضوع الكلي:** فالتناسق يُعد الوسيلة للوصول إلى النتيجة التي هي الموضوع الكلي للسورة. (القرآن كتاب هداية، يسلك إلى النفوس طريقها ويتخوَّلها بالموعظة بين الحين والآخر، ولكنَّه جعل لكل سورة موضوعاً غالباً عليها، وسمات بارزة فيها)[٣].

إنَّ في كل سورة من سور القرآن الكريم روحاً يسري في آياتها، ويسيطر على مبادئها، وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها[٤]. فالنظر إلى معالم السور من المهمات، وهذا ما يعين على استخراج الموضوع الكلي الذي تدور عليه السورة بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطاً معنوياً محكماً، ثم إنَّ صرف التوجه لاستخراج ذلك يلزم إمعان النظر في دلالة الكلمات والسياق[٥].

---

(١) هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر الفراهي، أحد العلماء المشهورين في الهند، علّامة العربية والتفسير، من أهم مؤلفاته: (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) و (دلائل النظام) توفي سنة (١٣٤٩هـ). ينظر: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي (ت:١٣٤١هـ) دار بن حزم، ط١ (بيروت/١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ج٨/ ص١٢٦٧.

(٢) دلائل النظام، عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي الهندي (ت:١٣٤٩هـ) المطبعة الحميدية، ط١ (د.م/١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ص٢٦.

(٣) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، الدكتور عبد الله محمود شحاته ، الهيئة المصرية للكتاب، د.ط (مصر/١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) ص٦.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص٦.

(٥) ينظر: دلائل النظام، ص٨١- ٨٢؛ مفردات القرآن، عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي (١٣٤٩هـ) تحقيق: الدكتور محمد أجمل أيوب، دار الغرب الإسلامي، ط١ (بيروت/ ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ص٢٨.

٨. **إنَّ دراسة التناسق الموضوعي في السورة يقود المتدبر في الآيات لكي يصل إلى ما ترشد إليه السورة من الأحكام والشرائع، وتهديه للوصول إلى أمور دينه ودنياه:** قال الفراهي: (وبالجملة إذا نظرت في نظم الآيات ومطالبها، والسور وعمدها، هديت إلى نظم الشرائع والأحكام)[١].

٩. **إنَّ دراسة التناسق تبرز اللطائف القرآنية في السورة:** قال الرازي: (أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط)[٢].

١٠. **تبرز أهمية دراسة التناسق في الوقوف على الأسرار البيانية في السورة القرآنية:** ذلك أنَّ الكلمات ومفردات التركيب تتجه برمتها لخدمة مقصود السورة، وتتأثر في صياغتها وسبكها بروحها، ومن ثَّم نجد المعنى الواحد يرد في أكثر من سورة، ولكن يعبر عنه في كل واحدة منها بما يلائم سياقها، ويناسب مقصودها وجوَّها الخاص، فيتناسق المعنى مع سياق السورة[٣].



(١) مفردات القرآن، ص٣٦.

(٢) مفاتيح الغيب، ج١٠/ ص١١٠.

(٣) ينظر: وحدة النسق، ص١٩٢.

الباب الأول

مقدمات تعريفية لسورة النور

توطئة:

بعد ذكر التعريف اللغوي والاصطلاحي لمصطلحات البحث، والألفاظ ذات الصلة بالتناسق الموضوعي، وذكر أهمية دراسة هذا المصطلح في نقاط عدة أوردها العلماء في كتبهم، أشرعُ في هذا الباب لأُبين مقدمات تعريفية عن سورة النور، تشمل اسم السورة ووجه تسميتها، وعدد آياتها، وفضل السورة الكريمة، وبعض خصائص السورة كالتعريف بمكان نزول السورة وتاريخها، ومناسبة سورة النور لسورة المؤمنون التي سبقتها، ومناسبة سورة النور لسورة الفرقان اللاحقة لها، وذكر بعض الألفاظ التي اختصت بها سورة النور، وبيان المحور الأساسي للسورة، والمقاصد القرآنية في السورة وأغراضها.

التمهيد

بين يدي سورة النور

توطئة:

قبل الشروع في الدراسة التطبيقية لسورة النور، يَحسن أن نأخذ نظرة موجزة عن هذه السورة الكريمة، والتنقيب عن اسمها ووجه التسمية بهذا الاسم، ألها اسم ثانٍ أم أنَّها من السور التي لها اسم توقيفي واحد، أختلفَ العلماء في عدد آياتها أم اتفقوا على أنَّها أربعة وستون آية، وأيضاً لابد من ذكر فضل السورة، وجاء بيان ذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اسم السورة الكريمة، ووجه تسميتها.

المطلب الثاني: عدد آيات السورة الكريمة.

المطلب الثالث: فضل السورة الكريمة.

المطلب الأول

اسم السورة الكريمة، ووجه تسميتها

يشتمل هذا المطلب على فرعين:

الفرع الأول: اسم السورة الكريمة:

إنَّ اسم السورة عَلم عليها، وهو الذي يميزها عن غيرها، ومعرفة أسماء سور القرآن الكريم فيه أهمية كبيرة في معرفة مقصود السورة وأهدافها، ومن توصل إلى بيان مقصودها، عرف تناسب آيها، وتناسق موضوعها، وقصصها، وجميع أجزائها[١].

قال البقاعي: (إنَّ اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأنَّ اسم كل شيء يُظهِرُ المناسبة بينه وبين مسما عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه)[٢].

إنَّ بعض السور القرآنية قد تتعدد أسماؤها، قال الطبري[٣]: (لسوَر القرآن أسماء سماها بها رسول الله ﷺ)[٤].

قال ابن عاشور: (وأمَّا أسماء السور، فقد جعلت لها من عهد نزول الوحي)[٥].



(١) ينظر: مصاعد النظر، ج١/ ص١٤٩.

(٢) نظم الدرر، ج١/ ص١٢.

(٣) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، المؤرخ المفسر الإمام العلم المجتهد، عالم العصر، صاحب التصانيف البديعة، من أهم مؤلفاته: (جامع البيان في تأويل القرآن) و (أخبار الرسل والملوك) توفي سنة (٣١٠هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، ج١١/ ص١٦٥، ١٧٤؛ الأعلام، ج٦/ ص٦٩- ٧٠.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري (ت:٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١ (بيروت/١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ج١/ ص١٠٠.

(٥) التحرير والتنوير، ج١/ ص٩٠.

عن عثمان ﷺ، أنَّه قال لابن عباس ﷺ[1]: كانت إذا نزلت الآية على رسول الله ﷺ فإنَّه كان يقول: ((ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا))[2].

تنقسم سور القرآن الكريم من حيث تعدد أسمائها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما له اسم واحد، وهو أكثر سور القرآن، مثل: سورة النساء، والأعراف، الأنعام، مريم، وغيرها.

الثاني: ما له أكثر من اسم، ويشمل هذا النوع سوراً لها إسمان، كسورة محمد ﷺ حيث تسمى القتال، وأيضاً سورة الجاثية تسمى الشريعة، وسورة النحل تسمى النعم؛ لِما عدد الله فيها من النعم على عباده. ويشمل سوراً لها ثلاثة أسماء، مثل: سورة غافر وتسمى الطَّول والمؤمن، ومثل سورة المائدة وتسمى العقود والمنقذة. ويشمل سوراً لها أكثر من ثلاثة أسماء، مثل: سورة الفاتحة ومن أسمائها: أم الكتاب، أم القرآن، والسبع المثاني، والصلاة، والحمد، والوافية، والكنز ، والشافية.

الثالث: أن تسمى عدة سور باسم واحد، ومن ذلك: تسمية البقرة وآل عمران بالزهراوين، وتسمية السور المبدوءة بـ (حم) بآل حم[3].

والذي ينبغي التزامه هو المحافظة على الاسم الوارد للسورة وعدم تغييره، فإنَّ في

---

(١) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، بن عم رسول الله ﷺ، حبر الأمة، وترجمان القرآن، وهو الذي قال له النبي ﷺ: ((اللَّهمّ فقّهه في الدّين، وعلّمه التأويل)) توفي سنة (٦٨هـ). ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت: ٤٦٣هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط١ (بيروت/١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ج٣/ ص٩٣٤؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن الأثير الجزري (ت:٦٣٠هـ) تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ج٣/ ص٢٩١.

(٢) سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى الترمذي (ت:٢٧٩هـ) تحقيق: إبراهيم عطوة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢ (مصر/١٣٩٥هـ/١٩٧٥م). سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة التوبة، رقم الحديث (٣٠٨٦) من رواية: بن عباس ﷺ، قال الترمذي: حديث حسن، ج٥/ ص٢٧٢.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص٢٦٩؛ الإتقان، ج١/ ص١٩١- ١٩٣؛ دراسات في علوم القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط١٢ (د.م/ ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ص١٠٦.

فتح باب جواز التسمية إهداراً لكيان السورة، وما اشتهرت به، وإخفاء ما كان واضحاً جلياً، ووضعه في ثوب من الجهل، مما لا يليق وعظمة سور القرآن الكريم[١].

ثمَّ إنَّ للعلماء في مصدر تسمية السور مذهبان:

المذهب الأول: أنَّ أسماء السور توقيفية.

هذا هو الرأي الراجح، بدليل ما ورد عن النبي ﷺ من أسماء سور القرآن، كالفاتحة والبقرة والنساء الكهف وغيرها، وأيضاً ما اشتهر بين الصحابة ﷺ من أسماء بعض السور، وتواترها بين أجيال الأمة حتى هذا الحين، دون أن يختلف عليها أهل قرن عن غيرهم، ولا أهل مكان عمن سواهم[٢].

قال السيوطي: (وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك)[٣].

المذهب الثاني: أنَّ أسماء السور اجتهادية.

دليلهم هو عدم ورود جميع أسماء السور بالتوقيف، وإن وقع هذا لبعض السور[٤].

واستبعده الزركشي إذ قال: (ينبغي البحث عن تعداد الأسامي، هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها، وهو بعيد)[٥].

أمَّا سورة النور فلم يُعرف لها اسم غير هذا الاسم، أعني: (سورة النور) وهو الاسم الذي عرفت به منذ عهد الصحابة ﷺ، كما صحَّ عن أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، أنَّها: (كانت تقول لمَّا نزلت هذه الآية ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾[٦]، أخذن

(١) ينظر: دراسات في علوم القرآن، الدكتور محمد بكر إسماعيل (ت:١٤٢٦هـ) دار المنار، ط٢ (د.م/١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص٥٩.

(٢) ينظر: الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، إشراف: الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د.ط (مصر/١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ص٢٢١.

(٣) الإتقان، ج١/ ص١٨٦.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص٢٢٢.

(٥) البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص٢٧٠.

(٦) سورة النور: من الآية ٣١.

أُزرهن فشققنها من قِبَل الحواشي، فاختمرن بها)[١]. تريد نساء الأنصار، بدليل ما روي عنها "رضي الله عنها": (أنَّها ذكرت نساء الأنصار فأثنت عليهن، وقالت لهن معروفاً، وقالت: لما نزلت سورة النور عمدن إلى حُجور، فشققنهن، فاتخذنه خُمراً)[٢]. وعن ابن عباس ﷺ أنَّه قال: (أنزلت سورة النور بالمدينة)[٣].

قال ابن عاشور: هذه تسميتها في المصاحف، وكتب التفسير، والسنة، ولا يعرف لها اسم آخر)[٤].

الفرع الثاني: وجه تسميتها:

ذكر المفسرون أوجهاً كثيرة في سبب تسمية سورة النور بهذا الاسم، منها:

١. اشتمالها على كثير من الإشعاعات النورانية، من تشريع الأحكام، والفضائل الأخلاقية، والآداب، التي تعتبر قبساً من نور الله تعالى، الذي عمَّ الوجود كله، وأنار قلوب المؤمنين بكتابه الحكيم، الذي جعل نوراً وضياءاً وفيضاً من فيوضات رحمته على عباده[٥].

٢. (كثرة ذكر النور فيها، فقد تكرر في هذه السورة سبع مرات، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (المعروف بصحيح البخاري) أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت:٢٥٦هـ) تحقيق: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط١ (د.م/١٤٢٢هـ/٢٠٠١م). صحيح البخاري، كتاب تفسير القران، باب قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ رقم الحديث (٤٧٥٩) من رواية: صفية بنت شيبة "رضي الله عنها"، ج٦/ ص١٠٩.

(٢) سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني (ت:٢٧٥هـ) تحقيق: شعيب الارنؤوط، ومحمد كامل قره، دار الرسالة العالمية، ط١ (د.م/١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م). سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب قوله تعالى:﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ رقم الحديث (٤١٠٠) من رواية: صفية بنت شيبة، قال شعيب الانؤوط: حديث صحيح، ج٦/ ص١٩٦.

(٣) الدر المنثور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) دار الفكر، د.ط (بيروت/ د.ت) ج٦/ ص١٢٤. وعزاه السيوطي إلى بن مردويه.

(٤) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٣٩.

(٥) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، نخبة من العلماء بإشراف: الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ط١ (الإمارات/١٤١٣هـ/٢٠١٠م) ج٥/ ص١٦٥.

نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[٣]، وقد وردت هذه اللفظة في سور كثيرة في القرآن الكريم)[٤]. ومن العلماء من قال: إنَّ سورة النور لو سميت سورة الأسرة، لكانت جديرة بهذا الإسم[٥].

٣. قال وهبة الزحيلي[٦]: (سميت سورة النور ؛ لتنويرها طريق الحياة الاجتماعية للناس، ببيان الآداب والفضائل، وتشريع الأحكام والقواعد، ولتضمنها الآية المشرقة، وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾[٧]، أي: منورهما، فبنوره أضاءت السموات والأرض، وبنوره اهتدى الحيارى والضالون إلى طريقهم)[٨].

٤. سميت هذه السورة المباركة بهذا الاسم؛ وذلك لأنَّه لَمَّا اتهمت أمُّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها" على ألسِنة المشركين والمنافقين، وأوذي رسول الله ﷺ من هذا الحديث المفترى، كما أوذيت زوجه "رضي الله عنها"، وحل ظلاماً كثيفاً في سماء المسلمين، بسبب ما طاف حول بيت النبوة من غبار تلك التهمة المفتراة، نزلت هذه

(١) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٢) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٣) سورة النور: من الآية ٤٠.

(٤) أهداف كل سورة ومقاصدها، ص٢٥٥؛ الموسوعة القرآنية خصائص السور، جعفر شرف الدين، تحقيق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط١ (بيروت/١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) ج٦/ ص٧١؛ أسماء سور القران وفضائلها، الدكتورة منيرة محمد ناصر الدوسري، دار بن الجوزي، ط١ (السعودية/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ص٢٨١- ٢٨٢.

(٥) ينظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى (ت:١٣٩٤هـ) دار الفكر العربي، د.ط (بيروت/ د.ت) ج١٠/ ص٥١٣٠.

(٦) هو الأستاذ الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، دكتور متخصص في الفقه وأصول الفقه، درّسهما مع الفقه المقارن في كلية الشريعة بدمشق، من أهم مؤلفاته: (التَّفسير المنير في العقيدة والشَّريعة والمنهج) و(الفقه الإسلامي وأدلته) توفي سنة (١٤٣٦هـ). ينظر: موقع شبكة الالوكة: www.alukah.net/culture/0/1721/

(٧) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٨) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي (ت:١٤٣٦هـ)، دار الفكر المعاصر، ط٢ (دمشق/١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ج١٨/ ص١١٨.

السورة بالآيات التي تبرِّئ البريئة الصدِّيقة بنت الصديق، فانقشع هذا الظلام، وكشف النور السماوي، عن وجوه المنافقين المفترين، وما جاء في السورة الكريمة من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[1]، فإنَّ لهذه الأنوار التي تملأ الوجود من نور الله، ولهذه الآيات المنزلة التي أضاءت للمسلمين ظلام الليل الكثيف، وفضحت المشركين والمفترين، فقد استحقت السورة أن تحمل هذا الاسم، وأن تكون نوراً على نور، من نور الله تعالى[2]. فما تحتويه هذه السورة من إشعاعات النور، وما فيها من الآداب الإسلامية العامة التي تحافظ على الأنساب والأعراض، بينت أنَّ هذا كله هو نور من الله تعالى[3].

٥. قال المهايمي[4]، في سبب تسمية سورة النور بهذا الاسم: (لاشتمالها على ما أمكن من بيان النور الإلهي بالتمثيل، المفيد كمال المعرفة الممكنة لنوع الإنسان، مع مقدماتها، وهي من أعظم مقاصد القرآن)[5].



(١) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٢) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد١٣٩٠هـ) دار الفكر العربي، د.ط (القاهرة/ د.ت) ج٩/ ص١١٩٩- ١٢٠٠.

(٣) ينظر: التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، دار الجيل الجديد، ط١٠ (بيروت/ ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ج٢/ ص٦٤٩.

(٤) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن علي المهائمي الهندي، المعروف بالمخدوم، باحث مفسر، كان يقول بوحدة الوجود، من أهم مؤلفاته: (تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن) و (زوارف اللطائف في شرح عوارف المعارف) توفي سنة (٨٥٣هـ). ينظر: الأعلام، ج٤/ ص٢٥٧.

(٥) تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن احمد بن إبراهيم المهايمي (ت:٨٥٣هـ) مطبعة بولاق، د.ط (مصر/ د.ت) ج٢/ ص٦٢.

المطلب الثاني

عدد آيات السورة الكريمة

قبل بيان عدد آيات سورة النور لابد من بيان معنى الآية لغةً واصطلاحاً.

أولاً: الآية لغةً:

تطلق الآية في لسان اللغة بإطلاقات عدة، منها:

١. **العلامة**(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾(٣)، أي: نريهم العلامات التي تدل على التوحيد في آثار من مضى قبلهم من خلق الله عز وجل(٤).

٢. **العبرة**، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾(٥)، وأيضا قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ﴾(٦)، أي: أمور وعِبر كثيرة مختلفة(٧).

٣. **الجماعة**، ومنه قولهم: (خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم)(٨).

ثانياً: الآية اصطلاحاً:

الآية اصطلاحاً: (هي طائفةٌ من القرآن يتصل بعضها ببعض إلى انقطاعها، طويلةً كانت أو قصيرة)(٩).

سميت آية ولم تسم علامة؛ لأنَّ الآية أقوى من العلامة، فالآية هي العلامة الثابتة من قولك: تأييت بالمكان إذا تحبست به وتثبت، والعلامة تكون بوضع الواضع،

---

(١) ينظر: العين، ج٨/ ص٤٤١؛ الصحاح، ج٦/ ص٢٢٧٥؛ مقاييس اللغة، ج١/ ص١٦٨.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢٤٨.

(٣) سورة فصلت: من الآية ٥٣.

(٤) ينظر: لسان العرب، ج١٤/ ص٦١.

(٥) سورة المؤمنون: من الآية ٥٠.

(٦) سورة يوسف: من الآية ٧.

(٧) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ج١٠/ ص٥٩٤؛ لسان العرب، ج١٤/ ص٦٢.

(٨) مقاييس اللغة، ج١/ ص١٦٨.

(٩) التعريفات، ص٤١.

فعلامة الشيء ما يعرف به المعلم له، ومن شاركه في معرفته دون كل واحد[١].

إنَّ ترتيب الآيات في السور هو أمر توقيفي ثابت بالوحي وبأمر النبي ﷺ، ونقل الزركشي الإجماع على ذلك[٢].

قال السيوطي: (إنَّ ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، وأما الإجماع فنقله غير واحد ... وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين)[٣].

أمَّا علم عد الآي ومعرفة الفواصل فهو: علم يبحث فيه عن أحوال آيات القرآن الكريم، من حيث عدد آيات كل سورة، وابتداء كل آية وختامها[٤].

هذا العلم قد استمده العلماء من مقدمات منقولة عن الصحابة ﷺ مبنية على الأمور الاستحسانية، والغرض من ذلك هو الوصول لملكة يقتدر بها على معرفة رؤوس الآي، ومبادئها[٥].

لقد اختلف العلماء في عدد آيات القرآن الكريم، وذلك للاختلاف في عدد آيات بعض السور[٦]، وهذا الاختلاف لا ينفي أنَّ معرفة عدد آيات كل سورة أمر توقيفي يرجع فيه إلى الرواية عن النبي ﷺ، وأنَّ سبب الاختلاف لا يرجع إلى القياس ولا إلى الاجتهاد، بل السبب في ذلك كما ذكر العلماء، أنَّ النبي ﷺ إذا قرأ السورة وقف على رأس الآية تبين أنَّ هذه فاصلة، وإذا وصل الكلام تبين أنَّه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى، احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة أو للاستراحة، والوصل أن يكون غير

(١) ينظر: الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري (ت:٣٩٥هـ) تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم، د.ط (القاهرة/ د.ت) ص٧١.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص٢٥٧؛ مناسبات الآيات والسور، الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد (٩) (المدينة المنورة/ د.ت) ص٥١.

(٣) الإتقان، ج١/ ص٢١١- ٢١٢.

(٤) ينظر: القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز، أبو عيد رضوان بن محمد بن سليمان المخللاتي (ت:١٣١١هـ) تحقيق: عبد الرزاق بن علي موسى، وزارة الأعلام، ط١ (المدينة المنورة/١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص٩٠.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ص٩٠.

(٦) ينظر: البيان في عدِ آي القرآن، أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني (ت:٤٤٤هـ) تحقيق: الدكتور غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث، ط١ (الكويت/١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م) ص٧٩.

فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها[١].

قال الداني[٢]، في معنى ذلك: (وقد أفصح الصحابة ﷺ بالتوقيف، بقولهم: إنَّ رسول الله ﷺ كان يعلمهم العشر، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، وجائز أن يعلمهم العشر كاملاً في فور واحد، ومفرقاً في أوقات، وكيف كان ذلك فعنه أخذوا رؤوس الآي آية آية)[٣].

ونقل الزركشي عن ابن العربي أنَّه قال: (وتعديد الآي من مُفصِّلات القرآن ... وينبغي أن يعوَّل في ذلك على فعل السلف)[٤].

عدد آيات سورة النور:

اختلف العلماء في عد آي سورة النور، فقد عدها المكي[٥]، والمدنيان[٦]: ستون وآيتان، وعدها الباقون[٧]: ستين وأربعاً[٨].

---

(١) ينظر: الإتقان، ج٣/ ص٣٣٣.

(٢) هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الداني، عالم الأندلس، احد أئمة القراءات، الحافظ، الحاذق، من أهم مؤلفاته: (البيان في عدِّ آي القرآن) و (التيسير في القراءات السبع) توفي سنة (ت:٤٤٤هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، ج١٣/ ص٣١٧، ٣١٩.

(٣) البيان في عدِّ آي القرآن، ص٤٠.

(٤) البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص٢٦٨.

(٥) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي، تابعي، مفسر من أهل مكة، قال عنه الذهبي: ثقة، اختلف في سنة وفاته (١٠٢هـ) وقيل (١٠٤هـ). ينظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت:٧٤٨هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، ط١ (بيروت/١٣٨٢هـ/١٩٦٣م) ج٣/ ص٤٣٩- ٤٤٠؛ الأعلام، ج٥/ ص٢٧٨.

(٦) هما المدني الأول والمدني الأخير. ينظر: الفرائد الحسان في عدِّ آي القرآن، عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي (ت:١٤٠٣هـ) مكتبة الدار، ط١ (المدينة المنورة/١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص٢٦. أمَّا الأول فهو: أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، أحد القراء السبعة، ثقة، صالح، أخذ القراءة عرضا عن جماعة من تابعي أهل المدينة، توفي سنة (١٦٩هـ). ينظر: غاية النهاية في طبقات القراء، أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف بن الجزري (ت:٨٣٣هـ) مكتبة بن تيمية، د.ط (د.م/د.ت) ج٢/ ص٣٣٠. وأمَّا المدني الأخير هو: أبو جعفر يزيد بن القعقاع الإمام المدني، تابعي، أحد القرّاء العشرة، سمي القارئ؛ لأنَّه كان إمام أهل المدينة في القراءة، واختلف في وفاته: فقل (١٢٩هـ) وقيل (١٣٠هـ) وقيل (١٣٢هـ). ينظر: المصدر السابق، ج٢/ ص٣٨٢- ٣٨٤.

(٧) الباقون: أي باقي القراء عدا المدنيين والمكي، وهم البصري، الدمشقي، الحمصي، الكوفي. ينظر: الفرائد الحسان، ص٢٥.

(٨) ينظر: البيان في عدِّ آي القرآن، ص١٩٣؛ جمال القراء وكمال الإقراء، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي (ت:٦٤٣هـ) تحقيق: الدكتور مروان العطيَّة، الدكتور محسن خرابة، دار المأمون للتراث, ط١ (دمشق/ بيروت/١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ص٢٨٩.

موضع الاختلاف في آيتين، الأولى في قوله تعالى: ﴿ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾[1]، والثانية في قوله تعالى: ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[2]، عدها العراقيون والشامي، ولم يعدها المدنيان والمكيّ[3].

قال عبد الفتاح القاضي[4]: مواضع الخلاف في سورة النور ثلاثة آيات: الأولى: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾[5]، والثانية: ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[6]، والثالثة: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[7]، لم يعده الحمصي وعدها غيره، وقد نظمها بقوله:

....   والشام كالعراق والآصال عد

واعدد لهؤلاء بالأبصار   ودع لحمص لأولي الأبصار.

ثم قال: بينت أنَّ الشامي[8]، والعراقي[9]، عدُّوا قوله تعالى: ﴿ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ فيكون هذا الموضع ساقطاً في عدد الحجازيين[10]، ثم قوله تعالى: ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ هو للشامي والعراقي أيضاً، فيكون كسابقه يعده من يعده، ويتركه من يتركه، ثم بينت ترك

(١) سورة النور: من الآية ٣٦.

(٢) سورة النور: من الآية ٤٣.

(٣) ينظر: فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد جمال الدين الجوزي (ت:٥٩٧هـ) دار البشائر، ط١ (بيروت/١٤٠٨هـ/١٩٨٧م) ص٢٦٩.

(٤) هو عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمَّد المصري القاضي، العلَّامة، المحقق، من أفاضل علماء الأزهر، بارز في القراءات وعلومها، وفي العلوم الشرعية والعربية، من أهم مؤلفاته: (الفرائد الحسان في عدَّ آي القرآن) و (البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة) توفي سنة (١٤٠٣هـ). ينظر: إمتاع الفضلاء بتراجم القرّاء فيما بعد القرن الثامن الهجري، إلياس بن أحمد حسين بن سليمان علي الساعاتي، تقديم: المقرئ محمَّد تميم الزّعبي، دار الندوة العالمية، ط١ (د.م/١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ج١/ ص١٩٤، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١.

(٥) سورة النور: من الآية ٣٦.

(٦) سورة النور: من الآية ٤٣.

(٧) سورة النور: من الآية ٤٤.

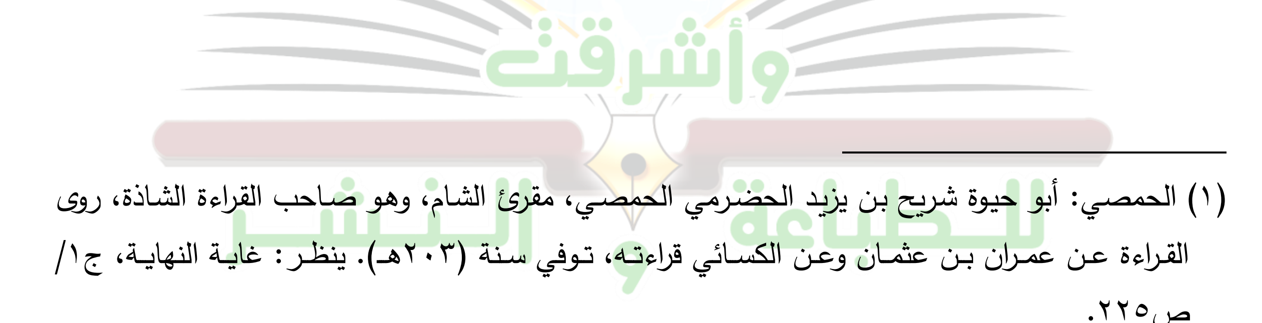
(٨) هو العدد الدمشقي والحمصي معا، فالعدد الدمشقي هو: ما رواه يحيى الذماري عن عبد الله بن عامر، اليحصبي عن أبي الدرداء وينسب هذا العدد إلى عثمان بن عفان ﷺ. والعدد الحمصي هو: ما أضيف إلى شريح بن يزيد الحمصي الحضرمي. ينظر: الفرائد الحسان، ص٢٦- ٢٧.

(٩) المراد هو العدد البصري والكوفي. والعدد البصري هو: ما يرويه عطاء بن يسار وعاصم الجحدري، وينسب إلى أيوب بن المتوكل. والعدد الكوفي هو: ما يرويه حمزة وسفيان عن علي بن أبي طالب ﷺ، بواسطة ذوي علم وخبرة. ينظر: المصدر السابق، ص٢٦- ٢٧.

(١٠) الحجازيون: والمراد هو ما يشمل المدنيان والمكي. ينظر: المصدر نفسه.

عدِّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ للحمصي[1]، فيكون معدوداً لغيره من علماء العدد، وقيدت الأبصار الأول بالباء، والثاني بـ (لأولى) احترازاً عن قوله تعالى: ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[2]، فإنّه معدود بالإجماع[3]. فوجه العد هو المشاكلة، ووجه الترك هو عدم المساواة[4].

في سورة النور موضعان مما يشبه الفواصل، وهو متروك وليس معدوداً بالإجماع، الأول قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5]، وبعده قوله تعالى: ﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ﴾[6]، والثاني قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾[7][8].



(١) الحمصي: أبو حيوة شريح بن يزيد الحضرمي الحمصي، مقرئ الشام، وهو صاحب القراءة الشاذة، روى القراءة عن عمران بن عثمان وعن الكسائي قراءته، توفي سنة (٢٠٣هـ). ينظر: غاية النهاية، ج١/ ص٢٢٥.

(٢) سورة النور: من الآية ٣٧.

(٣) ينظر: الفرائد الحسان، ص٤٨؛ المحرر الوجيز في عدِّ آي الكتاب العزيز، عبد الرّازق علي إبراهيم موسى، مكتبة المعارف، ط١ (الرياض/١٤٠١هـ/١٩٨٨م) ص١١٨.

(٤) ينظر: المصدر نفسه.

(٥) سورة النور: من الآية ١٩.

(٦) سورة النور: من الآية ١٩.

(٧) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٨) ينظر: البيان في عدِّ آي القرآن، ص١٩٣؛ سعادة الدارين في بيان وعدِّ آي معجز الثقلين على ما ثبت عند أئمة الأمصار وجرى عليه سائر الأقطار، محمد بن علي بن خلف الحسيني الحداد (١٣٥٧هـ) مطبعة المعاهد، ط١ (مصر/١٣٤٣هـ/١٩٢٥م) ص٤٤؛ المحرر الوجيز لعبد الرزاق، ص١١٨.

المطلب الثالث

فضل السورة الكريمة

إنَّ أحسن الحديث عند الله تعالى هو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾[١]، فهو المهديّ للناس أجمعين، يهدي الله سبحانه به الناس إلى الحق، ويفرق لهم بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ ﴾ [٢]، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[٣].

قال الشاطبي[٤]: (إنَّ الكتاب العزيز هو كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنَّه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه)[٥].

على هذا فإنَّ معرفة علم فضائل السور أو فضائل القرآن هو من أجل العلوم وأشرفها، وذلك لارتباطها بكتاب الله تعالى، وهو علم مستمد من الأحاديث النبوية المتفاوتة في درجات الصحة، والأقوال والآثار الواردة عن الصحابة والتابعين[٦].

إنَّ علم فضائل القرآن الكريم هو موضوع متداول بكثرة، يطرق أسماع الناس على اختلاف طبقاتهم، علماءً وعامة، صغاراً وكباراً، ولكن لم يرد تعريف لهذا العلم عند المتقدمين، إلَّا من اقتصر على معنى الفضائل لغة – ولم أجد ذلك أيضاً – ولعل السبب

---

(١) سورة الزمر: من الآية ٢٣.

(٢) سورة البقرة: من الآية ١٨٥.

(٣) سورة الفرقان: آية ١.

(٤) هو إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشاطبي، أصولي حافظ، كان من أئمة المالكية، من أهم مؤلفاته: (الموافقات) و (المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية) توفي سنة (٧٩٠هـ). ينظر: الأعلام، ج١/ ص٧٥.

(٥) الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي (ت:٧٩٠هـ) تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن، دار بن عفان، ط١ (د.م/١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ج٤/ ص١٤٤.

(٦) ينظر: موسوعة فضائل سور وآيات القرآن، محمد بن رزق بن طرهوني، دار بن القيم، ط١ (المملكة العربية السعودية /١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ج١/ ص٧.

في إعراض المتقدمين عن تعريفه؛ هو وضوح موضوعه لدرجة كبيرة، فلم يروا حاجة ملحة إلى تعريفه(١).

وهناك مِن المعاصرين مَن عرَّف فضائل القرآن، بقوله: (هي ما جاء في بيان شرف القرآن وما يتعلق به، وإظهار مزايا سوره وآياته، ومنافعها الدنيوية والأخروية)(٢).

ووردت أحاديث تدل على فضل القرآن الكريم بشكل عام، دون تخصيص سورة من السور، منها: ما صَحَّ عن عثمان بن عفان ﷺ أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: ((خَيرُكُم مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))(٣).

صَحَّ أيضاً عن انس بن مالك ﷺ(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ))(٥).

إنَّ إظهار منزلة هذا الكتاب بما يحويه من الفضائل، يدل على علو مقام النبي ﷺ وكرامة هذه الأمة، حيث اختصهم بهذا الكتاب العظيم على ما سواه من الكتب السماوية الأخرى(٦).

---

(١) ينظر: فضائل القرآن الكريم، الدكتور عبد السلام بن صالح بن سليمان الجار الله، دار التدمرية، ط١ (الرياض/١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ص٣٦.

(٢) فضائل القرآن الكريم، ص٤٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم الحديث (٥٠٢٨) من رواية: عثمان بن عفان ﷺ، ج٦/ ص١٩٢.

(٤) هو أنس بن مالك بن النضر بن زيد الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، شهد بدراً وهو غلام، ومازحه النبي ﷺ فقال له: ((يا ذَا الأُذُنَين)) واختلف في سنة وفاته، فقيل (٩١هـ) وقيل (٩٢) وقيل (٩٣هـ). ينظر: أسد الغابة، ج١/ ص٢٩٤؛ الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م) ج١/ ص٢٧٦.

(٥) سنن بن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني (ت:٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د.ط (بيروت/ د.ت). سنن بن ماجة، افتتاحية الكتاب، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه، رقم الحديث (٢١٥) من رواية: انس بن مالك ﷺ. قال محمد فؤاد: إسناده صحيح، ج١/ ص٧٨.

(٦) ينظر: موسوعة فضائل سور وآيات القرآن، ج١/ ص٨.

مراعاة فضائل السور والآيات معينة على الارتقاء بالنفس وتزكيتها في معارج التقوى والعبادة والأخلاق والسلوك والمعاملات، اقتداءً بالنبي محمد ﷺ، حيث لا تنفصل التلاوة عن التطبيق والسلوك(١).

ولقد دلت الأدلة على أفضلية بعض السور والآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾(٢)، وأيضاً ما ورد من الأحاديث الصحيحة التي وردت في فضل بعض الآيات والسور، وهي منتشرة في كتب السنة النبوية، وفي كتب فضائل القرآن، وكلها تدل دلالة واضحة على وجود الأفضلية بين السور(٣).

فيما يتعلق بسورة النور، التي نحن بصددها، فإنَّ من أهم الآثار التي وردت في فضلها، هو ما صَحَّ عن ابن مخرمة ﵁(٤)، أنَّه قال: سمعت عمر ابن الخطاب ﵁، يقول: (تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةَ النِّسَاءِ، وَسُورَةَ الْمَائِدَةِ، وَسُورَةَ الْحَجِّ، وَسُورَةَ النُّورِ، فَإِنَّ فِيهِنَّ الْفَرَائِضَ)(٥).

---

(١) ينظر: الكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم، إعداد مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، ط١ (عمان/١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ص١١.

(٢) سورة البقرة: من الآية ١٠٦.

(٣) ينظر: صحيح البخاري، ج٦/ ص١٨٨، ١٩٠؛ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (المعروف بصحيح مسلم) أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، د.ط (بيروت/ د.ت) ج١/ ص٥٥٦، ٥٥٨؛ فضائل القرآن، أبو العباس جعفر بن محمد بن المعتز بن محمد المستغفري النسفي (ت:٤٣٢هـ) تحقيق: أحمد بن فارس السلوم، دار بن حزم، ط١ (د.م/ ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ج١/ ص٤٨٤، ٤٩٥، ج٢/ ص٦٢٨؛ فضائل القرآن وتلاوته، أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي (ت:٤٥٤هـ) تحقيق: الدكتور عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، ط١ (د.م/ ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ج١/ ص١٥٠.

(٤) هو المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي، له صحبة، وقبض النبي ﷺ والمسور بن ثمان سنين، وسمع من النَّبِيّ ﷺ وحفظ عنه، وكان فقيها من أهل العلم والدين، توفي سنة (٦٤هـ). ينظر: الاستيعاب، ج٣/ ص١٣٩٩؛ أسد الغابة، ج٥/ ص١٧٠.

(٥) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري (ت:٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١١هـ/ ١٩٩٠م). قال الحاكم: (صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه). وتابعه الذهبي، فقال: (على شرط البخاري ومسلم) ج٢/ ص٤٢٩؛ فضائل القرآن للمستغفري، ج٢/ ص٥٧٧.

وعن عائشة "رضي الله عنها" قالت: قال رسول الله ﷺ: ((لَا تُنْزِلُوا النِّسَاءَ الْغُرَفَ وَلَا تُعَلِّمُوهُنَّ الْكِتَابَةَ، وَعَلِّمُوهُنَّ الْمِغْزَلَ وَسُورَةَ النُّورِ))[١].

قال البقاعي: (قال بعض العلماء في آيات الإفك: إنها أرجى ما في القرآن؛ لأنَّ الله عظم شأن الإفك، وتوعد عليه غاية الوعيد، وجعله منافيا للإيمان، ثم أمر بالعطف على بعض من وقع فيه، ووصفهم بالقرابة والسكنة والهجرة، وندب إلى الإنفاق والعفو عنهم والصفح)[٢].

وقد وردت أحاديث ضعيفة تخص فضل سورة النور، في كتب التفسير وكتب فضائل القرآن، لا يسع المقام بذكرها.



(١) المستدرك على الصحيحين، قال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ج٢/ ص٤٣٠.

(٢) مصاعد النظر، ج٢/ ص٣١٢- ٣١٣.

الفصل الأول

خصائص السورة المكانية، والتاريخية، والمناسبية، والاختصاصية

توطئة:

إنَّ لكل سورة من سور القرآن الكريم مكان نزول خاص بها، فبعض السور نزل في مكة، وبعضها نزل في المدينة، وبعضها نزل في مكان قريب من مكة، أو من المدينة، وأيضا فإنَّ لكل سورة لها مرحلة زمنية نزلت بها، كحادثة، أو غزوة صاحبت نزولها، أو القبلية والبعدية بالنسبة لسورة أخرى، كأن يقال سورة كذا نزلت قبل سورة كذا، ولقد أورد بعض العلماء في تفاسيرهم مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، وهذه من اللطائف القرآنية التي تُبين إعجاز وعظمة القرآن الكريم، وإنَّ كل سورة اختصت عن غيرها من السور بألفاظ وجمل وكلمات، وسورة النور اختصت من بين سائر سور القرآن الكريم بعدد من الموضوعات والألفاظ.

المبحث الأول

مكان نزول السورة

إنَّ مكان النزول جعل سور القرآن الكريم وآياته تنقسم إلى ما يسمى بالمكي والمدني، ولكل قسم منهما خصائصه وأهدافه ومقاصده، وكل قسم يختلف عن الآخر، وذلك بحسب طبيعة المرحلة التي اقتضت ذلك النزول، فالسور المدنية يمكن التعرف إليها من خلال أغراضها ومقاصدها، وكذلك بالنسبة للسور المكية.

إنَّ للعلماء في المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات:

أحدها: أنَّ المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة.

والثاني: أنَّ المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة.

والثالث: أنَّ المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة[١]. وهذا الرأي هو ما رجحه الزركشي[٢].

مما جعل هذا القول هو المشهور: أنَّه يجمع الآيات فلا تبقى آيات لا مكية ولا مدنية، فهو تعريف ضابط وحاصر، ولا يختلف بخلاف سابقيه، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم[٣].

ثمَّ إنَّ لمعرفة المكي والمدني أهمية كبيرة، قال الزرقاني: (من فوائد العلم بالمكي والمدني: تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفا للحكم في غيرها، ثم عَرَفَ أنَّ بعضها مكي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأنَّ المدني منها ناسخ للمكي، نظراً إلى تأخر المدني عن المكي)[٤].

وإنَّ فيه فائدة تذوق أساليب القرآن الكريم، والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، فمراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجاً لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله، بما يلائم

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص١٨٧.

(٢) ينظر: المصدر نفسه.

(٣) ينظر: مناهل العرفان، ج١/ ص١٩٤.

(٤) المصدر السابق، ج١/ ص١٩٥.

نفسية المخاطب، فالسور والآيات المكية كانت موجهة إلى تصحيح عقيدة الناس، وهذا يبين أنَّه أول ما ينبغي دعوة الناس إليه هو تصحيح العقيدة، والسور والآيات المدنية كانت موجهة إلى تنظيم الحياة الأسرية، والحالات الاجتماعية، وبناء مجتمع خالي من الفساد والفوضى[(١)].

ومعرفة السور المكية والمدنية يبين للمفسر الحكمة الإلهية في التدرج في التشريع الإسلامي، وما فيه من الحكمة من مراعاة أحوال المسلمين[(٢)].

ومن المعلوم أنَّه لم يكن من النبي ﷺ في ذكر المكي والمدني قول ولا نص، ولم يرد عن النبي ﷺ أنَّه قال: اعلموا أنَّ قدر ما أنزل عليَّ من القرآن بمكة هو كذا وكذا، وأنَّ ما أنزل عليَّ من القرآن بالمدينة هو كذا وكذا، ولو كان ذلك منه ﷺ لظهر وانتشر، وعُرفت الحال فيه، وإنَّما عدل ﷺ عن ذلك؛ لأنَّه مما لم يؤمر فيه، ولم يجعل الله تعالى علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، ليعرف الحكم الذي ضمنها، وإنَّما يرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين[(٣)].

عن ابن مسعود ﷺ[(٤)]، أنَّه قال: (والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلَّا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلَّا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه)[(٥)].

(١) ينظر: مباحث في علوم القرآن، ص٥٩.

(٢) ينظر: مناهل العرفان، ج١/ ص١٩٥.

(٣) ينظر: الإنتصار للقرآن، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني (ت:٤٠٣هـ) تحقيق: الدكتور محمد عصام القضاة، دار الفتح، دار ابن حزم، ط١ (عَمَّان/بيروت/١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م) ج١/ ص٢٤٧.

(٤) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أسلم قديماً، هو أول من جهر بالقرآن بمكة، شهد بدراً والمشاهد بعدها، ولازم النبي ﷺ، وكان صاحب نعليه ﷺ، توفي سنة (٣٢هـ). ينظر: أسد الغابة، ج٣/ ص٣٨١؛ الإصابة، ج٤/ ص١٩٩.

(٥) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم الحديث (٥٠٠٢) من رواية: عبدالله بن مسعود ﷺ، ج٦/ ص١٨٧؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ﷺ، رقم الحديث (٢٤٦٣) من رواية: عبدالله بن مسعود ﷺ، ج٤/ ص١٩١٣.

إنَّ ما لم يصل إلينا حكم الصحابة والتابعين ﵃ عليه – أي: أهو مكي أم مدني– فإنَّ العلماء اجتهدوا في معرفة ذلك من خلال تتبع خصائص كل من القرآن المكي والمدني، فما غلبت عليه خصائص القرآن المكي رجحوا أنَّه مكي، وما غلبت عليه خصائص القرآن المدني رجحوا أنَّه مدني، وإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا: إنَّها مدنية، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا: إنَّها مكية(١).

وعن عروة(٢)، قال: (إني لأعلم ما نزل من القرآن بمكة، وما أنزل بالمدينة، فأمَّا ما نزل بمكة فضرب الأمثال، وذكر القرون، وأمَّا ما نزل بالمدينة فالفرائض، والحدود، والجهاد)(٣).

إنَّ سورة النور مدنية بالاتفاق، وهي كذلك لما تحتويه من صفات السور المدنية وخصائصها، من الحكاية عن الآداب الاجتماعية، والعلاقات الأسرية، ونظام الدولة الإسلامية، وما فيها من حدود وأحكام.

قال النحاس(٤): سُئل مجاهد عن تلخيص آي القرآن المدني من المكي، فقال: (سألت ابن عباس ﵄ عن ذلك – فذكر ما نزل من السور في مكة وما نزل في المدينة، وقال في سورة النور: إِنَّها نزلت بالمدينة، فهي مدنية)(٥).

---

(١) ينظر: مباحث في علوم القرآن، ص٦٠.

(٢) هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، تابعي، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ﵁، توفي سنة (٩٣هـ). ينظر: وفيات الأعيان، ج٣/ ص٢٥٥؛ الأعلام، ج٤/ ص٢٢٦.

(٣) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار (المعروف بمصنف بن أبي شيبة) أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة (ت:٢٣٥هـ) تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، ط١ (الرياض/١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ج٦/ ص١٤٠.

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس المصري النحوي، مفسر، أديب، من أهم مؤلفاته: (إعراب القران) و (الناسخ والمنسوخ) توفي سنة (٣٣٨هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، ج١٢/ ص٢٣؛ الأعلام، ج١/ ص٢٠٨.

(٥) الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس (ت:٣٣٨هـ) تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام، مكتبة الفلاح، ط١ (الكويت/١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص٤١٥، ٥٨١؛ ينظر: الإتقان، ج١/ ص٣٩- ٤٠.

وذكر البيهقي[1]، عن عكرمة[2]، أنَّه قال: (ما نزل بالمدينة: ويل للمطففين، والبقرة، وآل عمران، والأنفال، والأحزاب، والمائدة، والممتحنة، والنساء، إذا زلزلت، والحديد، ومحمد والرعد، والرحمن، وهل أتى على الإنسان، والطلاق، لم يكن، والحشر، وإذا جاء نصر الله، **والنور**، والحج، والمنافقون، والمجادلة، والحجرات)[3].

فسورة النور مدنية، بناءً على الآتي:

١. قول ابن عباس رضي الله عنه[4].

٢. انعقاد الإجماع على مدنية السورة: قال ابن عطية[5]: (هذه السورة كلها مدنية)[6].

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الفقيه، الشافعي، الحافظ الكبير، المشهور بسعة علمه ومعرفته بالاختلاف، من أهم مؤلفاته: (دلائل النبوة) و (الأسماء والصفات) توفي سنة (٤٥٨هـ). ينظر: وفيات الأعيان، ج١/ ص٧٥؛ الأعلام، ج١/ ص١١٥- ١١٦.

(٢) هو أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى عبد الله بن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، توفي سنة (١٠٥هـ). ينظر: ميزان الاعتدال، ج٣/ ص٩٣، ٩٦؛ الأعلام، ج٤/ ص٢٤٤.

(٣) دلائل النبوة، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت:٤٥٨هـ) تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ج٧/ ص١٤٣.

(٤) ينظر: ص٥٩ من هذا الكتاب.

(٥) هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، مفسر وفقيه أندلسي، عارف بالأحكام والحديث، بارع بالأدب، من أهم مؤلفاته: (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) و (برنامج) في ذكر مروياته وأسماء شيوخه، توفي سنة (٥٤٢هـ). ينظر: طبقات المفسرين للداوودي، ج١/ ص٢٦٥- ٢٦٦؛ الأعلام، ج٣/ ص٢٨٢.

(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت:٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ج٤/ ص١٦٠.

وقال القرطبي[1]: (سورة النور مدنية بالإجماع)[2].

٣. اجتماع الضابط المدني في السورة، لِما ذُكر فيها من الحدود، وأحكام العفاف، والاستئذان، وغيرها من الأغراض الهادفة لبناء مجتمع إسلامي قويم.



(١) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن الخزرجي الأندلسي القرطبي، من كبار المفسرين، له تصانيف مفيدة تدل على إمامته، وكثرة إطلاعه، من أهم مؤلفاته: (الجامع لأحكام القرآن) و (التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة) توفي سنة (٦٧١هـ). ينظر: طبقات المفسرين للسيوطي، ج١/ ص٩٢؛ الأعلام، ج٥/ ص٣٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين القرطبي (ت:٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط٢ (القاهرة/ ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) ج١٢/ ص١٥٨.

المبحث الثاني
تاريخ نزول السورة

تاريخ نزول السورة: هو معرفة المرحلة الزمنية لنزولها، أو الحادثة، أو الغزوة التي صاحبت نزولها، والقبلية والبعدية بالنسبة لسورة أخرى، كأن يقال: سورة كذا نزلت قبل سورة كذا[١].

إنَّ معرفة تاريخ نزول السور له أثره في تفسيرها، فإذا ثبت تاريخ نزول الآية أو السورة فهو مرجح لِما وافقه من أوجه التفسير، فإن اختلف العلماء في تفسير آية من كتاب الله تعالى، فالقول الذي يوافق تاريخ نزول الآية هو القول الراجح، والقول الذي يخالف تاريخ نزولها هو القول المرجوح[٢].

وأغلب سور القرآن الكريم لم يحفظ وقت نزولها على وجه الدقة والتحديد، فالعلماء اجتهدوا في استنتاج الوقت الذي نزلت فيه السورة على وجه التقريب، وذلك من خلال معرفة أسباب النزول الواردة في السورة، أو الحوادث التي وافقت نزول السورة.

إنَّ سورة النور نزلت في العهد المدني بعد الهجرة، وهي السورة الثانية والمائة في ترتيب نزول سور القرآن الكريم، والرابعة والعشرون في ترتيب المصحف[٣].

قال ابن عاشور: (عُدت هذه السورة المائة في ترتيب نزول سور القرآن الكريم)[٤].

واختلف العلماء في نزول سورة النور على أقوال عدة:

(١) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين، الدكتور حسين بن علي بن حسين الحربي، راجعه: مناع القطان، دار القاسم، ط١ (الرياض/١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ج١/ ص٢٦٠.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ج١/ ص٢٥٨.

(٣) ينظر: التفسير الحديث، محمد عزة بن عبد الهادي دروزة (ت:١٤٠٤هـ) دار إحياء الكتب العربية، د.ط (القاهرة/١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) ج١/ ص١٦.

(٤) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٤٠.

القول الأول: إنَّها نزلت بعد سورة النصر[1]. كما جاء عن ابن عباس ﵄، أنَّه قال: نزلت بعد سورة النصر، وقبل سورة الحج[2].

قال الزركشي: (ترتيب ما نزل بالمدينة هو تسع وعشرون سورة، فأول ما نزل فيها سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم الزلزلة، ثم الحديد، ثم محمد، ثم الرعد، ثم الرحمن ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم البينة، ثم الحشر، ثم النصر، **ثم النور**، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات)[3].

القول الثاني: إنَّ معرفة تاريخ نزول السورة يكون عن طريق معرفة أسباب النزول، فإنَّ سبب نزول قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ﴾[4]، قضية مرثد[5]، ومرثد استشهد سنة (٤هـ) في غزوة الرجيع[6]، فيكون أوائل هذه السورة نزل قبل (٣هـ)، والأقرب أن يكون في أواخر السنة الأولى، أو أوائل السنة الثانية أيام كان المسلمون يتلاحقون للهجرة وكان المشركون جعلوهم كالأسرى، ومن آياتها آيات حادثة الإفك، وهي نازلة عقب غزوة بني المصطلق[7]، والأصح أنَّ غزوة بني المصطلق كانت سنة (٤هـ)

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٤٠؛ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي (ت:١٤٣١هـ) دار نهضة مصر، ط١ (القاهرة/١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ج١٠/ ص٧٣.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٤٠.

(٣) البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص١٩٤.

(٤) سورة النور: من الآية ٢.

(٥) هو أبو مرثد كناز بن حصين الغنوي، من كبار الصحابة وفضلائهم، شهد غزوة بدر وأُحد، استشهد سنة (٤هـ). ينظر: الاستيعاب، ج٣/ ص١٣٨٣؛ أسد الغابة، ج٤/ ص٤٧٢.

(٦) وقعت هذه الغزوة سنة (٤هـ) بسبب الغدر الذي قام به بنو لحيان، عندما قتلوا النفر الذين بعثهم النبي ﷺ ليدعوهم إلى الإسلام. ينظر: المغازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت:٢٠٧هـ) تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي، ط٣ (بيروت/١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) ج١/ ص٣٥٤، ٣٥٥؛ الرحيق المختوم من سيرة الرسول ﷺ، الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، دار المعرفة، ط٨ (بيروت/١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ص٢٧٦.

(٧) وتسمى أيضاً غزوة المريسيع، وقعت هذه الغزوة سنة (٦هـ) بلغ فيها رسول الله ﷺ أنَّ بني المصطلق يجمعون له، فخرج إليهم، وهزم الله تعالى بني المصطلق. ينظر: المغازي، ج٣/ ص٤٠٤- ٤١٣.

فإنَّها قبل غزوة الأحزاب[١]، ومن آياتها ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ﴾[٢]، نزلت في (٩هـ) بعد غزوة تبوك[٣]، فتكون تلك الآيات مما نزل بعد نزول أوائل هذه السورة، وهذا يقتضي أنَّ هذه السورة نزلت منجمة متفرقة في مدة طويلة وألحق بعض آياتها ببعض[٤]. وهذا القول اختاره ابن عاشور ، ولكنه يذكر أنَّ غزوة بني المصطلق كانت سنة (٤هـ)، وفي كتب السيرة يُذكر أنَّ الغزوة كانت سنة (٦هـ)[٥].

القول الثالث: إنَّها نزلت بعد سورة البينة وقبل سورة المنافقون. وهذا ما اختاره محمد عزة، في تفسيره الذي رتبه على نزول سور القرآن الكريم[٦].

وبالنظر إلى الروايات في كتب السيرة، نجد أنَّ سورة النور نزلت بعد سورة الأحزاب سنة (٦هـ) بعد غزوة بني المصطلق التي وقعت فيها حادثة الإفك التي رميت بها أمُّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها" بالزنا من قِبل المنافقين[٧].

(١) غزوة الأحزاب: وقعت هذه الغزوة سنة (٥هـ) وسبب الغزوة كان تآمر اليهود مع حلفاء وأحزاب من الكفار على المسلمين، وتجمع حول المدينة جيش يبلغ عشرة آلاف مقاتل، وأشار الصحابي سلمان الفارسي بخطة بناء خندق، وهذه الغزوة لم يجر فيها قتال، إلَّا أنَّها كانت من احسم المعارك. ينظر: السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت:٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، ط٢ (مصر/١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، ج٢/ ص٢١٤، ٢٢٤؛ الرحيق المختوم، ص٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) سورة النور: من الآية ٦.

(٣) غزوة تبوك: وقعت هذه الغزوة سنة (٩هـ) بين المسلمين والرومان وحلفائهم، كان عدد الجيش الإسلامي ثلاثون ألف مقاتل، وعدد جيش الرومان أربعون ألف مقاتل، وسمي جيش المسلمين بجيش العسرة؛ لقلة الزاد والمراكب، وكان النصر حليفاً للمسلمين. ينظر: المغازي، ج٣/ ص٩٩٠، ٩٩٦؛ الرحيق المختوم، ص ٤٠٤، ٤٠٦، ٤١٠.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٣٩- ١٤٠.

(٥) ينظر: السيرة النبوية، ج٢/ ص٢٨٩؛ الرحيق المختوم، ص٢٩٨.

(٦) ينظر: التفسير الحديث، ج١/ ص٢٠.

(٧) ينظر: السيرة النبوية، ج٢/ ص٢٩٦؛ إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، أبو الفرج علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي (ت:١٠٤٤هـ) دار الكتب العلمية، ط٢ (بيروت/١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م) ج٢/ ص٣٩٥.

المبحث الثالث
مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

توطئة:

تطرقتُ في تمهيد هذه الدراسة عن المناسبة لغةً واصطلاحاً[(١)]، وفي هذا المبحث سوف أسلطُ الأضواء على مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها. وهذا يتطلب تقسيم المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: مناسبة سورة النور لما قبلها (سورة المؤمنون).

المطلب الثاني: مناسبة سورة النور لما بعدها (سورة الفرقان).

المطلب الأول
مناسبة سورة النور لما قبلها (سورة المؤمنون)

إنَّ فهم العلاقات التناسبية والروابط التناسقية بين سورة النور وسورة المؤمنون يعين على فهم أوسع لمقصد السورة نفسها، ولقد اعتنى العلماء بذكر المناسبة بين الآيات والسور، لبيان الحكمة من تتابع الجمل في الآية والسورة.

قال النووي[(٢)]: (ينبغي لمن أراد السؤال عن تقديم آية على آية في المصحف، أو مناسبة هذه الآية في هذا الموضع ونحو ذلك، أن يقول: ما الحكمة في كذا)[(٣)].

إنَّ المناسبة تظهر تارة وتَخفى تارة أخرى على المتدبر في الكتاب العزيز، قال الزركشي: (إذا اعتبرت افتتاح كل سوره وجدته في غاية المناسبة لِما ختم به السورة قبلها، ثم هو يَخفى تارة ويظهر أخرى)[(٤)].

---

(١) ينظر: ص٢٢- ٢٣.

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري محيي الدين النووي، الإمام العلَّامة، الشافعي، أستاذ المتأخرين، وحجة الله على اللاحقين، من أهم مؤلفاته: (المنهاج) و (التبيان في آداب حملة القرآن) توفي سنة (٦٧٦هـ). ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت:٧٧١هـ) تحقيق: الدكتور محمود محمد والدكتور عبد الفتاح محمد، دار هجر، ط٢ (د.م/١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ج٨/ ص٣٩٥؛ الأعلام، ج٨/ ص١٤٩- ١٥٠.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا يحيى بن شرف محيي الدين النووي (ت:٦٧٦هـ) تحقيق: محمد الحجار، دار بن حزم، ط٣ (بيروت/١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ص١٦٩.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص٣٨.

وإظهار مناسبات السور تجعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء[١]. وبذلك يظهر الإعجاز البديع للقرآن المحكم، وتتضح أسراره وأغراضه، ولا ينكشف ذلك إلَّا للمتدبر في هذا الكتاب المُعجز، كما قال البقاعي: (ولا تنكشف هذه الأغراض أتم انكشافها، إلَّا لمن خاض غمرة هذا الكتاب، وصار من أوله وآخره وأثنائه على ثقة وصواب، قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾)[٢][٣].

أمَّا بين سورتي النور والمؤمنون فهناك ترابطاً وتناسباً ظاهراً في آياتهما، ذكره العلماء واظهروا بعض جوانبه البديعة، قال ابن الزبير[٤]: (لَمَّا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾[٥]، ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾[٦]، استدعى الكلام بيان حكم العادين في ذلك، ولم يبين فيها، فأوضحه في سورة النور فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾[٧]، ثم أتبع ذلك بحكم اللعان والقذف، وانجر مع ذلك الإخبار بقصة الإفك تحذيراً للمؤمنين من زلل الألسنة رجماً بالغيب، قال تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾[٨]، وأتبع ذلك بوعيد محبي شياع الفاحشة في المؤمنين، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾[٩]، ثم التحذير من دخول البيوت إلَّا بعد الاستئذان المشروع، ثم الأمر بغض البصر للرجال والنساء، ونهي النساء عن إبداء

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص٣٦.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢٦٩.

(٣) نظم الدرر، ج١/ ص٩.

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، محدث، مؤرخ، انتهت إليه الرياسة بالاندلس في العربية، ورواية الحديث، والتفسير، والأصول، من أهم مؤلفاته: (البرهان في تناسب سور القرآن) و (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل) توفي سنة (٧٠٨هـ). ينظر: الأعلام، ج١/ ص٨٦-٨٧.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٥.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ٧.

(٧) سورة النور: من الآية ٢.

(٨) سورة النور: من الآية ١٥.

(٩) سورة النور: من الآية ٢٣.

الزينة إلَّا لمن سمى الله سبحانه في الآية وتكررت هذه المقاصد في هذه السورة إلى ذكر حكم العورات الثلاث، ودخول بيوت الأقارب وذوي الأرحام، وكل هذا مما يبرىء ذمة المؤمن بالتزام ما أمر الله به من ذلك والوقوف عند ما حده تعالى من أن يكون من العادين المذمومين في قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾)[1][2].

ذُكرت هذه السورة بعد السورة السابقة؛ لأنَّ سورة المؤمنون ابتدأت بذكر بعض أحكام الإيمان العملية، على سبيل الإجمال، وكان من ضمنها حفظ الفروج، إلَّا على الأزواج أو نحوهم، فجاءت سورة النور بعدها، لتفصيل الأحكام المتعلقة بحفظ الفروج والأعراض[3].

ووصف السيوطي وجه المناسبة بين السورتين، بوصف مقارب لِما وصفه ابن الزبير فقال: (وجه اتصالها بسورة المؤمنون، أنَّه لَمَّا قال فيها: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾[4]، ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه، من الزانية والزاني، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر، وأمر فيها بالنكاح حفظًا للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف، وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا، ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا النسق)[5].

لمَّا ختم سبحانه وتعالى سورة المؤمنون بذكر عذاب الظالمين الكافرين في الآخرة: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[6]، ناسب أن يذكر في أول سورة النور، عذاب من استحق العذاب من المسلمين، في الدنيا

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٧.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير أبو جعفر الغرناطي (ت:٧٠٨هـ) تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د.ط (المغرب/ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ص٢٥٩.

(٣) ينظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور، ج٦/ ص٧٥.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٥.

(٥) تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ص١٠٤؛ أسرار ترتيب القرآن، ص١١٢.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ١٠٤– ١٠٥.

والآخرة، وهو الزاني والزانية، وعقاب القذف، والإفك، فقال عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1][2].

قال الانجري[3]، في وصف بديع لترابط السورتين الكريمتين: (وجه المناسبة لما قبلها: أنَّ إقامة الحدود من أثر الرحمة التي ختم بها ما قبلها؛ لأنَّ بإقامة الحدود يقع الزجر عن المعاصي، فتنزل الرحمة والعافية، قال أبو هريرة ﷺ[4]: (إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة)[5]، وقيل: لَمَّا ذكر تعالى في مشركي قريش: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾[6]، أي: أعمال سيئة، ثم استطرد بعد ذلك في أحوالهم، كان من أعمالهم السيئة: الزنا، وكان لهم جوار بغايا عليهن، ويأكلون من كسبهن من الزنا، فأنزل الله هذه السورة تغليظا في أمر الزنا)[7].

---

(١) سورة النور: من الآية ١١.

(٢) ينظر: التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار بن الجوزي، ط١ (الدمام/١٤٣٢هـ/٢٠١١م) ص١١٤.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الانجري، مفسر صوفي، من أهل المغرب، من أهم مؤلفاته: (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) و (الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية) توفي سنة (١٢٢٤هـ). ينظر: الأعلام، ج١/ ص٢٤٥.

(٤) هو أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي، صاحب رسول الله ﷺ وأكثر الصحابة حديثاً عنه ﷺ، أسلم عام خيبر، وشهدها مع رسول الله ﷺ، توفي سنة (٥٨هـ) وقيل (٥٩هـ) والراجح انه توفي سنة (٥٩هـ). ينظر: أسد الغابة، ج٦/ ص٣١٣؛ الإصابة، ج٧/ ص٣٤٨- ٣٤٩.

(٥) المجتبى من السنن (المعروف بسنن النسائي) أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت:٣٠٣هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، المطبوعات الإسلامية، ط٢ (حلب/١٤٠٦هـ/١٩٨٦م). سنن النسائي، كتاب قطع السارق، باب الترغيب في إقامة الحد، رقم الحديث (٤٩٠٥) من رواية: أبو هريرة ﷺ، ج٨/ ص٧٦. قال السخاوي: حديث موقوف. ينظر: المقاصد الحسنة، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (ت:٩٠٢هـ) تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، ط١ (بيروت/١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص٥٣٢.

(٦) سورة المؤمنون: من الآية ٦٣.

(٧) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الأنجري (ت:١٢٢٤هـ) تحقيق: أحمد عبد الله القرشي، نشره: الدكتور حسن عباس زكي، د.ط (القاهرة/١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ج٤/ ص٥.

إنَّ ختام سورة المؤمنون كان فيه توبيخ للمعاندين، وبيان حكمة الخلق، وذلك رحمة من الله لعباده، ليرجع منهم من قضى له بالإيمان والسعادة الأبدية، وناسب ذلك افتتاح سورة النور [١].

لَمَّا ختم الله تعالى سورة المؤمنون بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٢]، ابتدأ سورة النور بأنَّه مَنَّ على المخاطبين ببيان ما خلقوا له من الأحكام؛ لأنَّهم لم يخلقوا سدى، بل لتكاليف تعبدهم بها ترفع التنازع وتحسم مادة الشر، فتوجب الرحمة والعطف بسلامة الصدر بما فيهم من الجنسية[٣].

إنَّ ختام سورة المؤمنون كان فيه إشارة إلى مغفرة الله تعالى ورحمته بعباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٤]، وجاءت بعدها سورة النور تحققا لتلك الرحمة، من تشريعاتها الحكيمة، التي أنارت للعباد الطريق المستقيم، الذي فيه سعادتهم الدائمة في الدارين[٥].

قال الطبرسي[٦]: (ختم الله سبحانه سورة المؤمنون بأنَّه لم يخلق الخلق للعبث، بل للأمر والنهي، وابتدأ هذه السورة بذكر الأمر والنهي، وبيان الشرائع)[٧]. ففي سورة النور كانت الأوامر والنواهي في أشياء تعد مزلقة للعصيان، والانحراف، والضلال[٨].

---

(١) ينظر: تناسب وتناسق الآيات وأسرار فواتح وخواتيم السور، مجدى فتحي السيد، مراجعة: الأستاذ الدكتور سامي عبد الفتاح، دار الصحابة للتراث، ط١ (طنطا/١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ص٣٥٠.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١١٨.

(٣) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٢٩.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ١١٨.

(٥) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص١٧١.

(٦) هو أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل أمين الدين الطبرسي، مفسر، ومحقق لغوي، من أجلاء الإمامية، من أهم مؤلفاته: (جوامع الجامع) و (مجمع البيان في تفسير القرآن) توفي سنة (٤٥٨هـ). ينظر: الأعلام، ج٥/ ص١٤٨.

(٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل أمين الدين الطبرسي (ت:٥٤٨هـ) دار المرتضى، ط١ (بيروت/١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ج٧/ ص١٥٨؛ ينظر: تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت:١٣٧١هـ) مكتبة مصطفى البابى الحلبي، ط١ (مصر/١٣٦٥هـ/١٩٤٦م) ج ١٨/ ص٦٦.

(٨) ينظر: التفسير المنير، ج١٨/ ص١٩٩.

مع كل ما ذكره العلماء من مناسبة بين السورتين، نجد أنَّ المبدأ والختام فيه من التناسق والترتيب ما فيه، فإنَّ أول سورة النور مرتبطة بأول سورة المؤمنون، فقد قال تعالى في أول سورة المؤمنون: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾[1]، وقد ذكر في أول سورة النور من لم يحفظ ذلك وعقوبته[2].



(١) سورة المؤمنون: الآية ٥- ٧.

(٢) ينظر: التناسب بين السور، ص١١٤.

المطلب الثاني

مناسبة سورة النور لما بعدها (سورة الفرقان)

إنَّ المتأمل في سورتي النور والفرقان يصل إلى أنَّ المناسبة بين السورتين ظاهرة، وهذا ما توصل إليه جل العلماء، فلكل منهم كلمته في إظهار بديع التناسب بين سورة النور وسورة الفرقان، وبيان إعجاز ارتباطهما ببعض.

قال الآلوسي[1]: (لَمَّا ذكر جل وعلا في آخر سورة النور وجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ، ومدح المتابعين، وحذر المخالفين، افتتح سبحانه سورة الفرقان، بما يدل على تعاليه جل شأنه عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، أو على كثرة خيره تعالى ودوامه، وأنَّه أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، إطماعاً في خيره، وتحذيراً من عقابه جل شأنه)[2].

وجاء في التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم: (لَمَّا ختم سبحانه سورة النور بسعة الملك وشمول العلم وتعظيم الرسول والتهديد لمن تجاوز الحد، افتتح سورة الفرقان بمثل ذلك على وجه – مع كونه أضخم منه – هو برهان عليه فقال: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ أي: ثبت مع اليُمن والخير، به سبقت الرحمة الغضب، والتعالي في الصفات والأفعال)[3].

سورة الفرقان فيها تأكيد على ما جاء في خاتمة النور من مدح وتعظيم للرسول ﷺ، لكونه نذيراً للعالمين، فقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[4][5].

---

(١) هو أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني شهاب الدين الآلوسي، مفسر، ومحدث، ومجتهداً، من أهم مؤلفاته: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) و (حاشية على شرح القطر) توفي سنة (١٢٧٠هـ). ينظر: الأعلام، ج٧/ ص١٧٦.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي (ت:١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/ ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ج٩/ ص٤٢١.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص١٧١.

(٤) سورة الفرقان: الآية ١.

(٥) ينظر: البحر المديد، ج٤/ ص٧٥.

إنَّ وجه مناسبة ترتيب سورة الفرقان بعد سورة النور، من حيث إنَّ النور قد ختمت بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، وكانت جملة النور مختصرة، ثم فصلت هذه الجملة في سورة الفرقان فافتتحت بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾[2]، ثم ذكر في خلال سورة الفرقان جملة من المخلوقات؛ كمد الظل، والليل، والنوم، والنهار، والرياح، والماء، والأنعام، والأناسي، ومرج البحرين، وخلق السماوات والأرض في ستة أيام، والاستواء على العرش، وبروج السماء، والسراج، والقمر، إلى غير ذلك، مما هو تفصيل لجملة: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[3][4].

والجمهور على أنَّ سورة الفرقان مكية[5]، وكما اشرنا فإنَّ سورة النور مدينة، ومجيء سورة مكية بعد سورة مدينة فيها لطيفة، وقد أشار إليها السيوطي بقوله: (ظهر لي لطيفة أخرى؛ وهي: أنَّه إذا وقعت سورة مكية بعد سورة مدنية، افتتح أولها بالثناء على الله؛ كالأنعام بعد المائدة، والإسراء بعد النحل، والفرقان بعد النور، وسبأ بعد الأحزاب، والحديد بعد الواقعة، وتبارك بعد التحريم؛ لِمَا في ذلك من الإشارة إلى نوع استقلال، وإلى الانتقال من نوع إلى نوع)[6].

كما ترتبط السورة الكريمة بسورة الفرقان ارتباطاً وثيقاً من حيث إنَّ سورة النور، كانت نوراً من نور الحق جلّ وعلا، سطع نورها في آفاق المجتمع الإسلامي، فجلا كل غاشية، وفضح كل ضلال وبهتان، وكانت سورة الفرقان مكملة لسابقتها، إذ قد استفتحت بتمجيد الله تعالى، الذي أفاض على عباده هذا الخير الكثير المبارك، بما نزّل من آيات بينات على نبيه الكريم، فهي الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والنور

---

(١) سورة النور: من الآية ٦٤.

(٢) سورة الفرقان: من الآية ٢.

(٣) سورة النور: من الآية ٦٤.

(٤) ينظر: تناسق الدرر، ص ١٠٤، ١٠٦؛ أسرار ترتيب القرآن، ص١١٢- ١١٣.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٣/ ص١؛ روح المعاني، ج٩/ ص٤٢٠.

(٦) تناسق الدرر، ص١٠٦؛ أسرار ترتيب القرآن، ص ١١٤- ١١٥.

والظلام، فكان النور المشع من سورة النور كاشفاً للشبه، مجلياً للشكوك والريب، مقيماً أمر المسلمين على نور مبين، وهذا النور الذي معهم من آيات الله، هو الفرقان الذي يفرقون به بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال[1].

ولَمَّا تضمنت سورة النور بيان كثير من الأحكام، كحكم الزنا، ورمي الزوجات به، والقذف، والاستئذان، والحجاب، وإسعاف الفقير، والكتابة، وغير ذلك، والكشف عن مغيبات من تغاير حالات تبين بمعرفتها والاطلاع عليها الخبيث من الطيب، ثم في قصة المنافقين في إظهارهم ضد ما يضمرون، ثم كريم وعده للخلفاء الراشدين، ثم ما فضح به تعالى منافقي الخندق، كان في مجموع هذا فرقاناً يعتضد به الإيمان، ولا ينكره مقر بالرحمن، يشهد لرسول الله ﷺ بصحة رسالته، ويوضح مضمن قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[2]، من عظيم قدره ﷺ، وعُلي جلالته، أتبعه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[3]، وهو القرآن الفارق بين الحق والباطل والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر والكفر ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ فيحذرهم من مرتكبات المنافقين والتشبه بهم، ثم تناسج الكلام والتحم جليل المقصود من ذلك النظام[4].

لَمَّا قال عز وجل في آخر سورة النور: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾[5]، قال في أول سورة الفرقان: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[6]، فإنَّ الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً هو بكل شيء عليم[7].

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٣٤٢.

(٢) سورة النور: من الآية ٦٣.

(٣) سورة الفرقان: الآية ١.

(٤) ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن، ص٢٦٠– ٢٦١.

(٥) سورة النور: من الآية ٦٤.

(٦) سورة الفرقان: من الآية ٢.

(٧) التناسب بين السور، ص١١٥.

جاء في البحر المحيط: (مناسبة أول سورة الفرقان لآخر ما قبلها، أنَّه لما ذكر وجوب مبايعة المؤمنين للرسول ﷺ، وأنَّهم إذا كانوا معه في أمر مهم توقف انفصال واحد منهم على إذنه، وحذر من يخالف أمره، وذكر أنَّ له ملك السموات والأرض، وأنَّه تعالى عالم بما هم عليه ومجازيهم على ذلك، فكان ذلك غاية في التحذير والإنذار، ناسب أن يفتتح هذه السورة بأنَّه تعالى منزه في صفاته عن النقائص كثير الخير، ومن خيره أنَّه نزل الفرقان على رسوله، منذراً لهم، فكان في ذلك إطماع في خيره، وتحذير من عقابه)[1].

إنَّ مناسبة سورة النور لسورة الفرقان فيه عدة وجوه، منها:

١. إنَّه سبحانه اختتم سورة النور بكونه مالكاً لِمَا في السموات والأرض، مصرّفاً له على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، مع النظام البديع والوضع الأنيق، وأنَّه سبحانه وتعالى سيحاسب عباده يوم القيامة على ما قدموا من العمل خيراً كان أو شراً، وافتتح سورة الفرقان بما يدل على تعاليه في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى حبه لخير عباده، بإنزال القرآن لهم هادياً وسراجاً منيراً.

٢. اختتم سورة النور بوجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ مع مدحهم على ذلك، وتحذيرهم من مخالفة أمره، خوف الفتنة والعذاب الأليم، وافتتح سورة الفرقان بمدح الرسول ﷺ وإنزال الكتاب عليه؛ لإرشادهم إلى سبيل الرشاد، وذمّ الجاحدين لنبوته بقولهم: إنَّه رجل مسحور، وإنَّه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق إلى آخر ما قالوا.

٣. جاء في كلتا السورتين مصير أعمال الكافرين يوم القيامة، وأنَّها لا تجزيهم فتيلاً ولا قطميراً، فقال تعالى في النور: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ﴾[2]، وقال تعالى في الفرقان: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾[3].

٤. ذكر في سورة النور الدلائل على توحيد الله سبحانه وتعالى من الآيات الكونية، وجاء مثلها في سورة الفرقان، فمن ذلك:

---

(١) البحر المحيط، ج٨/ ص٧٩.

(٢) سورة النور: من الآية ٣٩.

(٣) سورة الفرقان: من الآية ٢٣.

أ. جاء في سورة النور قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ﴾[1]، وجاء في سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾[2].

ب. جاء في سورة النور قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾[3]، وجاء في سورة الفرقان قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾[4][5].

من المعاصرين من ذكر عدة محاور، للمناسبة بين السورتين الكريمتين، أذكر منها محورين:

المحور الأول: توقير رسول الله ﷺ وتعظيمه، جاء ذلك في خاتمة سورة النور في مظهرين:

أ. عدم انصراف المؤمن من مجلس رسول الله ﷺ إلّا بإذنه، قال تعالى: ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾[6]، وذلك لضبط الأمور وتنظيمها مع القيادة الرشيدة.

ب. عدم مناداته باسمه المجرد ولا بكنيته، وإنما ينادى بلقب الرسالة، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[7].

جاء في افتتاحية سورة الفرقان في مظهرين أيضاً:

الأول: وصف رسول الله ﷺ بصفة العبودية المضافة إلى الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[8].

---

(١) سورة النور: من الآية ٤٣.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤٨.

(٣) سورة النور: من الآية ٤٥.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٥٤.

(٥) ينظر: تفسير المراغي، ج١٨/ ص١٤٥؛ التفسير المنير، ج١٩/ ص٥- ٦؛ التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٦٩- ٢٧٠.

(٦) سورة النور: من الآية ٦٢.

(٧) سورة النور: من الآية ٦٣.

(٨) سورة الفرقان: الآية ١.

الثاني: كون رسول الله مبعوثاً للعالمين، وكون رسالته عالمية، وهذه ميزة لم يعطها احد من الأنبياء والمرسلين غيره، فقد صح عنه ﷺ أنَّه قال: ((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ... وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً))[١].

المحور الثاني: مهمة الرسول العظمى (الإنذار)، جاء ذلك في خاتمة سورة النور في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٢]، والتحذير عن مخالفة أمر رسول الله ﷺ لون من ألوان الإنذار، وجاء بصيغة التعميم ليشمل التحذير عن المخالفات في العقيدة والأحكام والأخلاق، ويدخل فيه الانصراف بدون إذنه دخولاً أولياً، وجاء النص على هذه المهمة صريحاً في افتتاحية سورة الفرقان، في قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[٣]، والشق الثاني من المهمة يأتي ضمنا في الإنذار، فإذا كان الإنذار للمخالفين لأوامره، فإنَّ البشارة للمؤمنين به المتبعين لِمَا جاء به من الهدى والنور[٤].



(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ : ((جُعِلت لِي الأرضُ مِسجِداً وطُهُوراً)) رقم الحديث (٣٣٥) من رواية: جابر بن عبدالله ، ج١/ ص٩٥؛ صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قول النبي ﷺ: ((جُعِلت لِي الأرضُ مِسجِداً وطُهُوراً)) رقم الحديث (٥٢١) من رواية: جابر بن عبدالله ، ج١/ ص٣٧٠.

(٢) سورة النور: من الآية ٦٣.

(٣) سورة الفرقان: من الآية ١.

(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٦٤- ٢٦٥؛ التناسب بين السور، ص١١٥.

المبحث الرابع
خواصُّ سورة النور

توطئة:

إنَّ من العلوم التي لها ارتباط وثيق بتدبر القرآن والعمل به، هو علم خواص القرآن، فهو يعتبر من أهم الدوافع للإقبال على القرآن الكريم، ولذلك فقد اهتمَّ العلماء به قديماً وحديثاً[1]، وصنفت فيه مؤلفاته لتأصيله وتفصيله، وبيان أهميته ومتعلقه بعلوم القرآن الكريم[2].

فعلم خواص القرآن يعتبر فرعاً من فروع علوم القرآن، كما جاء في أبجد العلوم: (اعلم أن الخواص قد تترتب على أسماء الله تعالى، وعلى الآيات التنزيلية، وآيات التوراة والإنجيل، لكن تلك الخواص ليست من فروع علم السحر، بل هي من فروع علم القرآن)[3].

وقبل البدء بذكر ما اختصت به السورة من موضوعات وألفاظ، لابد من تعريف الخواص لغةً واصطلاحاً، وعلى ذلك اقتضى أن ينقسم هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: الخواصُّ لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: خواصُّ سورة النور.



(١) من المؤلفات في علم خواص القرآن: ١- خواص القرآن الحكيم، محمد بن احمد بن سعيد التميمي (ت:٣٩٠هـ). ٢- الذهب الأبرز في خواص كتاب الله العزيز، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت:٥٠٥هـ). ٣- الدر النظيم في خواص القرآن العظيم، عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي (ت:٧٦٨هـ). وورد في كتب علوم القرآن الكلام عن خواص القرآن: فجاء في البرهان في علوم القرآن: (النوع السابع والعشرون: معرفة خواصه) ج١/ ص٤٣٤. وجاء في الإتقان: (النوع الخامس والسبعون: في خواص القرآن) ج٤/ ص١٥٨.

(٢) ينظر: خواص القرآن الكريم، الدكتور تركي بن سعد بن فهيد الهويمل، دار بن الجوزي، ط١ (الدمام/١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ص٥.

(٣) ينظر: أبجد العلوم، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن القِنَّوجي (ت:١٣٠٧هـ) دار بن حزم، ط١ (بيروت/١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ج١/ ص٣٩٧.

المطلب الأول
الخواصُّ لغةً واصطلاحاً

أولاً: الخواصُّ لغةً:

الخواص جمع خاصة. قال ابن منظور: خصص، أي: خصه بالشيء، واختصه: أفرده به دون غيره[١]. والخَاصَّةُ: خلاف العامّة[٢]. قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾[٣]، أي: بل تعمّكم، وقد خَصَّهُ بكذا يخصّه، قال تعالى: ﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[٤][٥].

ثانياً: الخواصُّ اصطلاحاً:

الخواص هو: (العلم الذي يتعرف به المنافع والمضار، والعجائب والغرائب، والخواص الشريفة، والأحوال العجيبة، وما يترتب على ذلك من خواص مناسبة لهذه الأحوال والأعمال)[٦].

ثالثاً: تعريف خواصِّ القرآن الكريم، باعتبار الإضافة:

عَرَّف طاشكبري زاده[٧]، علم خواص القرآن بقوله، هو: (علم يبحث عن الخواص المترتبة على قراءة أسماء الله تعالى أو كتابه: من الزبور، والإنجيل، والقرآن، ويترتب على كل من تلك الأسماء والدعوات خواص مناسبة لها)[٨].



(١) ينظر: لسان العرب، ج٧/ ص٢٤.

(٢) ينظر: الصحاح، ج٣/ ص١٠٣٧.

(٣) سورة الأنفال: من الآية ٢٥.

(٤) سورة البقرة: من الآية ١٠٥.

(٥) ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص٢٨٤.

(٦) خواص القرآن الكريم، ص١٩.

(٧) هو أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل طاشكبري زاده، مؤرخ تركي، مستعرب، تنقل في البلاد التركية، مدرسا للفقه والحديث وعلوم العربية، من أهم مؤلفاته: (مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم) و (نوادر الأخبار في مناقب الأخيار) توفي سنة (٩٦٨هـ). ينظر: الأعلام، ج١/ ص٢٥٧.

(٨) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل طاشكبري زاده (ت:٩٦٨هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ج١/ ص٣٤١.

وذكر صاحب نفحات من علوم القرآن تعريفاً لهذا العلم فقال، خواصُّ القرآن هي: (الآيات أو السور القرآنية، التي تختص بشفاء المريض، أو قضاء الحوائج، أو غير ذلك)[١].

ومن خلال ما تقدم ذكره نتوصل إلى أنَّ خواص القرآن الكريم، قائمة على اعتبار ما يترتب من قراءة، أو كتابة سورة، أو آيات معينة من القرآن الكريم في حدث خاص، أو ذكر لفظ أو جملة وردت في سورة وتفردت بها[٢].



---

(١) ينظر: نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد محمد معبد (ت:١٤٣٠هـ) دار السلام، ط٢ (القاهرة/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ص ١١٩.

(٢) ينظر: خواص القرآن الكريم، ص٢٦.

المطلب الثاني

خواصُّ سورة النور

جاءت سورة النور في أسلوبها وموضوعاتها، على النسق العام الذي تأتي عليه السور المدنية في الجملة، من الحديث عن المعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والصلات الاجتماعية، الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسياتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين، وكذلك تميزها بطول آياتها، ومقاطعها في أسلوب يقرر الشريعة الإسلامية، ويوضح أهدافها(١).

اختصت سورة النور من بين سائر سور القرآن الكريم بعدد من الموضوعات والألفاظ:

أولاً: إنَّ ابرز ما اختصت به سورة النور من موضوعات، ما يأتي:

بدأت السورة بمطلع فريد، اختصت به عن سائر السور، فلم تبدأ سورة من سور القرآن الكريم بلفظ (سورة) إلَّا سورة النور؛ لبيان شدة ما سوف تبينه هذه السورة من الأحكام الأسرية التي تهم نواة المجتمع.

١. اختصت ببيان حكم الزُناة والقذفة وحدهم، وأوضحت أحكام الملاعنة بين الزوجين(٢).
٢. اختصت سورة النور بالحديث عن حادثة الإفك، باعتبارها حدثاً تاريخياً عظيماً في حياة النبي ﷺ وأهله، وهي حادثة خاصة بهذه السورة، ولم ترد في سورة قرآنية غيرها.
٣. ذكرت السورة آداب الاستئذان بشكل عام، فبينت أولاً: آداب الاستئذان لدخول البيوت، ثم آداب الاستئذان في داخل الأسرة الواحدة، ثم خُتمت السورة ببيان آداب الاستئذان في مجلس النبي ﷺ.
٤. لم يغب في السورة الحديث عن الغرض الأساسي وأول خطوة من خطوات الشيطان، وهي غض البصر للمؤمنين والمؤمنات(٣).

---

(١) ينظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور، ج٣/ ص٦.

(٢) ينظر: المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، صبحي عبد الرؤوف عصر، دار الفضيلة، د.ط (القاهرة/ د.ت) ص٧٨٩.

(٣) ينظر: المعجم الموضوعي، ص٤١٩.

ثانياً: ابرز ما اختصت به سورة النور من ألفاظ، ما يأتي:

١. ذكر لفظ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[١]. المشكاة عند أهل اللغة هي: كوة غير نافذة في الجدار، يوضع فيها القنديل والمصباح[٢].

٢. ذكر لفظ ﴿زُجَاجَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾[٣]. الزجاجة: قنديل من مادة شفافة[٤]. وهو جوهر صلب سهل الكسر[٥].

٣. ذكر لفظ ﴿بِقِيعَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾[٦]. والقيعة هي: مكان مستوٍ واسع من الأرض، لا ارتفاع فيها ولا انهباط[٧]. وهذه اللفظة وحيدة الصيغة في القرآن الكريم، ومادتها (قاع) كما في قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾[٨][٩].

---

(١) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٢) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ج٧/ ص١١٩؛ المخصص، ج١/ ص٥١٣؛ أساس البلاغة، ج١/ ص٥١٩.

(٣) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٤) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج٢/ ص٩٧٣.

(٥) ينظر: تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي (ت:١٣٠٠هـ) تحقيق: محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام، ط١ (العراق/١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ج٥/ ص٢٨٨.

(٦) سورة النور: من الآية ٣٩.

(٧) ينظر: القاموس المحيط، ج١/ ص٧٥٧ ؛ تاج العروس، ج٢٢/ ص١٠٣؛ مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، جمال الدين محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي (ت:٩٨٦هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٣ (د.م/١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) ج٤/ ص٣٥٢.

(٨) سورة طه: الآية ١٠٦.

(٩) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل بن الأزرق، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت:١٤١٩هـ) دار المعارف، ط٣ (د.م/د.ت) ص٣٣٠.

٤. وتفـردت الســورة بـذكر لفـظ ﴿ سَنَا ﴾ فــي قولــه تعــالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[١]. والسَّـنَا: الضّـوء السـاطع[٢]. وهـذه اللفظـة وحيـدة فـي القـرآن صـيغة ومادة[٣].

٥. ومما تفردت به السورة أيضاً ذكر لفظ ﴿ يَحِيفَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾[٤]. الحيفُ هو: (الميل في الحكم والجنوح إلى أحد الجانبين)[٥]. والحيفُ أيضاً هو: الجَور والظلم[٦].



(١) سورة النور: من الآية ٤٣.

(٢) ينظر: تهذيب اللغة، ج١٣/ ص٥٤؛ الصحاح، ج٦/ ص٢٣٨٣، المفردات في غريب القرآن، ص٤٢٩.

(٣) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن، ص٣١٦.

(٤) سورة النور: من الآية ٥٠.

(٥) المفردات في غريب القرآن، ص٢٦٦.

(٦) ينظر: الصحاح، ج٤/ ص١٣٤٧.

الفصل الثاني
المحور الأساسي لسورة النور، ومقاصدها ومناسباتها

توطئة:

أفاد المفسرون المعاصرون مما وصل إليه المتقدمون في بيان محور السورة ومقصودها، وساروا بخطوات ثابتة نحو استجلاء المحور الذي تشد إليه جميع موضوعات السورة، وقد استطاع بعضهم أن ينظر بعين متفحصة إلى أجزاء السورة، وينظر في بناءها المتكامل المتسق، ويضع يده على محورها الأساسي بشكل أدق مما توصل إليه بعض المفسرين من قبل[١].

ذكرنا سابقاً أنَّ بعض المفسرين المعاصرين ذَكر أنَّ للسورة مسائل وموضوعات مختلفة، وجعلها في سلك موضوع واحد، هو نوع من أنواع بلاغة القرآن العظيم، فقال: (إنَّ التفنن في مسائل مختلفة منتظمة في سلك موضوع واحد هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التي لم تسبق لبليغ، ... والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه، وحسن اتساقه في سبكه، فهو دائر على قطب واحد في فلكه)[٢].

خلال التأمل في السورة واستخراج محورها الأساسي، فإنَّه يمكن بيان المناسبة بين اسم السورة ومحورها، وأيضا يمكن بيان مناسبة فاتحة وخاتمة السورة بمحورها.

(١) ينظر: وحدة النسق، ص١٦٦.

(٢) تفسير القرآن الحكيم، ج١/ ص٢٤٠.

المبحث الأول

المحور الأساسي للسورة

بعد طول تأمل في سياق آيات هذه السورة الكريمة، والنظر في كل آية من آياتها، وجدتُ أنَّ سورة النور من السور التي لها سياق خاص، وتناسق موضوعي مميز، وترابط فريد في آياتها، مما يبين أنَّ لها محوراً واضحاً تدور حوله السورة.

المحور الأساسي الذي تدور حوله سورة النور هو: (التربية الأخلاقية، والآداب الاجتماعية، للفرد والجماعة)[1].

فهي سورة التربية، والأخلاق الإسلامية، والآداب الهادفة، فمحور السورة يدور حول الأخلاق والقيم المنبعثة عن إيمان المؤمن بالله تعالى؛ لأنَّه إذا دخل نور الإيمان في القلب اتسع له الصدر، وانشرح له الفؤاد[2]، وكما قال القائل[3]:

وإِذا حَلّتِ الهِدَايَةُ قَلبَاً نَشَطَت فِي العِبَادَةِ الأَعضَاءُ.

أوضح سيد قطب محور السورة، فقال: (والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية، التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة، التي تصل القلب بنور الله تعالى، وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة، والهدف واحد في الشدة واللين، وهو تربية الضمائر، واستجاشة المشاعر، ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة، حتى تشف وترف، وتتصل بنور الله تعالى، وتتداخل الآداب النفسية الفردية، وآداب البيت والأسرة، وآداب الجماعة والقيادة، بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله تعالى، متصلة كلها بنور واحد هو نوره عز وجل، وهي في صميمها نور وشفافية، وإشراق وطهارة، وتربية عناصرها من مصدر النور الأول في السماوات والأرض، نور الله الذي أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض، والقلوب والضمائر، والنفوس والأرواح)[4].

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص١٦٨.

(٢) ينظر: أهداف كل سورة ومقاصدها، ص٢٥٥.

(٣) الأنوار القدسية في شرح القصيدة الهمزية، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني (ت:١٢٢٤هـ) تقديم: عبد السلام العمراني الخالدي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٣١هـ/٢٠١٠م) ص١٦٤.

(٤) في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٤٨٦.

إنَّ بيان المحور الأساس الذي يتجلى في هذه السورة العظيمة من أولها إلى آخرها، واضح في آياتها فقد ابتدأت بتشريع أحكام بعض الجرائم الأخلاقية، التي تنال من طهارة المجتمع وعفته، مثل الزنا وما يتعلق به من أحكام كالقذف واللعان.

ثم شَرَّعت السورة جملة من الوسائل لوقاية المجتمع من جريمة الزنا، فشرعت آداب الاستئذان عند دخول البيوت، وأمرت بغض البصر، وغيرها من الوسائل.

ثم توسطت السورة الكريمة إشارة رائعة إلى مصدر هذه الأحكام والآداب، فهي نور وهداية من الله تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[(١)]. وبعد ذلك تعود السورة إلى محورها الأساسي لتكمل ما بدأت من تشريعات للآداب الاجتماعية، مثل آداب الاستئذان والآداب اللازمة مع رسول الله ﷺ.

جاء في خاتمة السورة إعلان مؤثر عن ملكية الله تعالى لِمَا في السموات والأرض. وبهذا الختام المؤثر تضع السورة المؤمن أمام مسؤولية خطيرة، تدفعه لتنفيذ ما ورد في هذه السورة من أحكام وآداب، تمثل الأسس التي يقوم عليها بناء المجتمع الفاضل، كما يريده الله في هذه الأرض[(٢)].

قال محمد عزة: (في السورة فصول عديدة في التشريع والتأديب، حيث تتضمن تشريعات بشأن جريمة الزنا والقذف، وإشارة إلى حادث الإفك، ودعوة إلى التعفف وتجنب أسباب الفتنة، وتعليمات في آداب الدخول على البيوت، واحتشام النساء في اللباس والتزين، وحثّاً على تزويج العزاب من الرجال والنساء والمماليك، وتوطيداً لسلطان النبي ﷺ السياسي والقضائي، ووعداً بنصر الله تعالى، وتمكينه في الأرض، لمن آمن وأخلص وأحسن العمل، وتعليمات في آداب الأكل وتيسيراً للناس فيها، وفصول السورة على تعددها مترابطة ترابطاً موضوعياً)[(٣)].

بالنظر إلى موضوعات السورة بتمعن من أولها إلى آخرها، يمكن القول بان السورة الكريمة عالجت موضوعاً رئيساً واحداً، يدور حول: التربية والآداب الاجتماعية.

(١) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ص ١٦٨- ١٧٠.

(٣) التفسير الحديث، ج٨/ ص٣٥٢.

نجد أنَّ سعيد حوى[1]، يرى أنَّ محور سورة النور هو آيتين من سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2]، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[5]، فذِكرُ البينات والمبينات في هذه الآيات، وكون السورة تُفصّل أحكاماً من الإسلام، وورود النهي عن إتباع خطوات الشيطان فيها، كل ذلك يدل على أنَّ هاتين الآيتين هما محور سورة النور[6].

خلاصة القول في المحور الأساسي للسورة، أنَّ هذه السورة جاءت في عموم موضوعاتها نسقاً واحداً، وعقداً منتظماً، مسلطة الضوء على محورها، وهو: (التربية والآداب الاجتماعية) التي تصلح بها الأسرة، والتي هي نواة المجتمع.



(١) سعيد حوى: سعيد بن محمد بن ديب حوى، ابرز الدعاة الإسلاميين المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين، من أهم مؤلفاته: (الأساس في التفسير) و (الأساس في السنة وفقهها) توفي سنة (١٤٠٩هـ). ينظر: تتمة الأعلام، ص ٢٠٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٨- ٢٠٩.

(٣) سورة النور: الآية ١.

(٤) سورة النور: الآية ٣٤.

(٥) سورة النور: الآية ٤٦.

(٦) ينظر: الأساس في التفسير، سعيد بن محمد ديب حوى (ت:١٤٠٩هـ) دار السلام، ط١ (القاهرة/١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ج/٧ ص٣٦٨٠- ٣٦٨١.

المبحث الثاني
المقاصد القرآنية في السورة وأغراضها

إنَّ بين محور السورة ومقصود السورة، تشابه في الإطار العام، وخصوصية في المعنى. فمحور السورة هو حديث عن قضية معينة، وهي موضوعات السورة، أمَّا المقصود فإنَّه غالباً ما يُستنبط من الكلام استنباطاً، ويحتاج إلى غوص في كتاب الله تعالى حتى يصل الإنسان إليه، ويحتاج إلى دقة في النظر حتى يربط الإنسان بين موضوعات السورة المتفرقة لينظم منها مقصوداً، وبالتالي فإنَّ محور السورة يُعين على استنباط مقصود السورة(١).

خير دليل على أنَّ مقاصد السور القرآنية، تحتاج إلى تأمل وتدبر ودقة، هو ما صَحَّ من حديث ابن عباس ﷺ، فقد روى بقوله: (كان عمر ﷺ يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنَّه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رئيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾(٢)، حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ قال عمر ﷺ: ما أعلم منها إلاَّ ما تعلم)(٣).

---

(١) ينظر: مقاصد السور القرآنية، الدكتور محمد الخضيري، موقع إسلاميات: islamiyyat.com/3-63

(٢) سورة النصر: الآية ١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ رقم الحديث (٤٩٧٠) من رواية: بن عباس ﷺ، ج٦/ ص١٧٩.

إنَّ سورة النور قد اشتملت على أحكام مهمة تتعلق بالتربية والأسرة والآداب الاجتماعية، من أجل بناء الأسرة والمجتمع على أرسخ الدعائم، وصونهم من المخاطر والعواصف، والتركيز على تماسكهم وتنظيمهم، وحمايتهم من الانهيار والدمار[١].

قال القرطبي، بأنَّ مقصود السورة هو: (ذِكر أحكام العفاف والستر)[٢]. وقد جاء مقصودها لبيان بعض الأحكام العملية، التي تتعلق بحفظ الفروج والأعراض، كحكم الزنا والقذف والنظر، وغير ذلك من الأحكام الواردة فيها، وقد جاء فيها، من الاستطراد، ما قصد به تنويع أسلوبها، على عادة القرآن، إذا أخذ في بيان هذه الأحكام[٣].

يرى البقاعي أنَّ مقصود سورة النور هو تأكيد الشرف للنبي ﷺ، وإظهار غاية النزاهة والطهارة لأمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها" إذ قال: (مقصودها مدلول اسمها المودع قلبها، المراد منه أنَّه تعالى شامل العلم، اللازم منه تمام القدرة، اللازم منه إثبات الأمور على غاية الحكمة، اللازم منه تأكيد الشرف للنبي ﷺ، اللازم منه شرف من اختاره لصحبته على منازل قربهم منه واختصاصهم به، اللازم منه غاية النزاهة والشرف والطهارة لأمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها" التي مات النبي ﷺ، وهو عنها راض، وماتت هي "رضي الله عنها" صالحة محسنة، وهذا هو المقصود بالذات ولكن إثباته محتاج إلى تلك المقدمات)[٤].

ويرى الإمام الفراهي أنَّ المقصد هو رباط السورة وتماسكها، ولا يعتبر أعظم الغايات، فقد قال: (ليس العمود ما هو أعظم المقاصد حقيقة، بل هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها، ولكنه أهم الأمور بياناً في سورة ذكر فيها، ألَّا ترى أنَّ آية النور تتلألؤ في وسط السورة، كواسطة العقد في الوشاح، أو كتعرض الثريا في كبد السماء، مع أنَّها ما جاءت إلَّا تبعاً، وعمود السورة – أي: مقصود السورة– حسن الأدب في أمور ربات البيوت؛ ولذلك أمر النبي الكريم ﷺ بتعليمها النساء لكي يعلمن ما لهن وما عليهن)[٥].

---

(١) ينظر: التفسير المنير، ج١٨/ ص١١٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص١٥٨.

(٣) ينظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور، ج٦/ ص٧٥.

(٤) نظم الدرر، ج٥/ ص٢٢٩؛ مصاعد النظر، ج٢/ ص٣١٠.

(٥) نظام القرآن، ص٤٢– ٤٣.

ولخص بعض العلماء مقاصد سورة النور بتسعة مقاصد: (إنَّ المقاصد القرآنية في السورة وما فيها من أحكام تتناول تسعة مقاصد أو تسعة أحكام شرعية، وهي:

١. أحكام الزنا.
٢. أحكام القذف.
٣. أحكام اللعان والملاعنة.
٤. أحكام الاستئذان.
٥. أحكام غض البصر، وحفظ الفرج.
٦. أحكام في النكاح.
٧. أحكام في المكاتبة.
٨. أحكام البغاء.
٩. أحكام في الإيمان والتوحيد)[١].

إنَّ مقصود السورة – كما ذكرنا – هو ذكر أحكام العفاف والستر، وبيان طهارة أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها" وهذه الأمور التسعة السابقة، يمكن أن يقال عنها: أغراض السورة، كما ذكرها كثير من المفسرين، منهم ابن عاشور، فقد أورد عدة أمور وعَنوَنَها بـ (أغراض السورة)، فقال:

١. أول ما نزلت بسببه قضية التزوج بامرأة اشتهرت بالزنا، وصدر ذلك ببيان حد الزنا.
٢. وعقاب الذين يقذفون المحصنات.
٣. وحكم اللعان.
٤. والتعرض إلى براءة عائشة "رضي الله عنها" بما رُميت به من الافك.
٥. والزجر عن حب إشاعة الفواحش بين المؤمنين والمؤمنات.
٦. والأمر بالصفح عن الأذى.
٧. وأحكام الاستئذان في الدخول إلى بيوت الناس المسكونة، وغير المسكونة.
٨. وآداب المسلمين والمسلمات في المخالطة.
٩. والتحريض على تزويج العبيد والإماء، ومكاتبتهم.
١٠. وتحريم البغاء الذي كان شائعاً في الجاهلية.

---

(١) قبسات من سورة النور، الدكتور محمد كامل احمد، دار النهضة العربية، د.ط (بيروت/ ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص١٠٠.

١١. والأمر بالعفاف.
١٢. وذم أحوال أهل النفاق والإشارة إلى سوء طويتهم مع النبي ﷺ.
١٣. والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.
١٤. وتخلل ذلك وصف عظمة الله تعالى وبدائع مصنوعاته، وما فيها من منن على الناس.
١٥. وقد أردف ذلك بوصف ما أعد الله للمؤمنين، وأنَّ المرجع إليه والجزاء بيده[١].



(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٤٠- ١٤١؛ تفسير المراغي، ج١٨/ ص١٤٣؛ في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٤٨٦؛ أهداف كل سورة، ص٢٥٦- ٢٥٧؛ أسماء سور القرآن، ص٢٨٠.

المبحث الثالث

المناسبة بين اسم السورة ومحورها

ينبغي لقارئ القرآن أن يتأمل في أسماء سوره، ويمعن النظر إليها، لأنَّ اسم كل سورة يدل بالإجمال على ما سوف تفصله السورة، وبذلك فإنَّ اسم كل سورة هو ترجمة لمقصودها. وقد سبق الاستشهاد بقول البقاعي(١): (إنَّ اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأنَّ اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه)(٢).

إنَّ اسم السورة متناسب مع الموضوعات الواردة في سياقها، ومن العلماء من ذكر عدة أوجه لبيان ذلك، وهي كالآتي:

١. تسميتها بما يذكر فيها من قصة غريبة أو أحكام خاصة أو قضايا تفصيلية، كما في تسمية سورة البقرة بهذا الاسم؛ لذكر قصة البقرة، وسميت سورة النساء بهذا الاسم؛ لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء، وتسمية سورة الأنعام؛ لما ورد فيها من تفصيل أحوالها.

٢. تكرار الكلمات، وذكر أنَّ التكرار هو أقوى الأسباب في تسمية السورة بما سميت به، ومن ذلك سورة النور، فقد ورد ذكر لفظ النور فيها سبع مرات، فالنور متناسب مع ما فيها من موضوعات، فكل ما فيها هو نور على نور. قال تعالى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾(٣).

٣. الانفراد في شيء معين، كتسمية سورة يوسف، ومريم، ويونس، ونوح، فلما انفرد كل نبي بقصته مع قومه، سميت السورة باسمه(٤). وقال الزركشي: (إعلم أنَّ تسمية سائر سور القرآن يجري فيها من رَعيِ التسمية ما ذكرنا)(٥).

لقد فصَّل صاحب كتاب دلالة أسماء سور القرآن، ما ذكره الزركشي عن تناسب اسم السورة بموضوعها، بقوله: (أنَّ السور القرآنية المنقولة إلينا بتواتر قطعي، التي لا

---

(١) ينظر: ص٤١، من هذا الكتاب.

(٢) ينظر: نظم الدرر، ج١/ ص١٢.

(٣) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص٢٧٠- ٢٧١.

(٥) المصدر السابق، ج١/ ص٢٧١.

يجاريها ولا يدانيها في قطعيتها أي نص أو كتاب آخر تأخذ أسماءها إمَّا مِن:

١. أول كلمة، كما في: (ق) و (ص).
٢. أو من أول كلمة ذكرت في أول جملها، كما في: (الملك) و (فصلت).
٣. وإمَّا من صاحب قصة غريبة ذكر فيها، كما في: (البقرة) و (النمل).
٤. وإمَّا من اسم نبي ذكر فيها مجادلته مع قومه: (كيونس) و (يوسف) و (هود).
٥. وإمَّا من اسم يتبوأ موقعا هاما ما مر فيه ذكره: (كالفرقان) و (النور).
٦. وإمَّا من مجموعة متجانسة فيها كما في: (الأنبياء).
٧. وإمَّا لملابسة أن ذكر فيها أحكام جنس أو أجناس (كالنساء) و (الأنعام))[١].

إنَّ اسم الشيء هو عنوان له، فاسم السورة هي عنوان لموضوعاتها، وتسميتها بلفظ يخبر عن بعض المعاني العظيمة، كتسمية النور لاشتمالها على آية النور، ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٢][٣].

ويوضح الشعراوي[٤]، كيف أنَّ النور منتشر بين موضوعات السورة، فالتسمية متناسبة بما لا يخفى مع موضوعاتها النورانية، إذ قال: (اسمها سورة النور، وإذا استقرأنا موضوع المسمى، أو المعنون له بسورة النور، تجد النور شائعاً في كل أعطافها، لا أقول آياتها، ولا أقول كلماتها، ولكن النور شائع في كل حروفها)[٥]. فقد جاءت لتحمل نور المعنويات، نور القيم، نور التعامل، نور الأخلاق، نور الإدارة التصرف[٦].

---

(١) دلالة أسماء سور القرآن، ص١٨٣.

(٢) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٣) ينظر: نظام القرآن، ص٦٢.

(٤) محمد متولي الشعراوي، عالم دين، ومفسر مصري، يعد من اشهر مفسري القرآن الكريم في العصر الحديث، من أهم مؤلفاته: (الإسلام والفكر المعاصر) و (أسرار بسم الله الرحمن الرحيم) توفي سنة (١٤١٨هـ). ينظر: موقع وكيبيديا، ar.wikipedia.org/wiki/

(٥) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ) مطابع أخبار اليوم، د.ط (مصر/ د.ت) ج١٦/ ص١٠١٨٣.

(٦) ينظر: المصدر السابق، ج١٦/ ص١٠١٨٧.

المبحث الرابع
مناسبة فاتحة السورة لمحورها، وخاتمتها

توطئة:

المناسبة في السورة الواحدة، هي نوع من أنواع المناسبات، وتحت هذا النوع يندرج عدة أفرع، منها: مناسبة فاتحة السورة لموضوعها أو محورها، ومناسبة فاتحة السورة لخاتمتها[١]. ولتطبيق ذلك على سورة النور، لابد من تقسيم هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: مناسبة فاتحة السورة لمحورها.

المطلب الثاني: مناسبة فاتحة السورة بخاتمتها.

المطلب الأول
مناسبة فاتحة السورة لمحورها

إنَّ سورة النور بجميع موضوعاتها، تتحدث عن التربية، والآداب الاجتماعية، وجاءت السورة بمطلع فريد، فقد احتوت الآية الأولى تنويها بالسورة، وما فيها من أحكام فرضها الله تعالى ليتذكروا ما فيها، فكان هذا البدء الفريد إلفاتاً إلى ما سيجيء في السورة من تشريعات، وقواعد، لحفظ المجتمع، وصيانة روابط الأسرة، التي هي الأساس الذي يقوم عليه كيان الجماعات والأمم[٢].

الآية الأولى من سورة النور متناسبة مع كل موضوع من موضوعات السورة، فبراعة الاستهلال التي بدأت بها السورة، بقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾[٣]، يدل على أنَّ هناك أمراً قوياً آتي بعدها بنفس قوة فاتحتها، وقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾[٤]، يشير إلى أنَّ هناك أحكاماً شديدة لابد من المؤمنين إتباعها، فجاء حد الزنا وحكمه، وحد القذف وحكمه، وحكم اللعان بين الزوجين، وهذه مقدمات لحادثة الإفك، ومن ضمن ما فرض على

---

(١) ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، ص٧٠، ٧٤؛ أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، الدكتور مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار بن الجوزي، ط٣ (د.م/١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م) ص١١٢.

(٢) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٠١.

(٣) سورة النور: من الآية ١.

(٤) سورة النور: من الآية ١.

المؤمنين عدم دخول البيوت بغير إذن صاحبها، وبعدها جاء غض البصر للمؤمنين والمؤمنات، وتبع ذلك جاء الحديث عن زواج الأحرار ومكاتبة الأرقاء، ومن ثم توسطت آية النور هذه السورة المباركة، لتنير ما فيها من أحكام، وتبين أنَّ ما نزل من هذه الأحكام والأوامر والنواهي هي نور من الله تعالى، قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[١]، انزله على عباده لتنير بها قلوبهم وعقولهم.

في هذا المقام نذكر قول سعيد حوى، كيف وصف هذه الآية، وكيف أنَّ سورة النور جاءت موضوعاتها آيات بينات متناسبة مع مطلعها، فقال: (جاء المقطع في وسط سورة النور، فهو يخدم ما قبله، وما بعده، ويعلل لما قبله، وما بعده، فهو وسط العقد في هذه السورة العجيبة، وإنَّ في هذا المقطع من الجمال والكمال والإعجاز في اللفظ والمعنى، كما أنَّ فيه من المعجزات الأخرى ما يدهش ويحير، وإنَّ فيه من الروعة، ما لا يحيط به بيان، وإنَّ فيه الكثير مما لو تأمله المنصف فإنَّه يهتدي إلى الإيمان، وإنَّ من فهمها واستوعب معانيها، يدرك كيف أنَّ سورة النور آيات بينات، وكيف أنَّ هذا القرآن من عند الله تعالى)[٢].

يظهر تناسق استهلال السورة البديع بموضوعاتها المتتالية، عندما ربط فاتحة السورة ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[٣]، بالأدلة الكونية على وجود الخالق عز وجل، التي ذكرها تعالى في أواخر السورة، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤].

---

(١) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٢) الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٧٧٠- ٣٧٧١.

(٣) سورة النور: من الآية ١.

(٤) سورة النور: الآية ٤١- ٤٦.

كما يظهر التناسق في ربط فاتحة السورة بخاتمتها، ربطاً بليغاً وتناسقاً لآيات السورة الكريمة تناسقاً بديعاً، ونظماً وتسلسلاً فريداً لأهداف السورة، فتعود السورة لتكمل ما بدأت به من أحكام الاستئذان، ولكن الاستئذان في داخل الأسرة، والاستئذان في مجلس النبي ﷺ، وهذا يدل دلالة قوية وواضحة على صلة فاتحة السورة بمحاورها وموضوعاتها.

قال محمد عزة: (والآيات مع خصوصيتها الزمنية والموضوعية، تنطوي على تلقين تأديبي مستمر المدى، بوجوب احترام المجالس العامة، والاجتماعات العامة التي قد يعقدها أو يدعو إليها الرؤساء والأمراء وذوو الشأن في المسلمين، وعدم الاستخفاف بها، وعدم تركها بدون استئذان، وبدون معذرة صحيحة، بالإضافة إلى ما فيها من توكيد التزام سنّة رسول الله ﷺ وعدم مخالفتها)[1].

خلاصة القول في مناسبة فاتحة سورة النور لمحورها: أنَّ محورها اتضح من خلال فاتحتها، وإنَّ جميع موضوعاتها مستمدة منها، ومن مضامين تلك الفاتحة.



(١) التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٥٦.

المطلب الثاني

مناسبة فاتحة السورة بخاتمتها

كان التناسق البديع بين الفاتحة والخاتمة في السورة الكريمة، من أبدع التناسق براعة بين سور القرآن الكريم، فلما افتتحها بالآيات البينات، جاء ختامها تذكير للناس بعلم الله تعالى بما في السموات والأرض، وبأفعال العباد التي سيحاسبهم عليها يوم يرجعون إليه.

افتتحت السورة الكريمة بإعلان قوي عن نزولها، وفرضها للأحكام التي وردت فيها، فقد قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١)، وهذا الإعلان يشعر بأهميتها، ووجوب أحكامها بصورة حاسمة، وجاء ختامها تذكيراً للناس بعلم الله تعالى بأحوال عباده وأعمالهم، التي سيحاسبهم عليها يوم يرجعون إليه، ليعُدوا أنفسهم للسؤال أمام الله عن تلك الآيات والأحكام التي أنزلها إليهم، خاصة المذكورة في سورة النور، وبذلك رد الختام على المبدأ والتحم الآخر بالأول(٢).

إنَّ سورة النور جاءت متضمنة آيات بينات ترشد إلى النظام الأقوم والسلوك الأمثل في الأسرة والمجتمع، يقصد بها تحقيق العفاف والصون وحماية العرض، واتقاء المحرّمات، وتوفير السكينة والطمأنينة القلبية البعيدة عن الشواغل، والهواجس الشيطانية الداعية إلى المعصية والرذيلة، لهذا افتتحت السورة بما ينبه على العناية بها، والاهتمام بأحكامها، وجاء في خاتمتها تذكيراً وعظة للمؤمنين، وتربية للنفوس، وتحقيقاً للتقوى التي يستشعر بها المؤمن التقي جلال الله وعظمته، وعلمه وقدرته، وحسابه على كل صغيرة وكبيرة، وعلمه بكل ما في السموات والأرض(٣).

وذكرت السورة آيات بينات في فاتحتها، وحذرت من مخالفة الأمر في خاتمتها، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤)(٥).

---

(١) سورة النور: الآية ١.

(٢) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٩٠؛ التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص١٧٠.

(٣) التفسير المنير، ج١٨/ ص١٢٢- ١٢٣.

(٤) سورة النور: الآية ٦٣.

(٥) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٨٢٧.

والمناسبة بين افتتاحية سورة النور وخاتمتها جلية وواضحة، بل نكاد نقول إنَّ الحقائق التي عرضت في افتتاحية السورة، كررت ذاتها بأسلوب آخر في الخاتمة، كما في الحديث عن النساء، قال السيوطي: (النور: في أولها في النساء: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[1]، وفي آخرها في القواعد من النساء: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾)[2][3].

كما أنَّ هناك تناسقاً بديعاً فيما ابتدأت به السورة من الوصية بعدم دخول البيوت بغير استئذان، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[4]. وبين نهاية السورة من ذكر آداب الاستئذان في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[5]، إلى نهاية الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[6]، وأيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾[7].

---

(١) سورة النور: من الآية ٣١.

(٢) سورة النور: من الآية ٦٠.

(٣) مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: الدكتور عبد المحسن العسكر، دار المنهاج، ط١ (الرياض/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ص٥٦.

(٤) سورة النور: الآية ٢٧- ٢٨.

(٥) سورة النور: من الآية ٥٨.

(٦) سورة النور: من الآية ٥٩.

(٧) سورة النور: من الآية ٥٩.

الباب الثاني

سورة النور دراسة تحليلية تطبيقية للتناسق

توطئة:

بعد أن تقدم في الباب الأول الحديث عن مقدمات تعريفية لسورة النور، وتم فيه ذكر اسم السورة ووجه تسميتها، وفضل السورة وعدد آياتها، وذكر خصائص السورة المكانية، والتاريخية، والمناسبية، والاختصاصية، وذُكر أيضاً المحور الأساسي الذي تدور حوله سورة النور، وهو: التربية الأخلاقية والآداب الاجتماعية، وتم فيه بيان المقصد القرآني في السورة، وهو: ذكر أحكام العفاف والستر. فاستناداً على ما سبق فإنَّ هذا الباب يأتي ليُبين ويُظهر التناسق بين موضوعات سورة النور، وعلى ذلك اقتضت المادة العلمية أن يشتمل هذا الباب على تمهيد وأربعة فصول.

التمهيد

بين يدي موضوعات سورة النور

إنَّ سورة النور من السور التي لها سياق خاص، وتناسق موضوعي واضح، وترابط متميز في محورها الأساسي، قال محمد عزة: (فصول السورة على تعددها مترابطة ترابطاً موضوعياً أو زمنياً)[1].

ومن خلال التأمل في سورة النور فإننا نجد أنَّ التعليل يتخلل أحكامها، (فهي لا تكاد تذكر حكماً أو وصفاً إلَّا وتتبعه ببيان سببه أو الحكمة منه، فمن أول آية فيها علل الله سبحانه وتعالى سبب تنزيلها وفرضها وتمام البيان في آياتها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]، ولَمَّا شَرَّع الملاعنة بين الزوجين حين القذف قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[3]، أي: ولولا فضل الله عليكم بإنزال حكم الملاعنة بين الزوجين لأُحرجتم وشق عليكم ما شدد الله به في مسألة شهود الزنا، فحتى

---

(١) التفسير الحديث، ج٨/ ص٣٥٢.

(٢) سورة النور: من الآية ١.

(٣) سورة النور: من الآية ١٠.

يخف على النفوس قبول مشروعية الملاعنة بين الزوجين بيَّن أنَّها فضل ورحمة، وكذلك حين نهى عن قبول قذف القاذف إلَّا ببيّنة، علل ذلك بأنَّهم كاذبون: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(١)، وعلل الأمر بعفو الرجل عمن قذف أهل بيته بالفحش بقوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢)، وبعد الأمر بالرجوع إن لم يأذن لمن استأذن قال: ﴿فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾(٣)، وكرر نفس العلة مع الأمر بغض البصر ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾(٤)، ونزل النهي عن ضرب المرأة برجلها إظهاراً لزينتها ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾(٥)، وحين ذكر أحكام الزينة قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٦)، ولمَّا أمر بالصلاة والزكاة وطاعة الرسول ﷺ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٧)، وعلل النهي عن مخالفته ﷺ فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾)(٨)(٩).

وبناءً على ذلك التأمل في السورة وآياتها، وقراءة ما ذكره المفسرون في تفسير هذه السورة، تبين أنَّ السورة تحتوي على خمسة عشر موضوعاً، وقد رُتبت هذه الموضوعات على شكل مباحث مندرجة تحت أربعة فصول، فكانت كالتالي:

الموضوع الأول: براعة استهلال السورة، وهو الآية الأولى من السورة، في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

الموضوع الثاني: حد الزنا وحكمه، وجاء هذا الموضوع في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ

(١) سورة النور: من الآية ١٣.
(٢) سورة النور: من الآية ٢٢.
(٣) سورة النور: من الآية ٢٨.
(٤) سورة النور: من الآية ٣٠.
(٥) سورة النور: من الآية ٣١.
(٦) سورة النور: من الآية ٣١.
(٧) سورة النور: من الآية ٥٦.
(٨) سورة النور: من الآية ٦٣.
(٩) أسوار العفاف، ص٢٨- ٢٩.

وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

الموضوع الثالث: حد القذف واللعان وحكمهما، جاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

الموضوع الرابع: حادثة الافك وما يتعلق بها، وجاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

الموضوع الخامس: الاستئذان لدخول البيوت، وجاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

الموضوع السادس: أحكام النظر والحجاب، وجاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

الموضوع السابع: زواج الأحرار ومكاتبة الأرقاء، وجاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

الموضوع الثامن: المثل النوراني في آية النور، وجاء هذا الموضوع في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٣٥) ﴾.

الموضوع التاسع: آيات بيان حال المؤمنين المهتدين، وحال الكافرين الخاسرين، وجاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ (٣٦) ﴾ الى قوله تعالى: ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾.

الموضوع العاشر: الآيات الدالة على توحيد الله تعالى، وجاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ (٤١) ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٤٦) ﴾.

الموضوع الحادي عشر: السمات الدالة على نفاق المنافقين، وإيمان المؤمنين، وجاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٤٧) ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (٥٤) ﴾.

الموضوع الثاني عشر: مقومات أهل الإيمان، وجاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (٥٥) ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (٥٧) ﴾.

الموضوع الثالث عشر: الاستئذان في داخل الأسرة، وجاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٥٨) ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٦٠) ﴾.

الموضوع الرابع عشر: حكم الأكل في بيوت الأقارب دون إذن، وجاء هذا الموضوع في قوله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (٦١) ﴾.

الموضوع الخامس عشر: آداب الاستئذان في مجلس النبي ﷺ، وجاء هذا الموضوع من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٦٢) ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ (٦٤) ﴾.

الفصل الأول

براعة استهلال السورة، وبعض الحدود الشرعية وحكمها، وحادثة الإفك

ويشمل الآيات (١- ٢٦)

توطئة:

بعد التأمل والتدبر في آيات السورة (١- ٢٦)، والنظر في أقوال المفسرين، وفي محور السورة ومقصودها، تبين أنَّه يمكن تقسيم هذا الفصل إلى أربعة مباحث، وكل مبحث يمثل موضوعاً مستقلاً من موضوعات السورة.

المبحث الأول

براعة استهلال السورة، ويشمل الآية (١)

قال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[١].

توطئة:

سورة النور هي الدُّر الذي لم يبتدئ العظيم في القرآن العظيم سواها بتعظيم، وقد اختصها سبحانه وتعالى من بين كل القرآن الكريم، بأن افتتحها بالثناء عليها[٢]. وإنَّ هذا الافتتاح لم تشترك معها فيه سورة أخرى من سور القرآن الكريم[٣].

إنَّ من البلاغة حسن الابتداء، وهو أن يتأنق في أول الكلام لأنَّه أول ما يقرع السمع، ولقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه، وأبلغها، وأكملها، والابتداء الحسن يسمى براعة الاستهلال[٤]. وعرفه السيوطي بقوله: (هو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه)[٥].

---

(١) سورة النور: آية ١.

(٢) ينظر: أسوار العفاف، عصام بن صالح العُوَيّد، مركز تدبر، ط١ (الرياض/١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م) ص٨.

(٣) ينظر: التفسير الوسيط، ج١٠/ ص٧٧؛ نحو التفسير الموضوعي، محمد احمد السقا الغزالي (ت:١٤١٦هـ) دار النهضة، ط١ (مصر/ د.ت) ص٢٧٤.

(٤) ينظر: الإتقان، ج٣/ ص٣٦٣.

(٥) المصدر نفسه.

تبدأ سورة النور بمطلع فريد، فيه إعلان قوي حاسم عن تقرير هذه السورة، وقد احتوت الآية الأولى تنويها بالسورة، وما فيها من أحكام فرضها الله تعالى، استهدافاً لتذكير المسلمين وتبصيرهم[١]. وهذا البدء الفريد يدل على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة، وأيضاً مدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية[٢].

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق الموضوعي في براعة استهلال السورة.

المطلب الثاني: تفسير الآية الكريمة.



(١) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٣٥٣؛ الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٦٧٩.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٤٨٦.

المطلب الأول

التناسق الموضوعي في براعة استهلال السورة

يبرز في مقدمة سورة النور، افتتاحية ما يشبه التخطيط المبسط للسورة المنزلة[١]. فقد جاءت هذه الآية مُجملة لما ورد في السياق القرآني لآياتها، وقد تناسقت موضوعاتها تناسقاً بديعاً، فاشتملت هذه السورة على آيات الأحكام، وآيات التوحيد، والآداب والأخلاق، والأوامر والنواهي، وآيات المنافقين، ومع تنوع هذه الموضوعات إلَّا أنَّها جاءت متتابعة متناسقة، بعيدة عن التفكك وعدم الانسجام، فموضوع الآية التي تصدَّرت بها سورة النور، لم يكن متناسقاً مع الآية التي تليها فقط، وإنَّما جاء موضوعها متناسقاً مع الموضوعات المتنوعة الواردة في السورة، وبهذا يتحد بدء السورة مع ختامها، لتبرز السورة كوحدة واحدة متناسقة المبنى والمعنى.

لو تأملنا موضوعات السورة لوجدنا أنَّ الشارع قد بدأ ببيان الحدود، ثم آداب دخول البيوت، ثم الأمر بغض البصر، ثم ذكر آداب الاستئذان، وهنا يرد سؤال: لقد أمر الله تعالى بعدم اتّباع خطوات الشيطان، فقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾[٢]، وخطوات الشيطان تبدأ بعدم الاستئذان لدخول البيوت، وبعدم غضّ البصر، المؤدي لارتكاب الفاحشة والوقوع في الزنا، إذن لماذا بدأ المولى سبحانه ببيان حد الزنا، ولم يبدأ بهذه لخطوات؟

نقول: بما أنَّ السورة بدأت بإعلان قوي حاسم، كان لابد من أن يتناسق ما بعدها، ويليها موضوع قوي موازي لها بالقوة، وهذا يكمن بحد الزنا، على اعتبار أنَّ سورة النور تعالج الحالات الاجتماعية والأسرية.

قال أبو حيان: (بدأ – عز وجل– بالزنا لقُبحه، وما يحدث عنه من المفاسد والعار، وكان قد نشأ في العرب وصار من إمائهم أصحاب رايات)[٣].

---

(١) ينظر: الظاهرة القرآنية، مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (ت:١٣٩٣هـ) دار الفكر، ط٤ (دمشق/١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ج١/ ص٢٧٢.

(٢) سورة النور: من الآية ٢١.

(٣) البحر المحيط، ج٨/ ص٧.

إنَّ سورة النور كانت تمهيداً لإقامة الأسرة الطاهرة، والمجتمع الفاضل، فافتتاحية السورة تمثل الخطوة الأولى في منهج القرآن للتربية الأخلاقية المتكاملة للفرد والمجتمع التي وردت في هذه السورة المباركة، والتي حدَّد الله تعالى فيها حد الزنا، لبيان خطورته على المجتمع[1]. ولذلك بدا السورة ببيان حد الزنا.

قال ابن تيمية: (بدأت السورة ببيان الحد؛ وذلك لتنبيه المخاطبين، بأنَّ ما يتلوه الله سبحانه هي أحكام صارمة، يجب تنفيذها بجدّ ودون هوادة، وإنَّ آخر وسيلة لقمع الفساد من الأرض هو النكال بالمفسدين وتعذيبهم؛ لكي يكون ذلك رادعا لهم ولغيرهم)[2]. وهكذا شاء العليم الحكيم أن يُنَسِق آيات هذه السورة العظيمة، بهذا النظم القرآني البديع.



(١) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص١٧٨.

(٢) تفسير سورة النور، أبو العباس احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (ت:٧٢٨هـ) راجعه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد، الدار السلفية، ط١ (الهند/١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م) ص١١.

المطلب الثاني

تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

ذكر أبو السعود[2]، أنَّ: (﴿ سُورَةٌ ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه سورة، وإنَّما أشير إليها مع عدم سبق ذكرها؛ لأنَّها باعتبار كونها في شرف الذكر، في حكم الحاضر المشاهد)[3].

إنَّما نُكِّرت ﴿ سُورَةٌ ﴾ لبيان ما في السورة من الفخامة التي تشد أذهان السامعين[4]، وهذا التنكير (تنبيه على الاعتناء بها، ولا ينفي الاعتناء بها الاعتناء بما عداها)[5]؛ لان التنكير يفيد العموم.

قال ابن عاشور: (في قوله ﴿ أَنزَلْنَاهَا ﴾ تنويه بالسورة بما يدل عليه ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ من الإسناد إلى ضمير الجلالة الدال على العناية بها وتشريفها، وعبر بـ ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ عن ابتداء إنزال آياتها، بعد أن قدرها الله بعلمه بكلامه النفسي، فالمقصود من إسناد إنزالها إلى الله تعالى تنويه بها، وعبر عن إنزالها بصيغة المضي وإنَّما هو واقع في الحال باعتبار إرادة إنزالها، فكأنَّه قيل: أردنا إنزالها وإبلاغها، فجعل ذلك الاعتناء كالماضي

---

(١) سورة النور: من الآية ١.

(٢) هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، الإمام العلَّامة، المفسر، الشاعر، من علماء الترك المستعربين، من أهم مؤلفاته: (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) و(تحفة الطلاب) توفي سنة (٩٨٢هـ). ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري (ت:١٠٨٩هـ) تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار بن كثير، ط١ (دمشق/بيروت/١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ج١٠/ ص٥٨٥؛ الأعلام، ج٧/ ص٥٩.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (ت:٩٨٢هـ) دار إحياء التراث العربي، د.ط (بيروت/ د.ت) ج٦/ ص١٥٥.

(٤) ينظر: روح المعاني، ج٩/ ص٢٧٣.

(٥) الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٦٨٥.

حرصا عليه، وهذا من استعمال الفعل في معنى إرادة وقوعه، كقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾[1]، والقرينة قوله: ﴿ وَفَرَضۡنَٰهَا ﴾)[2].

إنَّ الفرض هو: (قطع الشيء الصلب، والتأثير فيه كقطع الحديد، وكل موضع ورد في القرآن ﴿ فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾[3] ففي الإيجاب)[4]. قال ابن عاشور في قوله تعالى ﴿ وَفَرَضۡنَٰهَا ﴾، أي: (أوجبنا العمل بما فيها، وإنَّما يليق هذا التفسير بالنظر إلى معظم هذه السورة لا إلى جميعها، فإنَّ منها ما لا يتعلق به عمل، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾)[6][7].

ومقصود الشارع بالفرض في الآية هو: فرض ما في السورة من أحكام تتعلق بحماية الأسرة، وعقاب المعتدين على النسل فيها، ولكيلا يتمرد على أحكامها أحد، فهي أحكام مفروضة من عند الله، وهي تطهير للعباد من إثمهم، وكما شرف الله تعالى السورة كلها بنسبة إنزالها إليه، شرف آيات الأحكام فيها بالإنزال؛ تأكيداً للإلزام بأحكامها، ولو كانت شديدة، فهي شديدة على المعتدين، وحفظ للمؤمنين[8].

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾: إنَّ السورة ورد فيها دلائل الأحكام، وورد فيها حجج وتوحيد، وكل ذلك هو آيات بينات، فحجج العقول ترشد إلى مسائل التوحيد، ودلائل الأحكام ترشد إلى وجه الحق، وترفع غمة الجهل، وهذا هو شرف السورة، وهو أقل

---

(١) سورة المائدة: من الآية ٦.

(٢) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٤٢.

(٣) سورة الأحزاب: من الآية ٣٨.

(٤) الكليات، ج١/ ص٦٨٩.

(٥) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٦) سورة النور: من الآية ٣٩.

(٧) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٤٢.

(٨) ينظر: زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٣٧.

ما وقع التحدي به في سبيل المعجزة، فيكون شرفاً للنبي ﷺ في الولاية، شرفاً لنا في الهداية[١].

والقرآن بيّن كله، وإنما جاء السياق القرآني بذكر الظرف ﴿فِيهَآ﴾؛ لتبين هذه الأحكام بياناً فوق بيان، فأحكامها واضحة معللة، ليس فيها أدنى التباس، فليس فيما تنزلت من أجله من متشابه القرآن شيء؛ لأنَّ قضايا الأعراض، وحمايتها ليست من المسائل التي يقال فيها (اختلف العلماء) وإن كانوا يختلفون في حكم تقدير الوسيلة الموصلة إلى الغاية[٢].

والمراد بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتذكرونها وتتعضون لما ورد فيها من أحكاماً وآداباً اجتماعية، فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها[٣]. قال ابن عاشور: (إنَّ جملة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ مرتبطة بجملة: ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾؛ لأنَّ الآيات بهذا المعنى مظنة التذكر، أي: دلائل مظنة لحصول تذكركم، فحصل بهذا الرجاء وصف آخر للسورة، هو أنَّها مبعث تذكر وعظة)[٤].

هذه الآية هي مقدمة السورة، وهي تبين أنَّ السورة مُحكمة، وأنَّ فيها فرائض وأحكام وآداب، وانَّ فيها آيات بينات واضحات، فهي مدخل إلى السورة التي تفصّل في موضوع الدخول في الإسلام كله[٥].

قال الشعراوي: (في هذه السورة كثير من الأحكام، إلى أن قال فيها الحق سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٦]، وقال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾، فطالما أنَّكم أخذتم نور الدنيا، وأقررتُم أنَّه الأحسن، وأنَّه إذا ظهر ألغى جميع أنواركم، فكذلك خذوا نور التشريع، واعملوا به، واعلموا أنَّه نور على نور)[٧].

---

(١) ينظر: أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي الاشبيلي (ت:٥٤٣هـ) راجعه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط٣ (بيروت/١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ج٣/ ص٣٣.

(٢) ينظر: أسوار العفاف، ص٩.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٥٥.

(٤) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٤٤.

(٥) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٦٨٥.

(٦) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٧) تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠١٩٣.

وقد ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: إنَّ القارئ لهذه السورة يجد في مطلعها سِرَّاً يُلفِت النظر، وهو أنَّها قد بدأت بالإخبار بأنَّها سورة، مع أنَّها سورة من مائة وأربع عشرة سورة؟

إنَّ السِرَّ في ذلك هو أمران:

الأول: (إنَّ بدء السورة في الحقيقة هو قوله تعالى في الآية الثانية منها: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[١]، وإنَّ الآية التي بدئت بها السورة ليست إلَّا تنبيها على أنَّ سورة ستتنزل، وفيها فرائض، وأحكام، وآيات بينات، وذلك أنَّ الأحكام الشرعية، وخاصة ما يتصل منها بالحدود، لم يجيء بها القرآن الكريم في صدر السور القرآنية، وإنما جاء بها بين ثنايا الآيات، حيث يمهد لها بآيات قبلها، ثم يعقب عليها بآيات بعدها، وبهذا يَجِئ الحكم الشرعي وبين يديه ومن خلفه ما يدعمه، ويوضحه)[٢].

الثاني: (لعلَّ السر في بدء هذه السورة بهذا البدء العجيب، هو أن يسترعى انتباه المسلمين لها، فينظروا إلى ما فيها من أحكام ومواعظ، ويعملوا به)[٣]. فما ورد في هذه السورة ليس مجرد توصيات وتمنيات تعطي الخيار في الفعل أو الترك، بل هي أحكام قاطعة لابد من تنفيذها وتطبيقها، وإقامة الحياة على هداها ونورها، لتكون عبرة وعظة وتذكرة للمؤمنين[٤]، لما استقر في فطرهم من آداب وأخلاق قد ينساها الناس تحت تأثير المغريات والشهوات، فتذكرهم بها تلك الآيات البينات، وتردهم إلى منطق الفطرة الواضح المبين[٥].

ثانياً: لو نظرنا إلى الآية الأولى لوجدنا أنَّ الباري سبحانه وتعالى قد جمع بين الإنزال والفرضية، فقال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ﴾[٦]؟

---

(١) سورة النور: من الآية ٢.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١١٩٩.

(٣) التفسير الواضح، ج٢/ ص٦٤٩.

(٤) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، ج٥/ ص١٧٣

(٥) ينظر: في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٤٨٧.

(٦) سورة النور: من الآية ١.

والمراد بهذا الجمع هو: (بيان أنَّ الغرض منها ليس مجرد الإنزال؛ وإنَّما الإنزال المصحوب بوجوب تنفيذ الأحكام والآداب التي اشتملت عليها، والتي أنزلت من أجلها)[١].

ثالثاً: قال عز وجل ﴿ أَنزَلْنَهَا ﴾ وهذا اللفظ يدل على الإنزال مرة واحدة، وسورة النور نزلت منجمة حسب الوقائع والأحداث، فلم يقل (نزَّلناها)؟

قال الرازي: (إنَّ جبريل ﷺ كان يحفظها من اللوح المحفوظ ثم ينزلها عليه ﷺ، فلهذا جاز أن يقال أنزلناها توسعاً، وإنَّ الله تعالى أنزلها من أم الكتاب في السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزلها بعد ذلك نجوماً على لسان جبريل ﷺ)[٢].

نفهم من أنزل أن الإنزال من أعلى إلى من هو أدنى منه، لذلك يقول تعالى: (أنزلنا) حتى للشيء الذي لا ينزل من السماء، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[٣]، فالحديد وإن كان مصدره الأرض، إلا أنه لا يكون إلا بقدرة الأعلى سبحانه[٤].

رابعاً: قال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾[٥]، في هذه الآية تكرار الإنزال، مع استلزام إنزال السورة لإنزالها؟[٦].

والسبب في ذلك هو: (لكمال العناية بإنزال هذه السورة وشأنها، لما اشتملت عليه من الأحكام المفروضة)[٧]. وأيضاً فإنَّ هذه السورة قد استقلت بعنوان رائق، داع إلى

(١) التفسير الوسيط، ج١٠/ ص٧٨.

(٢) مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٣٠١.

(٣) سورة الحديد، من الآية ٢٥.

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠١٩٢.

(٥) سورة النور: من الآية ١.

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٥٥.

(٧) فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي القِنَّوجي (ت:١٣٠٧هـ) راجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المكتبة العصرية، د.ط (بيروت/ ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ج٩/ ص١٦٤؛ ينظر: التفسير الوسيط، ج١٠/ ص٧٨.

تخصيص إنزالها بالذكر، إبانة لخطرها ورفعا لمحلها، كقوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[١]، بعد قوله تعالى: ﴿ نَجَّيۡنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٍ مِّنَّا ﴾[٢][٣].

خامساً: لسائل أن يسأل: لماذا ختمت الآية بـ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ولم يقل الله تعالى: (لعلكم تعلمون) أو (لعلكم تتعضون)؟

نقول: إنَّ ختام هذه الآية ليس فقط متناسقاً مع الآية نفسها، وإنَّما تناسقها ممتدٌّ إلى آيات التوحيد المتوسطة لسورة النور، فالمراد من التذكر هو تذكر آيات التوحيد المعلومة لهم.

قال الرازي: (إنَّه سبحانه وتعالى ذكر في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود، وفي آخرها دلائل التوحيد، فقوله: ﴿ وَفَرَضۡنَٰهَا ﴾ إشارة إلى الأحكام التي بينها أولاً، ثم قوله: ﴿ وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾ إشارة إلى ما بَيَّن من دلائل التوحيد، والذي يؤكد هذا التأويل قوله: ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ فإنَّ الأحكام والشرائع ما كانت معلومة لهم ليؤمروا بتذكّرها، أمَّا دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها، فأمروا بتذكيرها)[٤].

إنَّه سبحانه وتعالى أراد أن يلهب المشاعر؛ لتستقبل آياته الاستقبال الحسن، وتطبق أحكامه التطبيق الأمثل، يقول: أنزلت إليكم كذا لعلكم تذكّرون، ففيها حث وإلهاب، لنستفيد بتشريع الحق سبحانه للخلق[٥].

إنَّ السورة بدأت بإعلان قوي حاسم، فكان لابد من أن تُختم الآية بختام قوي شديد، فقال تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾. وقيل المعنى هو تتعظون[٦].

هذه ابرز اللطائف التي وردت – حسب اطلاعي – في الآية الأولى من هذه السورة العظيمة، وما خفي كان أعظم، فمن تأمل بألفاظ هذه الآية وجد فيها الأمر العجيب الفريد، مع ما فيها من تناسق يُعجز كل فصيح وبليغ.

(١) سورة هود: من الآية ٥٨.

(٢) سورة هود: من الآية ٥٨.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٥٥.

(٤) مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٣٠٢؛ ينظر: التفسير الوسيط، ج١٠/ ص٧٨.

(٥) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠١٩٣.

(٦) ينظر: فتح البيان، ج٩/ ص١٦٤.

المبحث الثاني

حد الزنا وحكمه، ويشمل الآيات (٢– ٣)

قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

توطئة:

بعد أن قرر سبحانه تعالى تلك المقدمة، الآن بدأ بتفصيل ما فرض عز وجل لنا، وما حكم فيها من آيات بينات، ومما هو من الإسلام[2].

قال المراغي[3]: (اتفقت الأمة على أنَّ الزنا من أكبر الآثام، وأنَّه من الذنوب التي شدد الدين في تركها، وأغلظ في العقوبة على فعلها، وجاء فيه من النصوص ما لم يأت في غيره مما حرم الله، فقد قُرِنَ بالشرك في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامٗا ﴾)[4][5].

وصحَّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنَّه قال: قلت يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: ((أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ))[6].

(١) سورة النور: الآية ٢– ٣.

(٢) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٦٨٥.

(٣) المراغي: هو أحمد بن مصطفى المراغي، عالم، ومفسر مصري، تخرج من دار العلوم، ثم كان مدرّس الشريعة الإسلامية بها، من أهم مؤلفاته: (تفسير المراغي) و (علوم البلاغة) توفي سنة: (١٣٧١هـ). ينظر: الأعلام، ج١/ ص٢٥٨.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٦٨.

(٥) تفسير المراغي، ج١٨/ ص٦٩.

(٦) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب أثم الزناة، رقم الحديث (٦٨١١) من رواية: عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، ج٨/ ص١٦٤؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم الحديث (١٤١) من رواية: عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، ج١/ ص٩٠.

هكذا تبدأ السورة الكريمة بحد الزنا، على غير ما جرى عليه القرآن العظيم من تقرير الأحكام في ثنايا السورة، وبين يديها ومن خلفها آيات تمهيد لها، وهذا يشير إلى أنَّ هذا الأمر الذي جعلته السورة في مقدمتها، هو أمر عظيم الخطر على المجتمع الإنساني، وأنَّ من الحكمة الإسراع في محاربته والقضاء عليه، وأنَّه لهذا جدير بأن يتصدر سورة من سور القرآن الكريم، وألَّا تسبقه مقدمات، وإرهاصات تشير إليه[1].

إنَّ جريمة الزنا لِمَا فيها من فحش، وإضعاف لقوة الأمة، وإردائها في مهاوي الهلكة، فقد شدد الله تعالى في عقوبتها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[2][3].

وانطلاقاً من هذه الآية تبدأ موضوعات السورة تتوالى بصورة متناسقة تبهر العقول، وتشُدُّ الأذهان، من أول موضوع وحتى آخر موضوع من موضوعاتها، لتظهر السورة بوحدة متناسقة منتظمة متلاحمة.

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيتين الكريمتين.

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٠١.

(٢) سورة النور: من الآية ٢.

(٣) ينظر: زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٣٨.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

بعد التأمل والتدبر فيما سبق بيانه من مقدمة السورة مع هذا الموضوع، تبين أنَّ هذا الموضوع متناسق موضوعياً مع الموضوع السابق؛ وذلك لأنَّ مطلع السورة كان قوياً يشد الأذهان، وكان لابد أن يرد بعده موضوع موازي له في القوة، فكان حد الزنا.

إنَّ المجتمع لا يكون مجتمعاً سليماً، قويّ البنيان، ثابت الأركان، إلَّا إذا انتظمت أفراده، بمشاعر متلاحمة من التوادّ والتعاطف، والأسرة هي أول لبنة في بناء المجتمع، ومن هنا كان حرص الإسلام على إقامة هذه اللّبنة من مادة متماسكة، متلاحمة، مصفاة من الشوائب، محصنة من الآفات، فمن أجل هذا وقفت شريعة الإسلام هذه الوقفة الحكيمة الحازمة، من أمر الزنا، وعدّته آفة مهلكة إذا لم يأخذ المجتمع كله السبيل عليها، وينكّل بالذين يعتدون على حرمته، ويهددون أمنه وسلامته، ويدكون صرح بنيانه، باقتراف هذا المنكر[١].

قال مُلا علي القاري[٢]: (إنَّ الناس أشكال وأمثال فكل يطير مع شكله وكل يألف مع مثله. وانشدوا[٣]:

عنِ المرْءِ لا تَسألْ وسَلْ عن قَرينه فكُلُّ قَرينٍ بالمُقَارِنِ يَقْتَدي.

أمَّا أهل الفساد فالفساد يجمعهم وإن تناءت ديارهم، وأمَّا أهل السوء، فالسوء يجمعهم وإن تباعد مزارهم)[٤].

مما يؤيد هذا الكلام، قوله تعالى: ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٠٣.

(٢) هو أبو الحسن علي بن سلطان محمد نور الدين أبو المعروف بـ (ملّا علي القاري) الإمام، العلّامة، كان ورعاً، فاضلاً، غزير التأليف، من أهم مؤلفاته: (أنوار القرآن وأسرار الفرقان) و (شرح مشكاة المصابيح) توفي سنة (١٠١٤هـ). ينظر: الأثمار الجنية في أسماء الحنفية، أبو الحسن علي بن سلطان محمد نور الدين القاري (١٠١٤هـ) تحقيق: الدكتور عبد المحسن عبد الله احمد، ديوان الوقف السني، ط١ (بغداد/١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) ج١/ ص٣٢، ٤٨؛ الأعلام، ج٥/ ص١٢.

(٣) ديوان زيد بن عدي العبادي (ت: ٣٥ ق.هـ) تحقيق: محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية، د.ط (بغداد/١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) ص١٠٧.

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان، أبو الحسن علي بن سلطان نور الدين الهروي (ت: ١٠١٤هـ) تحقيق: الدكتور ناجي السّويد، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٣٤هـ/٢٠١٣م) ج٣/ ص٤٤٧.

لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴾[1]. على ذلك فإنَّ: (الصحبة لها تأثير في الأصل والفرع، فيحصل الشرف أو السقوط بصحبة أهل الشرف أو الأراذل، وفي ذلك يقول القائل[2]:

عَلَيْكَ بأَرْبَابِ الصُّدُورِ، فَمَنْ غَدَا مُضَافاً لأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا

وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ فَتَنحط قَدْراً مِنْ عُلاَكَ وَتَحْقُرَا.

فالمرء على دين خليله، ومن تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها، والحكم للغالب، فإن كان النور قوياً غلب الظلمة، وإن كانت الظلمة قوية غلبت النور، وصيرته ظلمة، ولذلك نهى الله تعالى عن نكاح الزواني، فإنَّه وإن كان نور الزوج غالباً– إذا كان ذا نور– فإن العِرق نزَّاع، فيسرى ذلك في الفروع، فلا تكاد تجد أولاد أهل الزنا إلَّا زناة، ولا أولاد أهل العفة إلَّا أعِفاء)[3].

قال تعالى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[4]. فهذه هي آيات هذا الموضوع متناسقة، منسجمة، آخذ بعضها بعنق بعض.

(١) سورة النور: الآية ٢٦.

(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت: ١٠٩٣هـ) تحقيق: عبد السلام محمد، مكتبة الخانجي، ط٤ (القاهرة/١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ج٥/ ص١٠٤. ونُسِب هذا البيت لامين المحلي من أرجوزة سماها: (الجوهرة الفريدة) ينظر: الأعلام، ج٦/ ص٢٨٢.

(٣) البحر المديد، ج٤/ ص١١.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٨.

المطلب الثاني

تفسير الآيتين الكريمتين في ضوء تناسقها الموضوعي

قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

إنَّ هذه الآية هي من عجيب القرآن العظيم؛ وذلك لأنَّ لفظها الخبر ومعناها النهي، أي: لا تنكحوا زانية أو مشركة، وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾[2]، فدخلت الزانية في أيامى المسلمين، وقيل لا نسخ فيها[3].

قال سيد قطب: (كان حد الزانيين في أول الإسلام ما جاء في سورة النساء: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٗ مِّنكُمْۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾[4]، فكان حد المرأة الحبس في البيت والأذى بالتعيير، وكان حد الرجل الأذى بالتعيير، ثم أنزل الله حد الزنا في سورة النور، فكان هذا هو (السبيل) الذي أشارت إليه من قبل آية النساء)[5].

فآيات حد الزنا في سورة النساء كانت هي الخطوة التشريعية الأولى لمرتكبي الفاحشة، والمتبادر أنَّ حكمة التنزيل التي اقتضت أن تكون الخطوة الأولى ما ورد في سورة النساء، رأت الوقت قد حان للخطوة الثانية التي احتوتها الآية الثانية، ولعل أحداثاً وقعت فكان ذلك المناسبة، ولقد كان النساء اللاتي يأتين الفاحشة يحبسن في بيوتهن وقتا، إلى أن يتوفاهنّ الموت، أو يجعل الله لهنّ سبيلا، بناء على ما جاء في آيتي سورة النساء، ومن المحتمل أنَّه صار شيء من الحرج في صدد ذلك[6].

---

(١) سورة النور: الآية ٢.

(٢) سورة النور: من الآية ٣٢.

(٣) ينظر: قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن، مرعي بن يوسف بن أبى بكر الكرمي (ت:١٠٣٣هـ) تحقيق: سامي عطا، دار القرآن الكريم، د.ط (الكويت/ د.ت) ص١٤٩.

(٤) سورة النساء: الآية ١٥.

(٥) في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٤٨٧.

(٦) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٨، ٣٥٤.

وثبت الجلد بالقرآن، لقوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾، وثبت الرجم بالسنة المتواترة وإجماع الصحابة، فقد صحَّ عن النبي ﷺ: (أنَّه أمر فيمن زنا، ولم يحصن بجلد مائة، وتغريب عام)[(١)]، ولَمَّا كان النص القرآني مجملاً وعاماً، وكان رسول الله ﷺ قد رجم الزانيين المحصنين، فقد تبين من هذا أنَّ الجلد خاص بغير المحصن[(٢)].
وإنَّ قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾، عام يضم جميع الزناة[(٣)].

وجمهور المفسرين[(٤)]، وأئمة الفقه[(٥)]، مجمعون على أنَّ الحد المذكور في الآية الثانية على غير المحصنين، مع زيادة مختلف عليها، وهي (نفي سنة) حيث يأخذ بها بعضهم دون بعض، وإنَّ الحد الشرعي على المحصنين هو الرجم حتى الموت، مع زيادة مختلف عليها كذلك، وهي مائة جلدة قبل الرجم[(٦)].

واجمع العلماء على عموم هذه الآية، وأنَّ حكم المحصنين منسوخ منها، واختلفوا في الناسخ، فقالت فرقة: الناسخ السنة المتواترة في الرجم، عن رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب شهادة القاذف والسارق والزاني، رقم الحديث (٢٦٤٩) من رواية: زيد بن خالد ﷺ، ج٣/ ص١٧١؛ صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم الحديث (١٦٩٧) من رواية: زيد بن خالد وابي هريرة ﷺ، ج٣/ ص١٣٢٤.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٤٨٧.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج٥/ ص٨٧.

(٤) ينظر: جامع البيان ج١٩/ ص٩٠؛ الكشاف، ج٣/ ص٢٠٩؛ الجامع لأحكام القرآن، ج٥/ ص٨٧؛ أنوار التنزيل، ج٤/ ص٩٨؛ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت:٧١٠هـ) تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، ط١ (بيروت/١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ج٢/ ص٤٨٧.

(٥) ينظر: المبسوط، أبو سهل محمد بن أحمد السرخسي الحنفي (ت:٤٨٣هـ) دار المعرفة، د.ط (بيروت/١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ج٩/ ص٣٧؛ أسنى المطالب شرح روض الطالب، أبو يحيى زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري السنيكي الشافعي (ت:٩٢٦هـ) دار الكتاب الإسلامي، د.ط (د.م/ د.ت) ج٤/ ص١٢٨- ١٢٩؛ الفواكه الدواني على رسالة بن أبي زيد القيرواني، شهاب الدين أحمد بن غانم بن سالم بن مهنا النفراوي المالكي (ت:١١٢٦هـ) دار الفكر، د.ط (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ج٢/ ص٢٠٥؛ مطالب أولي النهى شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي الحنبلي (ت:١٢٤٣هـ) المكتب الإسلامي، ط٢ (د.م/ ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ج٦/ ص١٧٥- ١٧٦.

(٦) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٣٥٤.

((خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمِ))[١]. وأيضاً أمر النبي ﷺ برجم ماعز[٢]، والغامدية[٣]، وقالت فرقة: بل القرآن الذي ارتفع لفظه وبقي حكمه، وهو ما قراه عمر رضي الله عنه على المنبر بمحضر الصحابة: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) عندما خطب بهم قائلاً: (إنَّ الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف ...)[٤]، واتفق الجميع على أنَّ لفظه رفع وبقي حكمه[٥].

قال الشنقيطي[٦]: (اعلم أنَّ رجم الزانيين المحصنين دلت عليه آيتان من كتاب الله، إحداهما نسخت تلاوتها، وبقي حكمها – سبق ذكرها–، والثانية: باقية التلاوة والحكم، فأمَّا الآية التي هي باقية التلاوة والحكم، فهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٧]، على القول بأنَّها

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب حد الزنا، رقم الحديث (١٦٩٠) من رواية: عبادة بن الصامت رضي الله عنه، ج٣/ ص١٣١٦.

(٢) هو ماعز بن مالك الأسلمي، الّذي رجم في عهد النبي ﷺ ، ثبت ذكره في الصحيحين وغيرهما، وإن النبيّ ﷺ قال في حقه: لقد تاب توبة، لو تأبها طائفة من أمتي لأجزأت عنهم. ينظر: الإصابة، ج٥/ ص٥٢١.

(٣) هي المرجومة في الزنا، والتي أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، طهرني، فقال لها: ارجعي، ثم أتته من الغد فاعترفت بالزنا، وقالت: والله إني لحبلى، فردها إلى أن تضع الطفل وتفطمه، وجاءت فقالت: يا نبي الله، هذا قد فطمته، وأمر بها فرجمت، فصلى عليها ودفنت. ينظر: أسد الغابة، ج٧/ ص٤٢٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، رقم الحديث (٦٨٣٠) من رواية: بن عباس رضي الله عنه، ج٨/ ص١٦٨؛ صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا، رقم الحديث (١١٠١) من رواية: بن عباس رضي الله عنه، ج٣/ ص١٣١٧.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز لبن عطية، ج٤/ ص١٦١.

(٦) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي، مفسر، ومدرس، من علماء موريتانيا، من أهم مؤلفاته: (أضواء البيان في تفسير القرآن) و (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب) توفي سنة (١٣٩٣هـ). ينظر: الأعلام، ٦ج/ ص٤٥.

(٧) سورة آل عمران: الآية ٢٣.

نزلت في رجم اليهوديين الزانيين بعد الإحصان، وقد رجمهم النبي ﷺ، وقصة رجمه لهما مشهورة، ثابتة في الصحيحين[١]، وعليه فقوله:﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[٢]، أي: عما في التوراة من حكم الرجم، وذم المعرض عن الرجم في هذه الآية يدل على أنَّه ثابت في شرعنا، فدلت الآية على هذا القول أنَّ الرجم ثابت في شرعنا، وهي باقية التلاوة)[٣].

لسائل أن يسأل: كيف يجيء حكم القرآن عن جريمة الزنا نصا في الجلد، ثم لا يجيء فيه نص للرجم؟ ألَّا يكون عكس هذا هو الأولى، فينص القرآن على العقوبة الكبرى وهى الرجم، ثم يجعل الجلد عملا من إعمال هذا النص، فيكون تعزيراً، حيث لا تتوافر الأدلة القاطعة؟[٤].

والجواب على ذلك من نواحي عدة ، منها:

أولاً: إنَّ حمل إطلاق قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖ ﴾، على غير المحصنين، فيه رعاية لمقتضى الحال، الذي يكاد يصرّح بأنَّ الزنا – إن كان– فلا ينبغي أن يكون إلَّا من غير المحصنين، حيث لم يكن لهم ما يتحصنون به من دواعي الشهوة بالزواج، فهم لهذا إذا أقدموا على الزنا كانوا أقل جرماً من المحصنين، الذين من شأنهم أن يتحصنوا ويتعففوا، وهم في حياة الزوجية، فهذه الإشارة بليغة من الشريعة الإسلامية، إلى أنَّ المؤمن ينبغي أن يكون في حصانة من دينه، وفي يقظة دائمة من مراقبة ربه، ولشناعة هذه الجريمة، وعظيم خطرها، فقد نص القرآن على أدنى حد يجب أن يؤخذ به مقترفها، وهو الرجم، كما أنَّ القرآن أمسك بهذا النص غير المحصنين، أما

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: (أنَّ اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أنَّ رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إنَّ فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها ...). صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم، إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام، رقم الحديث (٦٨٤١) من رواية: بن عمر رضي الله عنه، ج٨/ ص١٧٢؛ صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، رقم الحديث (١٦٩٩) من رواية: بن عمر رضي الله عنه، ج٣/ ص١٣٢٦.

(٢) سورة آل عمران: من الآية ٢٣.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ) دار الفكر، د.ط (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ج٥/ ص٣٦٨، ٣٧٢.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٠٥.

المحصنون فأولى بهم ألَّا يكون لهم موقف هنا، وألَّا يذكروا فيمن يذكر في معرض هذا الأمر الشنيع(١).

ثانياً: (إنَّ عمل الرسول ﷺ متمم للشريعة وشارح لها، بحكم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾(٢)، ذلك أنَّ الرسول ﷺ لا يدخل على شريعة الله إلا بما يأمره به الله، كما يقول تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾)(٣)(٤).

ثالثاً: إنَّ وجوب إقامة الحد على الزاني والزانية، لا يكون إلَّا إذا وقعت هذه الجريمة مستوفية لشهادة أربعة من الشهود العدول، بأن يشهدوا بأنَّهم رأوا هذا المنكر بين الرجل والمرأة، رؤية كاشفة كل شيء بين الرجل والمرأة، وطبيعي أنَّ تحقق هذه الشهادة من النادر أن يقع، ولا شك أنَّ غير المحصنين هم أقرب إلى التعرض لمثل هذا الفعل المنكر المفضوح، إذ كانوا تحت وطأة الشهوة وقسوة الحرمان معرضين للاندفاع إلى هذه الجريمة، أما المحصن فإنَّه إذ يقدم على هذه الجريمة لا يكون محكوما بثورة الشهوة، أو قسوة الحرمان إلى هذا الحد الذي يكون عليه غير المحصن، وهنا يتضح لنا حكمة نص القرآن الكريم على حد الجلد، وهو العقوبة المفروضة على غير المحصنين، إذ كان غير المحصنين هم الكثرة الواقعة تحت حكم الزنا، على تلك الصورة المكشوفة المفضوحة، وهم أدنى إلى مواقعة الإثم على صورته تلك، من المحصنين، الذين يكاد الإسلام لا يفترض لهم وجوداً(٥).

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ﴾: (ابتداء كلام وهو كالعنوان والترجمة في التبويب، فلذلك أتي بعده بالفاء المؤذنة بأنَّ ما بعدها في قوة الجواب، وأن ما قبلها في قوة الشرط، فالتقدير: الزانية والزاني مما أنزلت له هذه السورة وفرضت، ولما كان هذا يستدعي استشراف السامع كان الكلام في قوة: إن

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٠٦.

(٢) سورة الحشر: من الآية ٧.

(٣) سورة النجم: الآية ٣- ٤.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٠٦.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ج٩/ ص١٢٠٦- ١٢٠٨.

أردتم حكمهما فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة. وهكذا شأن هذه الفاء كلما جاءت بعد ما هو في صورة المبتدأ فإنما يكون ذلك المبتدأ في معنى ما للسامع رغبة في استعلام حاله)[١].

الجلد يدل على الشدة والقوة[٢]. وجلده حداً بالسوط جلداً، أي: ضربه وأصاب جلده[٣]. (والجلد مأخوذ من وصول الضرب إلى الجلد)[٤].

قال القرطبي: (أجمع العلماء على أنَّ الجلد بالسوط يجب، والسوط الذي يجب أن يجلد به يكون سوطاً بين سوطين، لا شديداً ولا ليناً)[٥]. فأكثر العلماء على أنَّ المراد بالجلد هو الضرب دون الوصول إلى اللحم.

وأمر الله تعالى بعدم الرأفة واللين على مرتكب الفاحشة، وأن لا يترك الحد بسبب الشفقة عليهم. قال ابن عاشور: (عطف على جملة فاجلدوا، فلما كان الجلد موجعاً، وكان المباشر له قد يرق على المجلود من وجعه، نهي المسلمون أن تأخذهم رأفة بالزانية والزاني فيتركوا الحد أو ينقصوه، والأخذ: حقيقته الاستيلاء، وهو هنا مستعار لشدة تأثير الرأفة على المخاطبين، وامتلاكها إرادتهم، بحيث يضعفون عن إقامة الحد، فيكون كقوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[٦]، فهو مستعمل في قوة ملابسة الوصف للموصوف، و(بهما) يجوز أن يتعلق بـ (رأفة) فالباء للمصاحبة؛ لأنَّ معنى الأخذ هنا حدوث الوصف عند مشاهدتهما، ويجوز تعليقه بـ (تأخذكم) فتكون الباء للسببية، أي أخذ الرأفة بسببهما: أي بسبب جلدهما)[٧].

عبر بعدم الرأفة إعلاماً بأنَّه لم ينه عن مطلق الرحمة؛ لأنَّ الرأفة أشد الرحمة أو أرقها، وتكون عن أسباب من المرؤوف به، وكذا قوله: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أنَّ

---

(١) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٤٥.
(٢) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ج٧/ ص٣٢٧.
(٣) ينظر: لسان العرب، ج٣/ ص١٢٥.
(٤) النكت والعيون، ج٤/ ص٧١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص١٦١.
(٦) سورة البقرة: من الآية ٢٠٦.
(٧) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٥٠.

الممنوع منه رحمة تؤدي إلى ترك الحد أو شيء منه أو التهاون به أو الرضى عن منتهكه، لا رقة القلب المطبوع عليها البشر، ولَمَّا علم سبحانه ما طبع عليه عباده من رحمة بعضهم لبعض فحث على هذا الحكم بالأمر والنهي، زاد في التهييج إليه والحض عليه بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أي: بما هو كالجبلة التي لا تنفك ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: الملك الأعظم الذي هو أرحم الراحمين، فما شرع ذلك إلّا رحمة للناس عموماً وللزانيين خصوصاً، فمن نقص سوطاً فقد ادعى أنَّه أرحم منه، ومن زاد سوطاً فقد ظن أنَّه أحكم وأعظم منه، ولَمَّا ذكر بالإيمان الذي من شرطه التزام الأحكام، وكان الرجاء غالباً على الإنسان، أتبعه ما يرهبه، فقال: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الذي يحاسب فيه على النقير والقطمير والخفي والجلي[١].

جاء النهي والشرط في الآية للتهييج، والمعنى: إنَّ الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله تعالى، ويستعملوا الجد والمتانة فيه، ولا يأخذهم اللين في استيفاء حدوده، وكفى برسول الله ﷺ أسوة في ذلك، فقد صحَّ عنه أنَّه قال: ((وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))[٢]، كما يقال: إن كنت رجلاً فافعل كذا، ولا شك في رجوليته، وكذا المخاطبون هنا، مقطوع بإيمانهم، لكن قصد تهييجهم وتحريك حميتهم، ليجدوا في طاعة الله تعالى، ويجتهدوا في إجراء أحكامه على وجهها[٣].

قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اختلف العلماء في المراد بالطائفة التي تشهد حد الجلد، فمنهم من قال: الطائفة رجل فما فوق، ومنهم من قال: ليحضر رجلان فصاعداً، ومنهم من قال: أقلّ ذلك ثلاثة فصاعداً، ومنهم من قال: الطائفة أربعة، ومنهم من قال: الطائفة عشرة[٤].

---

(١) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٣١- ٢٣٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم الحديث (٣٤٧٥) من رواية: أمّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، ج٤/ ص١٧٥؛ صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم الحديث (١٦٨٨) من رواية: أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، ج٣/ ص١٣١٥.

(٣) ينظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي (ت:١٣٧٦هـ) دار الرشيد، مؤسسة الإيمان، ط٤ (دمشق/بيروت/١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ج١٨/ ص٢٢٦.

(٤) ينظر: الدر المنثور، ج٦/ ص١٢٦.

رجح الطبري بأن تكون الطائفة أربعة أشخاص، فقال: (أستحب أن لا يقصر بعدد من يحضر ذلك الموضع عن أربعة أنفس، عدد من تقبل شهادته على الزنا)[1].

قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

سبب نزول الآية أنَّ مرثد ﷺ سأل رسول الله ﷺ نكاح امرأة باغية من أهل مكة، كانت صديقة له، فامسك ﷺ ولم يرد عليه شيئاً، ثم نزلت الآية، ودعاه النبي ﷺ فقرأها عليه، وقال له: لا تنكحها[3].

جاء في سبب نزولها أيضاً، أنَّ المهاجرين قدموا إلى المدينة، وفيها نساء بغايا مسافحات، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين، فقالوا: لو أنا تزوجنا منهن، فعشنا معهن، إلى أن يغنينا الله تعالى عنهن، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك، فنزلت هذه الآية[4].

بعد ذكر حد الزنا، ضُرِبت عُزلة اجتماعية، وحجراً صحياً على هؤلاء الزناة، حتى تضيق دائرة الفحش، وحتى يتردد من ثارت فورته ألف مرة وهو يتدبر كيف سيعيش بعدها في المجتمع إن كشف الله ستره[5]. فقال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ ﴾[6].

---

(١) جامع البيان، ج١٩/ ص٩٥.

(٢) سورة النور: الآية ٣.

(٣) ينظر: سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ﴾ رقم الحديث (٢٠٥١) من رواية: عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ، قال شعيب الارنؤوط: إسناده حسن، ج٣/ ص٣٩٦؛ المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة، خالد بن سليمان المزيني، دار بن الجوزي، ط١ (الدمام/١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ج٢/ ص٧١٥.

(٤) ينظر: أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد بن محمد أبو الحسن الواحدي (ت:٤٦٨هـ) تحقيق: عصام بن عبد المحسن، دار الإصلاح، ط٢ (الدمام/١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص٣٢٥.

(٥) ينظر: أسوار العفاف، ص١٢.

(٦) سورة النور: من الآية ٣.

قال البيضاوي[١]: (الغالب أنَّ المائل إلى الزنا لا يرغب في نكاح الصَوالح، والمسافحة لا يرغب فيها الصُلحاء، فإنَّ المشاكلة علة للألفة والتضام، والمخالفة سبب للنفرة والافتراق، ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ لأنَّه تشبه بالفساق، وتعرض للتهمة، وتسبب لسوء القالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد، ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة)[٢].

اختلف المفسرون في معنى النكاح في هذه الآية، فذهب بعضهم إلى أنَّ المراد به التزوج، على اعتبار أنَّ هذا هو المعنى الغالب على هذه الكلمة، وذهب آخرون إلى أنَّ معنى النكاح هنا هو الوطء والتقاء الرجل بالمرأة، وعلى المعنى الأول، يكون معنى الآية: أنَّ الزاني لا يجوز له أن يتزوج إلا من زانية أو مشركة، وأنَّ الزانية لا يجوز لها أن تتزوج إلَّا من زان أو مشرك، والثابت شرعاً وعملاً أنَّ الزانية والزاني لم يخرجا من الإسلام بجريمتهما، وأنَّ إقامة الحد عليهما تطهير لهما من الرجس الذي وقعا فيه، ولهذا كانت كلمة من جاءوا إلى النبي ﷺ معترفين بذنبهم، هي قولهم: طهرني يا رسول الله[٣][٤].

ونجد المعنى الذي تستقيم عليه الآية هو أن يكون النكاح بمعنى الوطء، والتقاء الرجل بالمرأة، فالزاني فاسد فاسق لا يطأ إلَّا زانية فاسدة مثله، أو مشركة لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((لَا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودُ إِلَّا مِثْلَهُ))[٥][٦].

---

(١) هو أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، القاضي، المفسر، الإمام، العلَّامة، من أهم مؤلفاته: (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) و (طوالع الأنوار) توفي سنة (٦٨٥هـ). ينظر: البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت:٧٧٤هـ) تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن، دار هجر، ط١ (د.م/١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ج١٧/ ص٦٠٦؛ الأعلام، ج٤/ ص١١٠.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (ت:٦٨٥ه) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط١ (بيروت/١٤١٨ه/ ١٩٩٧م) ج٤/ ص٩٩.

(٣) ينظر: صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم الحديث (١٦٩٥) من رواية: سليمان بن بريدة عن أبيه، ج٣ / ص١٣٢١.

(٤) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢١٧.

(٥) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، رقم الحديث (٢٠٥٢) من رواية: أبي هريرة ﷺ، قال شعيب الارنؤوط: إسناده صحيح، ج٣/ ص٣٩٦.

(٦) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢١٧.

كذلك الشأن في الزانية، إنَّها لا تدعو إليها إلَّا فاسداً فاسقاً، يستجيب لها، ويواقع المنكر معها، أو مشركاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فإنَّهم أهل سوء، يجتمع بعضهم إلى بعض، فليس فيهما صالح وفاسد، وإنَّما هما كائنان فاسدان، ينجذب بعضهما إلى بعض، كما ينجذب الذباب إلى القذر والعفن[1].

والمراد من هذه الآية هو تشريع حُرمة زواج الزاني من الزانية، ولم يأتِ هذا التشريع في صدر الآية، وإنَّما جاء في آخرها.

إنَّ مجموع الآية مقصود منه التشريع دون الإخبار؛ لأنَّ الله تعالى قال في آخرها: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ولأنَّها نزلت جواباً عن سؤال مرثد عندما أراد الزواج من زانية مشركة، غير أنَّ صدر الآية ليس هو المقصود بالتشريع، بل هو تمهيد لآخرها مشير إلى تعليل ما شرع في آخرها، وينبني على هذا التأصيل أنَّ قوله: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ تمهيد للحكم المقصود الذي في قوله: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وأنَّه مسوق مساق الإخبار دون التشريع؛ لأنَّ الزاني لا يكون مؤمنا فلا تشرع له أحكام الإسلام[2].

وبعد هذا فإنَّ المتدبر في هاتين الآيتين، يراهما تشددان العقوبة على من يرتكب جريمة الزنا، وتنفران من الاقتراب منها، وممن يقع فيها أعظم تنفير؛ لأنَّ الإسلام حرص على أن ينتشر العفاف والطهر بين أفراد المجتمع الإسلامي، وشرع من وسائل الوقاية ما يحمى الأفراد والجماعات من الوقوع في هذه الرذيلة[3].

وظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: عند قراءة هذه الآية، فإنَّه يقدح في الذهن سؤال، وهو: لِمَّا قُدمت المرأة في آية حد الزنا، فقال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾[4]، وأخرت في آية حد السرقة، فقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾[5]؟ فما هو سر الاختلاف في التعبير القرآني؟

إنَّ لهذا السؤال في كتب التفسير عدة أجوبة، منها:

(١) ينظر: المصدر السابق، ج٩/ ص١٢١٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٥٤.

(٣) ينظر: التفسير الوسيط، ج١٠/ ص٨٤.

(٤) سورة النور: من الآية ٢.

(٥) سورة المائدة: من الآية ٣٨.

١. إنَّ اثر الزنا يظهر على المرأة، وهو منها اعرٌ؛ لأجل الحمل، فتقدمت المرأة في الآية على الرجل؛ لعظم حالها في الفاحشة[١].

٢. قال ابن عطية: (قدمت الزانية في اللفظ من حيث كان في ذلك الزمن زنى النساء أفشى، وكان لأمراء العرب وبغايا الوقت رايات وكن مجاهرات بذلك، وإذا العار بالنساء ألحق إذ موضعهن الحجبة والصيانة، فقدم ذكرهن تغليظاً واهتماماً)[٢].

٣. قال ابن العربي: (إنَّ الشهوة في المرأة أكثر، فصدر بها تغليظا لردع شهوتها، وإن كان قد ركب فيها حياء، ولكنها إذا زنت ذهب الحياء)[٣].

٤. قال القرطبي: (قدمت الزانية في الآية من حيث كان في ذلك الزمان زنى النساء فاش، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات، وكن مجاهرات بذلك)[٤].

٥. قال البيضاوي: (وإنَّما قدم الزانية؛ لأنَّ الزنا في الأغلب يكون بتعرضها للرجل، وعرض نفسها عليه، ولأنَّ مفسدته تتحقق بالإضافة إليها)[٥].

٦. قال ابن عاشور: (قدم ذكر الزانية على الزاني للاهتمام بالحكم؛ لأنَّ المرأة هي الباعث على زنى الرجل، وبمساعفتها الرجل يحصل الزنا، ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنا تمكينا، فتقديم المرأة في الذكر؛ لأنَّه أشد في تحذيرها)[٦].

٧. منهم من قال: بأنَّ المرأة قُدمت على الرجل في حد الزنا: (لكيلا يمتنع احد عن إقامة

(١) ينظر: النكت والعيون، ج٤/ ص٧١؛ غرائب التفسير وعجائب التأويل، أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر برهان الدين الكرماني (ت:٥٠٥هـ) دار القبلة للثقافة الإسلامية، د.ط (جدة/ د.ت) ج١/ ص٣٣١؛ أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٣٣.

(٢) المحرر الوجيز لبن عطية، ج٤/ ص١٦١.

(٣) أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٣٣؛ ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي (ت:٧٣٣هـ) تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، دار الوفاء، ط١ (المنصورة/١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ج١/ ص٢٧٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص١٦٠.

(٥) أنوار التنزيل، ج٤/ ص٩٨.

(٦) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٤٦.

الحد بدعوى ضعفها، والشفقة عليها والرفق بها؛ لأنَّها من القوارير)[١].

٨. منهم من قال: (لأنَّ الزنا إنَّما يتولد من شهوة الوقاع، وهي في المرأة أقوى وأكثر، والسرقة إنَّما تتولد من الجسارة، والقوة، والجرأة، وهي من الرجل أقوى وأكثر)[٢].

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ ﴾[٣]، تغيُر في السياق القرآني، فقدم المولى سبحانه في هذه الآية الرجل، وفي آية حد الزنا قدم المرأة؟

وذلك لأنَّ تلك الآية في الحد، والمرأة هي الأصل فيه – لِمَا مرَّ – وهذه الآية في حكم النكاح والرجل هو الأصل فيه؛ ولأنَّه الراغب والبادر في الطلب، بخلاف الزنا، فإنَّ الأمر فيه بالعكس غالباً[٤].

ثالثاً: إنَّ الألف واللام في قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾[٥]، هي للجنس، ومعنى ذلك أنَّها عامة في جميع الزُناة[٦]. ولكن جاء التعبير القرآني فذكر الذكر والأنثى، ولفظ الزاني كان يكفي دون ذكرهما معا؟

قال ابن العربي: (هذا تأكيد للبيان، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾[٧]، ويحتمل أن يكون ذكرهما هنا؛ لئلا يظن ظان أنَّ الرجل لَمَّا كان هو الواطئ، والمرأة محل، فذكرهما رفعاً لهذا الإشكال)[٨].

---

(١) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٣٨.

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، أبو يحيى زكريا بن محمد بن أحمد السنيكي (ت:٩٢٦هـ) تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، ط١ (بيروت/١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ج١/ ص٣٩٣.

(٣) سورة النور: من الآية ٣.

(٤) ينظر: البحر المحيط، ج٨/ ص٧؛ فتح الرحمن، ج١/ ص٣٩٣.

(٥) سورة النور: من الآية ٢.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز لبن عطية، ج٤/ ص١٦١.

(٧) سورة المائدة: من الآية ٣٨.

(٨) أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٣٣؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص١٦٠.

المولى سبحانه ذكرهما صراحة؛ ليزيل ما قد يحدث عند البعض من خلاف، أيهما السبب في هذه الجريمة، فهناك من يقول: الزاني واطئ وفاعل، والمرأة موطوءة، فالفعل للرجل لا للمرأة، فهو وحده الذي يتحمل هذه التبعة[١].

رابعاً: بدأ سبحانه ببيان حد الزنا، قبل البدء ببيان حد القذف؟

بدأ بحد الزنا؛ لأنَّه هو المشار إليه في أول سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾[٢][٣].

خامساً: قال تعالى ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ والمراد بالجلد الضرب، وقال ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا﴾ أي: وليشهد جلدهما وضربهما، إذن لماذا لم يقل المولى عز وجل (وليشهد جلدهما أو وليشهد ضربهما)؟

ذلك لأنَّ حد الجلد هو عذاب دنيوي له فيما ارتكبه من هذه الفاحشة؛ ولذلك سُميَ الجلد عذابا. قال أبو حيان: (سمى الجلد عذابا؛ إذ فيه إيلام وافتضاح، وهو عقوبة على ذلك الفعل)[٤]. فيجوز أن يسمى الجلد عذابا؛ لأنَّه يمنع من المعاودة، وتسميته بذلك دليل على أنَّه عقوبة[٥].

لقد ورد ذكر العذاب الدنيوي للزاني وهو الحد، فأين التخويف بعذاب الآخرة، (قد جاء هذا كثيراً في ثنايا السورة، لكن الفاحشة إذا فارت في القلوب طغت على نور العقل، فقلما يردعها تذكر الآخرة إلَّا عند عباد الله مخلصين، بينما بأس الدنيا من الجلد والفضيحة وخوف نبذ المجتمع ينزع الله به ما لا ينزع بالقرآن)[٦].

---

(١) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠١٩٤.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٧.

(٣) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٣١.

(٤) البحر المحيط، ج٨/ ص٩.

(٥) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي، ط٣ (بيروت/١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ج٣/ ص٢١٠.

(٦) أسوار العفاف، ص١٤.

المبحث الثالث

حد القذف واللعان وحكمهما، ويشمل الآيات (٤- ١٠)

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾[١].

توطئة:

بعد أن بين سبحانه حد الزانية والزاني، ووضح سبحانه عقوبة كُلٍ منهما، انتقل السياق القرآني إلى بيان حد القذف واللعان وحكمهما. فلقد اعتبر الإسلام قذف المحصنات من كبائر الذنوب الموجبة لغضب الله وسخطه؛ لأنَّ فيه تعدياً على حُرمة أفراد المجتمع، وعلى هذا فقد أوعد من قام بهذا الفعل الشنيع بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة[٢]. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٣]. واعتبر النبي ﷺ قذف المحصنات من الكبائر المهلكات، فقال: ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ))[٤].

---

(١) سورة النور: الآية ٤- ١٠.

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، ج٥/ ص١٨١.

(٣) سورة النور: الآية ٢٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، رقم الحديث (٦٨٥٧) من رواية: أبي هريرة ﷺ، ج٨/ ص١٧٥؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم الحديث (١٤٥) من رواية: أبي هريرة ﷺ، ج١/ ص٩٢.

إنَّ هذا صيانة للمجتمع وحمايته من طعن الفاسدين، والقرآن الكريم قرر صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية، والتي هي: النفس، والدين، والعرض، والمال، والعقل, ورتب عليها العقوبات المنصوصة في كتابه العزيز، التي تعرف في الفقه الإسلامي بالجنايات والحدود[١].

قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٥].

ثم إنَّ لسان الإنسان هو أوسع الأبواب التي يدخلُ صحابه إلى النار، والإسلام يعتبر الكلمة من اخطر أنواع المسؤوليات التي يتحمل الإنسان تبعاتها في الدنيا والآخرة، والقذف نوع من الكلام الخطير، الذي يتسبب في أذى الناس في أعراضهم[٦]. فقد سأل معاذ بن جبل ﵁[٧]، رسول الله ﷺ سؤالا، فقال: يا رسول الله أنؤاخذ بكل ما نتكلم به؟ فقال ﷺ: ((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))[٨].

(١) ينظر: مباحث في علوم القرآن، ص٢٨٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(٣) سورة النور: من الآية ٢.

(٤) سورة النور: من الآية ٤.

(٥) سورة المائدة: من الآية ٣٨.

(٦) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، ج٥/ ص١٨٢- ١٨٣.

(٧) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الخزرجي، صحابي جليل، اسلم وعمره ثماني عشرة سنة، وشهد المشاهد كلها، وهو ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ، توفي سنة (١٨هـ). ينظر: أسد الغابة، ج٥/ ص١٨٧؛ الإصابة، ج٦/ ص١٠٧.

(٨) سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم الحديث (٢٦١٦) من رواية: معاذ بن جبل ﵁، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، ج٥/ ص١٢.

ما أكثر ما نرى في أوساط مجتمعنا من يستسهل قذف المحصنات الشريفات، ويطعن فيهن، من غير تقصي وبحث عن حقيقة الأمر، ويقذفهم دون أن تأخذه لومة لائم، ويتخذ من ذلك وسيلة يتذرع بها للانتقام من الزوج أو الزوجة، أو من الأسرة جمعاء، ومن المؤسف أنَّ أمثال هؤلاء يفلتون من ربقة القانون، ولا يطالهم أي عقاب، ولكن سيلحقهم عقاب الله ولعنته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1][2].

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيات الكريمة.



(١) سورة النور، الآية: ٢٣.

(٢) ينظر: الجدول في إعراب القرآن، ج١٨/ ص٢٣١.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

بعد التأمل والتفكر فيما سبق من أقوال العلماء، في تفسير آيات هذا الموضوع، تبين أنَّ هذا الموضوع متناسق موضوعياً مع الموضوع السابق؛ وذلك لأنَّه لما نفر سبحانه وتعالى عن نكاح من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة، وبدأ بتنفير الإناث، بما يوهم جواز إطلاق الزنا عليهن بمجرد نكاح من علم زناه، عطف على ذلك تحريم القذف بما يوجب تعظيم الرغبة في الستر، وصيانة الأعراض، وإخفاء الفواحش[١]، حفاظاً للمجتمع من الفساد، وستراً للمؤمنين من أن يتكلم في أعراضهم من له غاية خبيثة، يرمي بها إلى تمزيق الأسرة المسلمة الآمنة.

إنَّ الغض عن مساوئ الناس من أفضل القرب، وهو من شيم ذوي الألباب، وبه السلامة من الهلاك، والتعرض لمساوئهم من أعظم الذنوب، وأقبح العيوب، ولله در القائل[٢]:

إذَا رُمْتَ أَن تَحْيَا سَلِيْمَاً مِنَ الرَّدَى[٣] وَدِينُكَ مَوفُورٌ وعِرْضُكَ صَيّنُ
فَلَا يَنْطقن مِنْكَ اللِسَانُ بِسوأَةٍ فَكلّكَ سَوءَاتٌ وللنَّاس أَلسُنُ
وَعَيتَاكَ إن أبدَت إليكَ مَعَائِباً فَدَعْهَا، وَقُل يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أعيُنُ
وعَاشِرْ بمَعْرُوفٍ وسَامِح مَنِ اعتَدَى وَدَافِع وَلَكِنْ بالتي هي أَحْسَنُ.

والمتوجه إلى الله سبحانه وتعالى لا يشتغل بغير مولاه خالقه، ولا يرى في المملكة سواه، يذكر الله في جميع الأشياء، فتنقلب نوراً لحسن ظنه بالله، ويلتمس المعاذر لعباد الله لكمال حسن ظنه بهم[٤].

إنَّ الله سبحانه وتعالى تكلم أولاً عن الزنا والزُناة، ثم شرع في بيان حكم من نَسَبَ الزنا إلى غيره، بعد بيان حكم من فعله[٥].

---

(١) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٣٦.

(٢) ديوان الإمام الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ) تحقيق: محمد عفيف الزعبي، دار العلوم الحديثة، مكتبة الشرق الجديد، ط٤ (بيروت/بغداد/ د.ت) ص٨٤.

(٣) الردى: بمعنى الهلاك. ينظر: لسان العرب، ج١٤/ ص٣١٦.

(٤) ينظر: البحر المديد، ج٤/ ص١٣.

(٥) ينظر: روح المعاني، ج٩/ ص٢٨٦.

قال ابن عاشور: (كان فاشياً في الجاهلية رمي بعضهم بعضا بالزنا إذا رأوا بين النساء والرجال تعارفاً أو محادثة، وكان فاشياً فيهم الطعن في الأنساب بهتاناً إذا رأوا قلة شبه بين الأب والابن، فكان مما يقترن بحكم حد الزنا أن يذيل بحكم الذين يرمون المحصنات بالزنا، إذا كانوا غير أزواجهن وهو حد القذف)[١].

بعد أن بينت آيات الموضوع السابق حكم الزانية والزاني، وما يجرى عليهما من عقاب، وما يكون لهما من مكان في المجتمع الإسلامي، جاءت آيات هذا الموضوع لتبين شناعة هذه الجريمة، والخطر العظيم الذي ينجم عنها، حتى ليكاد يصيب كل من يقترب منها، فضلاً عن أن يكون طرفاً من أطرافها، فآيات هذا الموضوع تدعو الشهود الذين يشهدون على واقعة الزنا إلى التثبت، والتحقق مما يشهدون عليه، وألَّا يعجلوا بالشهادة قبل التثبت والتحقق، وألَّا يتلقوا ما يشهدون به من أفواه الشائعات والأقاويل؛ وذلك لأنَّ هذه الشهادة إذا تمت، كان من شأنها أن تهدر دم إنسان بالرجم، إن كان محصناً، أو تحطم إنسانيته وتذهب بكرامته بالجلد، إن كان غير محصن، فآثار هذه الشهادة في كِلا الحالين، قضاء على إنسانية إنسانين، وفضحهما وفضح من يتصل بهما من أهل وولد[٢].

فما من تناسق أبدع من هذا التناسق الموضوعي، وهنا يكمن الإعجاز التشريعي للقرآن الكريم، وذلك بارتباط آيات وموضوعات السورة الوحدة.

قال مناع القطان[٣]: (إنَّ القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال، وسيظل إعجازه التشريعي قريناً لإعجازه العلمي وإعجازه اللغوي إلى الأبد)[٤].

(١) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٥٨.

(٢) ينظر: التفسير ألقراني للقرآن، ج٩/ ص١٢٢٠.

(٣) هو أبو محمد مناع بن خليل القطان المصري، كان عضواً في قسم الدعوة والإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين بمصر، من أهم مؤلفاته: (مباحث في علوم القرآن) و (تفسير آيات الأحكام) توفي سنة (١٤٢٠هـ). ينظر: موقع الشبكة الدعوية www.daawa-info.net/bio.php?id=92

(٤) مباحث في علوم القرآن، ج١/ ص٢٨٩.

المطلب الثاني

تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[(١)].

وتعاملت سورة النور مع الوالغين في الأعراض بألسنتهم، بنداء إيماني، وصرامة شديدة، في الوصف والجزاء والشرط، حتى أنَّه يُتَخايل للقارئ أنَّ تهديدها للألسنة الوالغة اشدُّ مما هددت به الفروج الزاني، فالفرج جريمته مع بشاعتها هي واحدة، فإذا تناقلتها الألسنة، صارت ثقافة شائعة، فانتُهكت آلاف الفروج المحرمة[(٢)].

من البديهي أنَّه ليس للإشاعات نمط واحد لا تتجاوزه، بل يدخل فيها شائعات الفيسبوك، ومواقع اليوتيوب، ومنتديات الانترنيت، ورسائل الجوال، عن فلانة وفلان، حتى أنَّ بعض ضعفاء النفوس نجده إذا اختلف مع شخص في عقيدة أو فكر أو منهج أو غير ذلك، فإنَّه يستبيح ممن خالفه كل عرض، ويظن أنَّ هذه المخالفة تسوغ له بهتانه، بل أحياناً يحتسب الأجر عند الله لأنَّه يزعم بأنَّ مخالفه عدو لله تعالى، وأمثال هؤلاء الكذابين تجده أيضاً يثير الظنون الفاسدة بين الناس، ويقول: رأيت زوجته تكلم فلاناً، وفلانة تركب مع رجل غريب، وتراه يحدث بكل ما سمع، ويزعم أنَّه لم يتهم وإنَّما هو ناقل، فيقال لأمثال هذه النفوس الضعيفة، لقد قال رسول الله ﷺ: ((إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا))[(٣)]. والأوصاف التي اختارها لهم الله سبحانه هي: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[(٤)]، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾[(٥)]، وصيغة الحصر في الآيتين

(١) سورة النور: الآية ٤– ٥.

(٢) ينظر: أسوار العفاف، ص١٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم الحديث (٦٠٦٤) من رواية: أبي هريرة ﷺ، ج٨/ ص١٩؛ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها، رقم الحديث (٢٥٦٣) من رواية: أبي هريرة ﷺ، ج٤/ ص١٩٨٥.

(٤) سورة النور: من الآية ٤.

(٥) سورة النور: من الآية ١٣.

للمبالغة[١]؛ وذلك لشناعة فسقهم بسبب ما جاءوا به من الأمر العظيم، حتى كأنَّ ما عداه من الفسوق لا يعد فسقاً[٢].

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: والذين يشتمون العفائف من حرائر المسلمين، فيرمونهنّ بالزنا، ثم لم يأتوا على ما رمَوْهن به من ذلك بأربعة شهداء عدول، يشهدون عليهنّ أنَّهن رأوهن يفعلن ذلك، فاجلدوا الذين رموهن بذلك ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا، وأولئك هم الذين خالفوا أمر الله وخرجوا من طاعته ففسقوا عنها)[٣].

الرمي هو الاتهام، والأصل فيه أن يكون اتهام بالزنا، ويمكن أن يكون بغيره، مثل الكفر، أو السرقة، أو شرب الخمر وأمثال ذلك، ويجمع العلماء على أنَّ المقصود بالرمي في الآية هو الزنا، لِمَا في الآية من البراهين الدالة على ذلك، من الإحصان والشهداء الأربعة، والجلد[٤].

ومن رمى النساء أو الرجال العفائف بالزنا فإنَّ هذا الفعل يسمى قذفاً. فقد جاء في تفسير الجواهر الحسان أنَّ القاذف: (هو من يرمي محصناً أو محصنة بالزنا، ولم يأت بأربعة شهداء يشهدون على صدق قوله)[٥].

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ﴾ يريد يسبون، واستعير له اسم الرمي لأنَّه أذاية بالقول)[٦]، كما قال الشاعر[٧]:

وَلَو عَن نَثا غَيرَهُ جاءِني وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ.

(١) ينظر: أسوار العفاف، ص١٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٥٩.

(٣) جامع البيان، ج١٩/ ص١٠٢.

(٤) ينظر، قبسات من سورة النور، ص١٢٠.

(٥) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت:٨٧٥هـ) تحقيق: محمد علي، وعادل أحمد، دار إحياء التراث العربي، ط١ (بيروت/ ١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ج٤/ ص١٧١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص١٧٢.

(٧) ديوان امرؤ القيس، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (ت:٥٦٥م) ضبطه وصححه: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط٥ (بيروت/١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ص٥.

الشاهد فيه: قوله (جرح اللسان كجرح اليد) فهو يصف الكلام بأن منه ما يؤثر في النفس كما يؤثر السلاح في الجسم[1].

وقال آخر[2]:

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئًا وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي [3].

الشاهد فيه: قوله (رماني بأمر) يريد أن يقول إنَّه رُمي بأمر قبيح وهو منه بريء[4].

القذف والرمي معنى واحد، وإنَّما عبر عن القذف بالرمي، من حيث معتاد الرمي أنَّه مؤذ كالرمي بالحجر والسهم، فلما كان قول القاذف مؤذياً، جُعِل رمياً[5]. وسمي الرمي قذفاً؛ لأنَّ الرمي مجاز[6]، عن الشتم[7].

المراد من الرمي في الآية هو الرمي بالزنا. قال الالوسي: (المراد: الرمي بالزنا، كما يدل عليه إيراد ذلك عقيب الزواني، مع جعل المفعول المحصنات الدال على النزاهة عن الزنا، وهذا كالصريح في ذلك، وربما يُدَّعَى أنَّ اشتراط أربعة من الشهود يشهدون بتحقق ما رمي به، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾[8] قرينة على المراد، بناء على العلم بأنَّه لا شيء يتوقف ثبوته بالشهادة على شهادة أربعة إلاَّ الزنا)[9].

ويذكر الرازي أربعة أدلة على أنَّ المراد من الرمي في الآية هو الزنا، إذ قال: (**أحدها**: تقدم ذكر الزنا، **وثانيها**: أنَّه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف، فدل ذلك

(١) ينظر: ديوان امرؤ القيس، ص٥٣.

(٢) شعر عمرو بن احمر الباهلي، عمرو بن احمر بن فرّاص أبو الخطاب الباهلي (بعد:٧٥هـ) تحقيق: الدكتور حسين عطوان، مجمع اللغة العربية، د.ط (دمشق/د.ت) ص١٨٧.

(٣) الطوي: هو البئر. ينظر: المصدر السابق، ص١٨٧.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص١٨٧.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز لبن عطية، ج٤/ ص١٦٤.

(٦) المجاز: (هو اسم لِمَا أريد به غير ما وضع له؛ لمناسبة بينهما). التعريفات، ج١/ ص٢٠٢.

(٧) ينظر: أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٤٠؛ روح المعاني، ج٩/ ص٢٨٦.

(٨) سورة النور: من الآية ٤.

(٩) روح المعاني، ج٩/ ص٢٨٦- ٢٨٧.

على أنَّ المراد بالرمي رميهن بضد العفاف، **وثالثها**: قوله ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾[١]، يعني: على صحة ما رموهن به، ومعلوم أنَّ هذا العدد من الشهود غير مشروط إلا في الزنا، **ورابعها**: انعقاد الإجماع أنَّه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمي بالزنا)[٢].

هذا ما يسمى بحد القذف، قال الشعراوي، أي: (أن ترمي حرة بالزنا وتتهمها به، ففي هذه الحالة عليك أن تأتي بأربعة شهداء يشهدون على ما رميتها به، فإن لم تفعل يقام عليك أنت حد القذف ثمانين جلدة، ثم لا ينتهي الأمر عند الجلد، إنَّما تقبل منك شهادة بعد ذلك أبداً)[٣].

وجاء السياق القرآني في هذه الآية لبيان أحكام قذف المحصنات الأجنبيات، وبيان عقاب من اتهمهن بالزنا.

المحصنات جمع محصنة من الإحصان، وهو الحفظ، ومنه كلمة الحصن، وهو الشيء المنيع الذي يحمي من بداخله، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[٤]، يعني: الدروع التي تحمي الإنسان وتحفظه في الحرب، والمحصنات: تطلق على المتزوجة؛ لأنَّها حصنت نفسها بالزواج أن تميل إلى الفاحشة، وتطلق أيضا على الحرة؛ لأنَّهم في الماضي كانت الإماء هن اللائي يدعين لمسألة البغاء، إنَّما لا تقدم عليها الحرائر أبداً[٥].

إنَّ حد القذف يُطبَّق على كل من رمى غيره بالزنا، سواء كان امرأة أو رجل، ولكن خصَّت الآية بذكر النساء دون الرجال في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾؛ وذلك لشدة الأذى الذي يصيبهن وأهلهن وأقاربهن.

---

(١) سورة النور: من الآية ٤.

(٢) مفاتيح الغيب، ج٣/ ص٣٢٠.

(٣) تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٠٤.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٨٠.

(٥) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٠٣.

قال أبو حيان: (والمحصنات: الظاهر أنَّ المراد النساء العفائف، وخصَّ النساء بذلك وإن كان الرجال يشركونهن في الحكم؛ لأنَّ القذف فيهن أشنع وأنكر للنفوس، ومن حيث هن هوى الرجال، ففيه إيذاء لهن ولأزواجهن وقراباتهن)[١].

تخصيص الآية الكريمة المحصنات بالذكر دون الرجال هو لخصوص الواقعة، أو لأنَّ قذف النساء أغلب وأشنع[٢]. وأيضاً فإنَّ هذا التخصيص فيه تنبيه على عظيم حق أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"[٣].

لقد اختلف العلماء في حد القذف، فمنهم من قال: هو من حقوق الله تعالى، ومنهم من قال: هو من حقوق الآدميين، ومنهم من قال: إنَّ فيه شائبة منهما، وفائدة الخلاف: هي أنَّه إن كان حقاً له تعالى وبلغ الإمام أقامه وإن لم يطلب ذلك المقذوف، ونفعت القاذف التوبة فيما بينه وبين الله تعالى، وإن كان حقاً للآدمي فلا يقيمه الإمام إلَّا بمطالبة المقذوف، ويسقط بعفوه، ولم تنفع القاذف التوبة حتى يحلله المقذوف[٤].

وعلى القاذف إذا قذف أن يأتي بأربعة شهداء، يشهدون بالمعاينة البليغة حالة وقوع الزنا، وإلَّا فإنَّ الحد يقع على القاذف، وذلك بالجلد ثمانين جلدة، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً ﴾[٥].

لقد شدد سبحانه وتعالى على القاذف، حيث شرط فيها بأن يأتي القاذف بأربعة شهداء، وذلك رحمة بعباده، وستراً لهم[٦].

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ وذلك لأنَّه لم يعد أهلاً للشهادة؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قد وصفه بالفاسق، والفاسق لا شهادة له، وهكذا جمع الشارع الحكيم على القاذف حد الجلد، ثم أسقط اعتباره من المجتمع بسقوط شهادته، ثم وصفه بعد ذلك بالفسق، فهو في مجتمعه ساقط الاعتبار والكرامة، هذا كله ليزجر كل من

---

(١) البحر المحيط، ج٨/ ص١٢.
(٢) ينظر: أنوار التنزيل، ج٤/ ص٩٩.
(٣) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٣٦.
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص١٧٧.
(٥) سورة النور: من الآية ٤.
(٦) ينظر: البحر المحيط، ج٨/ ص١٣.

تسول له نفسه الخوض في أعراض الحرائر، واتهام النساء الطاهرات، لذلك عبر عن القذف بالرمي؛ لأنَّه غالباً ما يكون عن عجلة وعدم بينة، فالحق تبارك وتعالى يريد أن يحفظ مجتمع الإيمان من أن تشيع فيه الفاحشة، أو مجرد ذكرها والحديث عنها[1]. قال الشاعر[2]:

**لَا تَقْذِفَنَّ المُحصِنَاتِ وَلَا تَقُلْ		مَا لَيسَ تَعلَمُهُ مِنَ البُهتَانِ.**

الشاهد فيه: قوله (لا تقذفن المحصنات) فهو ينهى عن رمي المحصنة بالزنا، كما ينهى عن عدم نشر الإشاعات الكاذبة التي تمس أعراض وانساب الناس.

قال الالوسي: (قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ كلام مستأنف مبين لسوء حالهم في حكم الله عز وجل، وما في اسم الإشارة من معنى البعد، للإيذان ببعد منزلتهم في الشر والفساد، أي: أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة والتجاوز عن الحدود الكاملون فيه، كأنَّهم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم لا غيرهم من الفسقة)[3].

إنَّ مشروعية التوبة مِنة وتكرم من الحق – تبارك وتعالى – فحين يشرع الله تعالى التوبة، إنما يحمي المجتمع من الفاقدين الذين باعوا أنفسهم، وفقدوا الأمل في النجاة، فمشروعية التوبة كرم، وقبولها كرم آخر، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4]، أي: شرع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل منهم.

---

(١) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٠٤، ١٠٢٠٥.

(٢) نونية القحطاني، أبو محمد عبد الله بن محمد الاندلسي (ت: ٣٨٧هـ) تعليق: محمد بن احمد سيد احمد، مكتبة السوادي، ط٣ (جدة/١٤١٠هـ/١٩٨٩م) ص٤٥.

(٣) روح المعاني، ج٩/ ص٢٩٤.

(٤) سورة التوبة: من الآية ١١٨.

قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ تدل على أنَّ من وقعت منه سيئة، عليه أن يتبعها بحسنة، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: ((وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا))[1][2].

واختلف العلماء في معنى الاستثناء في الآية: أهو استثناء من عدم قبول الشهادة؟ أم هو استثناء من الفسق؟

ورجح الطبري أن يكون الاستثناء من المعنيين جميعاً، أي: من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ ومن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[3].

اختلف أيضاً أهل العلم في صفة توبة القاذف التي تقبل معها شهادته، فقال بعضهم: هو إكذابه نفسه فيه، وقال آخرون: توبته من ذلك صلاح حاله، وندمه على ما فرط منه من ذلك، والاستغفار منه، وتركه العود في مثل ذلك من الجرم.

والإسلام قد جعل عقوبة القاذف جلد ثمانين جلدة، وإسقاط شهادته، ووصفه بالفسق، وتعدد هذه العقوبات على القاذف دليل على عظم جرمه، وخطورة فعلته، فكم من أعراض جرحت، ونفوس حُطمت بسبب تهمة نكراء رمي بها برئ، وكم من فتاة عفيفة شريفة قتلت بسبب كلمة خبيثة رماها بها فاسق جبان، خاصة في هذا الزمان الذي عطّلت فيه أحكام الشريعة، مما شجع البعض على الولوغ في أعراض الناس، دون خوف من عقوبة حاكم في الدنيا، أو عذاب في الآخرة[4].

والتشديد في العقوبة إنَّما هو دعوة للمؤمنين، ألَّا يذيعوا الفاحشة في المؤمنين، وألَّا يتعجلوا الفضيحة للمسلمين، وأن يستروا عليهم ما كان للستر موضع، وليس معنى هذا ألَّا ينكر الناس المنكر، وألَّا يسوقوا أهله إلى موقع العقاب، وإنَّما هو الحذر والحيطة، وعدم الطير فرحاً، إذا اطلع المسلم على سوءِ من مسلم، وأنَّه إذا تيقن وتبينت له الرؤية لهذا المنكر، وأراد الكشف عن هذا السوء فليكن في حذر، وفي مهل، وفي رفق، بل في أسى

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت:٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط١ (بيروت/١٤٢١هـ/٢٠٠١م). مسند الإمام احمد، مسند الأنصار، رقم الحديث (٢١٣٥٤) من رواية: أبو ذر الغفاري ﷺ، قال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن لغيره، ج٣٥/ ص٢٨٤.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٠٥، ١٠٢٠٦.

(٣) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص١٠٧.

(٤) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، ج٥/ ص١٨٢.

على هذا الذي غرق في الإثم، ووقع بين أنياب الفتنة(١).

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(٢).

وصحَّ عن عبدالله بن مسعود ﷺ في سبب نزول هذه الآيات، أنَّه قال: (إنَّا ليلة الجمعة في المسجد إذ جاء رجل من الأنصار، فقال: لو أنَّ رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، فتكلم، جلدتموه، أو قتل، قتلتموه، وإن سكت سكت على غيظ، والله لأسألن عنه رسول الله ﷺ، فلما كان من الغد أتى رسول الله ﷺ، فسأله فقال: لو أنَّ رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم، جلدتموه، أو قتل، قتلتموه، أو سكت، سكت على غيظ، فقال: اللهم افتح وجعل يدعو، فنزلت آية اللعان: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ﴾(٣)، هذه الآيات، فابتلي به ذلك الرجل من بين الناس، فجاء هو وامرأته إلى رسول الله ﷺ فتلاعنا فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنَّه لمن الصادقين، ثم لعن الخامسة أنَّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فذهبت لتلعن، فقال لها رسول الله ﷺ: مه، فأبت، فلعنت، فلما أدبرا، قال: ((لعلها أن تجيء به أسود جعداً)) فجاءت به أسود جعداً)(٤).

قال ابن عاشور: (هذا تخصيص للعمومين الذين في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ فإن من المحصنات من هن أزواج لمن يرميهن، فخص هؤلاء الذين يرمون أزواجهم من حكم قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾، إذ عذر الأزواج خاصة في إقدامهم على القول في أزواجهم بالزنا، إذا لم يستطيعوا إثباته بأربعة شهداء، ووجه عذرهم

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٢١.

(٢) سورة النور: الآية ٦- ٩.

(٣) سورة النور: من الآية ٦.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وغيرها بوضع الحمل، رقم الحديث (١٤٩٥) من رواية: عبدالله بن مسعود ﷺ، ج٢/ ص١١٣٣؛ أسباب النزول، ص٣٢٨؛ المحرر في أسباب نزول القرآن، ج٢/ ص٧٢١- ٧٢٢.

في ذلك، ما في نفوس الناس من سجية الغيرة على أزواجهم، وعدم احتمال رؤية الزنا بهن، فدفع عنهم حد القذف بما شرع لهم من الملاعنة)[١].

وقد فَرَّج الله تعالى بهذه الآيات عن الأزواج، وأوجد لهم المخرج إذا قذف أحدهم زوجته، وتعسّر عليه إقامة البينة[٢]. وهذه الآية تحدثت عن الملاعنة بين الزوجين حتى أنَّها سميت آية اللعان.

واللعان هو فرع من القذف، يفيد تخصيص الحكم الشرعي في القذف بين الزوجين، فاللعان نسخ لحكم القذف الذي كان معمولاً به قبل نزول هذه الآية[٣].

قال الزمخشري: (قاذف امرأته إذا كان مسلماً حراً بالغاً عاقلاً، غير محدود في القذف، والمرأة بهذه الصفة مع العفة صحَّ اللعان بينهما، إذا قذفها بصريح الزنا، وهو أن يقول لها: يا زانية، أو: زنيت، أو رأيتك تزنين)[٤].

ونجد أنَّ الله تعالى قد شرع حكم اللعان في الزوجات دون الأجنبيات؛ وذلك لأنَّ قذف الزوجة يلحق العار بالزوج، ويخلط بين الأنساب، فإقدام الزوج على القذف بالرغم من أضراره الخطيرة دليل على صدقه في قذف زوجته.

قال الرازي: (وإنَّما اعتبر الشرع اللعان في هذه الصورة دون الأجنبيات لوجهين: **الأول:** إنَّه لا معرة عليه في زنا الأجنبية والأولى له ستره، أمَّا إذا زُنِي بزوجته فيلحقه العار والنسب الفاسد، فلا يمكنه الصبر عليه وتوقيفه على البينة كالمعتذّر، فلا جرم خص الشرع هذه الصورة باللعان، **الثاني:** إنَّ الغالب في المتعارف من أحوال الرجل مع امرأته أنَّه لا يقصدها بالقذف إلا عن حقيقة، فإذا رماها فنفس الرمي يشهد بكونه صادقاً إلاَّ أنَّ شهادة الحال ليست بكاملة فضم إليها ما يقويها من الأيمان، كشهادة المرأة لما ضعفت قويت بزيادة العدد والشاهد الواحد يتقوى باليمين على قول كثير من الفقهاء)[٥].

---

(١) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٦١.

(٢) ينظر: التفسير المنير، ج١٨/ ص١٥٦.

(٣) ينظر: قبسات من سورة النور، ص١٢٨.

(٤) الكشاف، ج٣/ ص٢١٥.

(٥) مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٣٣٢.

والمراد من قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ أي: يقذفون زوجاتهم بالزنا، ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ ﴾ أي: لم يكن لهم شهداء على تصديق قولهم الذي جاؤوا به، ﴿ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ جُعِلوا من جملة الشهداء؛ إيذاناً بعدم قبول قولهم بالمرة، ﴿ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ ﴾ أي: فالواجب شهادة أحدهم، ﴿ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ يقول: أشهد بالله إني لمن الصَّادقين فيما رميتها به من الزنا، ﴿ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ أي: إنَّه لعنة الله عليه، أي: يقول فيها: لعنة الله عليَّ إن كنتُ من الكاذبين فيما رميتها به، فإذا حلف درأ عنه العذاب، أي: دفع عنه الحد، وإن نكل حُدَّ لقذفها(١).

المراد من يدرأ في قوله تعالى: ﴿ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ أي: يدفع عنها العذاب، فإذا شهدت أربع شهادات أنَّها لم تفعل الزنا، فبشهاداتها الأربع يُدفع عنها العذاب(٢).

واختلف أهل العلم في العذاب المذكور في هذه الآية، أهو الحد أم الحبس؟ فمنهم من قال: إنَّ المراد من العذاب هو الحدّ، أي: الجلد مئة إن كانت بكراً، أو الرجم إن كانت ثيباً قد أحصنت، ومنهم من قال: بل المراد من العذاب هو الحبس، وقالوا: الذي يجب عليها إن هي لم تشهد الشهادات الأربع بعد شهادات الزوج الأربع، والتعانه: الحبس دون الحد(٣).

قال الشنقيطي: (الدليل على أنَّ المراد بالعذاب في قوله: ﴿ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ ﴾ هو الحد، عدة أوجه، منها: **أولاً**: سياق الآية، فهو يدل على أنَّ العذاب الذي تدرؤه عنها شهاداتها هو الحد. **ثانياً**: إنَّه أطلق اسم العذاب في مواضع أخر، على الحد مع دلالة السياق فيها على أنَّ المراد بالعذاب فيها الحد، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(٤)، فقوله: وليشهد عذابهما، أي: أحدهما بلا نزاع،

(١) ينظر: البحر المديد، ج٤/ ص١٣.

(٢) ينظر: أضواء البيان، ج٥/ ص٤٦٤.

(٣) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص١١٤.

(٤) سورة النور: الآية ٢.

وذلك كقوله تعالى في الإماء: ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾[1]، أي: نصف ما على الحرائر من الجلد)[2].

إنَّ هذا التشريع فضل وتَكرُم من الله تعالى على عباده؛ لأنَّه أنهى هذه المسألة على خير ما تنتهي عليه، لذلك يقول الله تعالى بعدها: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾[3][4].

و (لولا) حرف امتناع لوجود، أي امتنع وقوع الجزاء لوجود الشرط والجزاء؛ لبيان أنَّه أمر عظيم، ولا تتصورون نتائج الأفعال التي تفعلونها، ولو كان القرآن الكريم يساير أهواءكم لكان الويل والثبور، وعظائم الأمور، فلكنتم تتقاتلون على الأعراض، ولقطعتم الأرحام، ولضاعت مصالح الإنسان، ولشاعت الفاحشة في الدين، فجواب الشرط محذوف لسعة عمومه، وكثرة آثامه إذا لم يتداركهم بفضله في أحكامه الرادعة، وأحكامه التي تجمع ولا تفرق، وفضل الله تعالى ظاهر في أحكامه في الزنا وفي القذف، وفي جمع شمل الأسرة في اللعان[5].

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾[6]، في الآية التفات[7]، إلى خطاب الرامين والمرميات بطريق التغليب؛ لتوفية مقام الامتنان حقه، وجواب لولا محذوف لتهويله، حتى كأنَّه لا توجد عبارة تحيط ببيانه، وهذا الحذف شائع في كلام العرب؛ لأنَّ حذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره [8].

(١) سورة النساء: من الآية ٢٥.

(٢) أضواء البيان، ج٥/ ص٤٦٤.

(٣) سورة النور: الآية ١٠.

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٠٩.

(٥) ينظر: زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٥٢.

(٦) سورة النور: الآية ١٠.

(٧) الالتفات: (هو العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو التكلم، أو على العكس). التعريفات، ص٣٥؛ ينظر: معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، ط١ (القاهرة/١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م) ص٩٥.

(٨) ينظر: روح المعاني، ج٩/ ص٣٠٨.

قال جرير[١][٢]:

كَذَبَ العَوَاذِلُ لَو رَأينَ مُنَاخَنَا بحَزِيزِ رَامَةَ وَالمَطِيُّ سَوَامِ.

الشاهد فيه: قوله (لو رأين) فقد حذف جواب لو، فلم يقل: لرأين ما يشجيهن ويسخن أعينهن[٣].

قال البقاعي: (ولمّا حرم الله سبحانه بهذه الجمل الأعراض والأنساب، فصان بذلك الدماء والأموال، عُلِمَ أنَّ التقدير: فلولا أنه سبحانه خير الغافرين وخير الراحمين، لما فعل بكم ذلك، ولفضح المذنبين، وأظهر سرائر المستخفين، ففسد النظام، وأطبقتم على التهاون بالأحكام، فعطف على هذا الذي عُلِمَ تقديره قوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ أي: بما له من الكرم والجمال، والاتصاف بصفات الكمال)[٤].

ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنَّه تواب، أي كثير التوبة للمذنبين من عباده رحمة بهم، وتهذيباً لنفوسهم؛ وذلك لأنَّ المذنب إذا أذنب وأحس بذنبه، ذهب عنه غروره وتضرع إلى ربه، وان الإحساس بالمعصية وطلب العفو عنها، يقربه من الله تعالى ويدنيه منه، ولذا يقال: معصية مُذلة خير من طاعة مُدِلَّة، ومعصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت دِلا وافتخاراً، والله عفو غفور[٥].

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: جعل سبحانه وتعالى في الملاعنة بين الزوجين اللعنة على الرجل، وخَصَّ الغضب الذي هو اشد على المرأة؟

(١) هو جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر التميمي، شاعر مشهور، من فحول شعراء الإسلام، فاق على غيره في بيوت الشعر الأربعة، الفخر والمديح والهجاء والنسيب، له ديوان: (ديوان جرير) توفي سنة (١١٠هـ) وقيل (١١٤هـ). ينظر: تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (ت:٥٧١هـ) تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، د.ط (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ج٧٢/ ص٨٦، ٨٧، ٩٦؛ وفيات الأعيان، ج١/ ص٣٢١.

(٢) ديوان جرير، جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر الخطفي (ت: ١١٤هـ) دار بيروت، د.ط (بيروت/١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص٤٥٢.

(٣) ينظر: سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت:٣٩٢هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ج٢/ ص٢٩١، ٢٩٣.

(٤) نظم الدرر، ج٥/ ص٢٣٩.

(٥) ينظر: زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٥٢.

في هذا المقام قال الكناني[١]: (إمَّا ليتفنن – سبحانه وتعالى – في الخطاب لكراهة التكرار، أو لأنَّ الغضب أشد من اللعن؛ لأنَّه مقدمة الانتقام، واللعن: الإبعاد المجرد، وقد لا ينتقم، وخصها بذلك لاحتمال كذبها لقلة عقلها ودينها)[٢].

لمَّا كان الرجل الكاذب مفترٍ مباهت جُعلت اللعنة له وأُبعد بها عن رحمة الله تعالى، ولمَّا كان الغضب اشد من اللعنة، فقد اختصت به المرأة؛ لأنَّها هي التي باشرت المعصية بالفعل، ثم كذبت وباهتت بالقول[٣].

يمكن أن يقال: إنَّ سبب ذكر الغضب في حق النساء، في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٤]، هو تغليظ لهن؛ لأنَّ النساء يستعملن اللعن كثيراً، وهو يجري كثيراً على ألسنتهن، فذكر الغضب في جانبهن ليكون ردعاً لهن[٥]. فقد جاء في الحديث الصحيح أنَّهن موصوفات بكثرة اللعن، فقال ﷺ: ((يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ))[٦].

ثانياً: قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾[٧]، من تدبر

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني، قاضي القضاة، كان قوي المشاركة في علم الحديث، والفقه، والأصول، والتفسير، من أهم مؤلفاته: (كشف المعاني في المتشابه من المثاني) و (غرر البيان لمبهمات القرآن) توفي سنة (٧٣٣هـ). ينظر: فوات الوفيات، ج٣/ ص٢٩٧؛ الأعلام، ج٥/ ص٢٩٨.

(٢) كشف المعاني، ج١/ ص٢٧١.

(٣) ينظر: الجواهر الحسان، ج٤/ ص١٧٣.

(٤) سورة النور: الآية ٩.

(٥) ينظر: البحر المديد، ج٤/ ص١٤؛ نيل المرام من تفسير آيات الاحكام، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي القِنَّوجي (ت:١٣٠٧هـ) تحقيق: محمد حسن اسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ج١/ ص٣٩٠.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم الحديث (٣٠٤) من رواية: أبي سعيد الخدري ﷺ، ج١/ ص٦٨؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان بنقص الطاعات، رقم الحديث (١٣٢) من رواية: بن عمر ﷺ، ج١/ ص٦٨.

(٧) سورة النور: الآية ١٠.

هذه الآية وما سبقها من آيات، يرى بادئ ذي بدئ أن يكون تذييل الآية بـ (تواب رحيم) وسبحانه وتعالى ختم الآية بقوله: (تواب حكيم)؟

السر في هذا الختام كما قال الكناني هو أنَّه قد: (تقدم الآية ذكر الزنا والجلد، فناسب ختمه بالتوبة، حثاً على التوبة منه وأنَّها مقبولة من التائب، وناسب أنَّه ﴿ حَكِيمٌ ﴾؛ لأنَّ الحكمة اقتضت ما قدمه من العقوبة لِمَا فيه من الزجر عن الزنا، وما يترتب عليه من المفاسد)[1].

الحكيم هو الذي يضع الشيء في محله. وقد يخفى وجه الحكمة على بعض الضعفاء في بعض الأفعال، فيتوهم أنَّه خارج عنها، وليس كذلك، فكان في الوصف بالحكيم احتراس حَسَن، أي وإن فضحكم على ما ارتكبتم من فاحشة، فلا معترض لأحد عليك في ذلك والحكمة فيما فعلته، ففي هذه الآية إنَّ بادئ الرأي يقتضي (تواب رحيم)؛ لأنَّ الرحمة مناسبة للتوبة، لكن عبر بالحكمة هنا، إشارة إلى حكمته سبحانه وتعالى في مشروعية اللعان، وهي الستر عن هذه الفاحشة العظيمة[2].

إنَّ ذكر (الحكيم) اشدُّ تناسقاً من ذكر (رحيم) وذلك مع ما سبق من آيات؛ لأنَّ ذكر وصف (حكيم) في الآية مع وصف (تواب) إشارة إلى أنَّ في هذه التوبة حكمة، وهي استصلاح الناس[3].

---

(١) كشف المعاني، ج١/ ص٢٧١.

(٢) ينظر: الإتقان، ج٣/ ص٣٥٢؛ من بلاغة القرآن، أحمد احمد عبد الله البيلي البدوي (ت:١٣٨٤هـ) نهضة مصر، د.ط (القاهرة/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ج١/ ص٦٦.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٦٩.

المبحث الرابع

حادثة الإفك وما يتعلق بها، ويشمل الآيات (١١- ٢٦)

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾[1].

---

(١) سورة النور: الآية ١١- ٢٦.

توطئة:

بعد أن بينت الآيات السابقة حكم الذين يرمون المحصنات، ثم حكم الذين يرمون أزواجهم، انتقل السياق القرآني لبيان واقعة خاصة رمُيت بها الطاهرة أمُّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها".

فنزلت عشر آيات من أوّل هذه السورة كلها في شأن أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين، بما قالوه من الكذب، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعِرض النبي ﷺ، وأنزل بعدها إحدى عشرة آية تدور أيضاً حول هذه الحادثة، فهذه الآيات تُشكل أساس المحور الذي تقوم عليه سورة النور، وهو التربية الأخلاقية والآداب الاجتماعية؛ وذلك لأنَّ منهج الإسلام في تربيته الأخلاقية للأسرة والمجتمع، يقوم على أساس طهارة الحياة الزوجية من كل مظاهر الانحراف خاصة الزنا، سواء حدث الانحراف فعلاً من احد الزوجين، أو تعرض احدهما للقذف، فهذا كله يساعد على نشر الفاحشة في المجتمع(١).

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيات الكريمة.

---

(١) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، ج٥/ ص١٩٢، ٢٠٠.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

بعد التأمل والتفكر فيما سبق من أقوال العلماء، في تفسير آيات هذا الموضوع، تبين أنَّ هذا الموضوع متناسق موضوعياً مع الموضوع السابق، وأنَّ آيات هذا الموضوع ترتبط بالموضوع السابق ارتباطاً وثيقاً، حيث ابتدأت بتشريع حد الزنا، ثم كان حد القذف وحكم اللعان، ثم جاءت حادثة الإفك أنموذجاً واقعياً للوقوف على أخطار القذف وأضراره، ولرصد آثاره على الفرد والمجتمع[١].

قال عبد الكريم الخطيب[٢]: (بعد أن بينت الآيات السابقة حكم الذين يرمون المحصنات، ثم حكم الذين يرمون أزواجهم، جاءت الآيات هنا تبين حكماً خاصاً لواقعة خاصة، ترمى بها أحصن المحصنات، أمُّ المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ)[٣]. وذكر سبحانه في الموضوعين السابقين، حكم قذف الأجنبيات، وحكم من قذف الزوجات، ثم جاء السياق متناسقاً ليذكر في هذه الآيات حادثة الإفك وما تعلق بها من أمور، وذلك صيانة لعِرض الرسول ﷺ[٤].

إنَّ هذه الآيات التي تتحدث عن حادثة الإفك جاءت متناسقة تماماً مع موضوعات السورة السابقة لها، فكانت الآيات تتحدث عن هذه الحادثة ودروسها، وجاءت الموضوعات الأولى مقدمة لها، كما كانت حادثة الإفك تعليلاً لضرورة الأحكام الموجودة في الموضوعات السابقة لها[٥].

بل إنَّ حادثة الإفك تعليلٌ للأحكام التي وردت في الموضوعات الأولى، وتفهّمٌ لحكمة هذه الأحكام، وتعلَّمٌ لما ينبغي أن يكون الموقف عندما تحدث شائعة زنا، ومن درس حادثة الإفك فإنَّه سوف يدرك حكمة اشتراط الشهود للزنا، وحكمة حد القذف، كما

---

(١) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، ج٥/ ص١٩٢.

(٢) هو عبد الكريم محمود يونس احمد حسن الخطيب، مفكر إسلامي، باحث، ومفسر، من أهم مؤلفاته: (التفسير القرآني للقرآن) و (القصص القرآني) توفي سنة (١٣٩٠هـ). ينظر: تتمة الأعلام، ج١/ ص٣١٧- ٣١٨.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٢٧

(٤) ينظر: تفسير المراغي، ج١٨/ ص٧٨.

(٥) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٦٩٨.

يدرك ضرورة الظن الحسن بالمؤمنين، وأنَّ الأصل في المؤمن والمؤمنة هو عدم الزنا، فالتناسق بين الموضوعات الأولى وبين موضوع حادثة الإفك واضح بيّن[1].

ذكر المولى عز وجل العقوبة الدنيوية للقاذف في الموضوع الثاني من السورة، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2]، أمَّا العقوبة الأخروية فقد ذكرها بعد حادثة الإفك، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3]، ففصل بين العقوبة الدنيوية والأخروية بحادثة الإفك، وهذا يُظهر مدى التناسق البديع بين آيات هذا الموضوع، والموضوعات السابقة، فقد جاءت حادثة الإفك في الوسط؛ لنعرف من خلالها شناعة جريمة القذف، ولنعرف حكمة عقوبتها، فذكر سابقاً العقوبة الدنيوية ثم حادثة الإفك ثم تبع ذلك بتفصيل العقوبة الأخروية، فلا ارتباط أفضل من هذا، ولا تناسق أبدع من هذا التناسق المنتظم[4].

ومع طول هذا الموضوع الذي احتوى ستاً وعشرين آية، إلَّا أنَّ آياته كانت مترابطة، ومتناسبة مع بعضها. قال سعيد حوى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾[5]: (جاء هذا النداء بعد الموضوعات التي عُرِض فيها نماذج على خطوات الشيطان، وعلى ما يأمر به من فحشاء كالزنا، وعلى ما يأمر به من منكر كالقذف، فالصلة واضحة بين هذا النداء وبين ما قبله)[6].

وأشار سيد قطب موضحاً أنَّ موضوع القذف متناسق مع موضوع حادثة الإفك من حيث أنَّه نموذجٌ للقذف، فقال: (بعد الانتهاء من بيان حكم القذف يورد نموذجا من القذف، يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته وهو يتناول بيت النبوة الطاهر الكريم، وعرض رسول الله ﷺ أكرم إنسان على الله تعالى، وعرض صديقه الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه، أكرم

(١) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٧١٦.

(٢) سورة النور: الآية ٤.

(٣) سورة النور: الآية ٢٣.

(٤) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٧١٩- ٣٧٢٠.

(٥) سورة النور: من الآية ٢١.

(٦) الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٧١٨.

إنسان على رسول الله ﷺ وعرض صفوان بن المعطل ﷺ (ت:٥٨هـ)[١]، يشهد رسول الله ﷺ أنَّه لم يعرف عليه إلَّا خيراً)[٢].

انتهت آيات الموضوع الرابع من هذه السورة المباركة، التي أظهرت طهارة وعفة السيدة عائشة "رضي عنها" فانزل الله براءتها من السماء، وفضلها النبي ﷺ على سائر النساء، فقال: ((فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))[٣].



(١) هو أبو عمرو صفوان بن المعطل بن ربيعة بن خزاعي السلمي، شهد صفوان بن المعطل مع رسول الله ﷺ الخندق والمشاهد كلها بعدها، وهو الذي قال فيه أهل الإفك ما قالوا مع عائشة "رضي الله عنها"، فبرأهما الله مما قالوا، قتل شهيداً سنة (٥٨هـ). ينظر: الاستيعاب، ج٢/ ص٧٢٥؛ أسد الغابة، ج٣/ ص٣١.

(٢) في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٤٩٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة "رضي الله عنها"، رقم الحديث (٣٧٧٠) من رواية: انس بن مالك ﷺ، ج٥/ ص٢٩؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب فضل عائشة "رضي الله عنها"، رقم الحديث (٢٤٤٦) من رواية: انس بن مالك ﷺ، ج٤/ ص١٨٩٥.

المطلب الثاني
تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1]. إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[2].

جاء في الصحيحين أنَّ هذه الإحدى عشرة آيات نزلت في براءة أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، فيما افتراه عليها أهل الإفك[3].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾، وتبدأ السورة بعد كل ما سبق من حدود، بتنزيل براءة أم المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، بما رُميت به من الإفك.

والإفك: اشد من الكذب؛ لأنَّه قول مأفوك عن وجهه، قال الزمخشري: (الإفك: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل: هوالبهتان لا تشعر به حتى يفجأك. وأصله: الأفك، وهو القلب؛ لأنَّه قول مأفوك عن وجهه، والمراد: ما أفك به على عائشة "رضي الله عنها")[4].

فالإفك قلب الشيء عن حقيقته التي كان عليها، ولذلك سمي قوم لوط بالمؤتفكة، أي: قلبت وخسف بها فصار أعلاها أسفلها، وأيضاً حديث الإفك الذي رميت به أم المؤمنين عائشة "رضي الله عنها" هو حديث مُختلق من المنافقين، راج عندهم وعند نفر من سُذَّج المسلمين، إمَّا لمجرد إتباع الكلام المُفترى، وإمَّا لإحداث الفتنة بين المسلمين، فكان الإخبار عن الشيء بخلاف حالته الواقعية، قلباً له عن حقيقته فسمي إفكاً[5].

---

(١) سورة النور: الآية ١١.

(٢) سورة النور: الآية ٢١.

(٣) ينظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ رقم الحديث (٤٧٥٠) من رواية: عائشة "رضي الله عنها"، ج٦/ ص١٠١؛ صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم الحديث (٢٧٧٠) من رواية: عائشة "رضي الله عنها"، ج٤/ ص٢١٢٩؛ أسباب النزول، ص٣٣٢.

(٤) الكشاف، ج٣/ ص٢١٧.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٦٩-١٧٠.

العصبة هم الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض، قال ابن عباس ﷺ: العصبة ثلاثة رجال، وعنه أيضاً من ثلاثة إلى عشرة، وقيل أربعون رجلاً[1].

قال ابن برجان[2]: (العصبة: ما بين العشرة إلى أربعين، ولا يقال لما دون العشرة: عصبة، وما كان أقل من عشرة فهم نفر)[3].

المقصود من العصبة في الآية، الذين افتروا على عائشة "رضي الله عنها"، وهم: عبد الله بن أُبيّ[4]، وحسان[5]، ومسطح[6]، وحمنة[7][8].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص١٩٨.

(٢) هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن برجان الاشبيلي، كان من أهل المعرفة بالقراءات، والحديث، والكلام، والتصوف، مع الزهد والاجتهاد في العبادة، من أهم مؤلفاته: (تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم) و (شرح الأسماء الحسنى) توفي سنة (٥٣٦هـ). ينظر: طبقات المفسرين للسيوطي، ج١/ ص٦٨؛ الأعلام، ج٤/ ص٦.

(٣) تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرُّف الآيات والنبأ العظيم، عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن برجان الاشبيلي (٥٣٦هـ) تحقيق: احمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٣٤هـ/٢٠١٣م) ج٤/ ص١٣٠.

(٤) هو عبد الله بن أُبي بن سلول بن مالك الخزرجي، رأس المنافقين، صلى عليه النبي ﷺ، وكفنه في قميصه قبل النهي عن الصلاة على المنافقين، توفي سنة (٩هـ). ينظر: السيرة النبوية، ج١/ ص٥٢٦؛ تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا يحيى بن شرف محيي الدين النووي (ت:٦٧٦هـ) دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/ د.ت) ج١/ ص٢٦٠، ٢٧٦.

(٥) هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن النجار الأنصاري، صحابي وراوي للحديث، كان شاعر رسول الله ﷺ، وهو ممن تكلم وخاض في الإفك على عائشة "رضي الله عنها"، أُختلف في سنة وفاته، فقل (٤٠) وقيل (٥٠) وقيل (٥٤). ينظر: الاستيعاب، ج١/ ص٣٤١، ٣٤٧؛ الإصابة، ج٢/ ص٥٥- ص٥٦.

(٦) هو أبو عباد مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب القرشي المطلبي، شهد بدراً، ثم خاض في الإفك على عائشة "رضي الله عنها"، فجلده رسول الله ﷺ فيمن جلد في ذلك، قيل توفي سنة (٣٤هـ) وقيل شهد صفين وتوفي سنة (٣٧هـ). ينظر: الاستيعاب، ج٤/ ص١٤٧٢؛ أسد الغابة، ج٥/ ص١٥٠.

(٧) هي حمنة بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن خزيمة، صحابية وراوية للحديث، كانت ممن خاض في الإفك على عائشة "رضي الله عنها" ظناً منها أنَّ ذلك خير لأختها زينب "رضي الله عنها"، وجلدت في ذلك مع من جلد فيه، لم يُذكر لها سنة وفاة. ينظر: الاستيعاب، ج٤/ ص١٨١٣.

(٨) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص١١٦.

ذكر سبحانه وتعالى العصبة تحقيراً لهم، وقوله ﴿مِّنكُمْ﴾ يدل على أنَّهم من المسلمين. قال ابن عاشور: (ذكر عصبة تحقير لهم ولقولهم، أي لا يعبأ بقولهم في جانب تزكية جميع الأمة لمن رموهما بالإفك، ووصف العصبة بكونهم منكم يدل على أنهم من المسلمين، وفي ذلك تعريض بهم بأنهم حادوا عن خلق الإسلام حيث تصدوا لأذى المسلمين)[1].

قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن العربي مُوضحاً حقيقة الخير والشر في الآية، إذ قال: (حقيقة الخير أنَّه ما زاد نفعه على ضره، وحقيقة الشر ما زاد ضره على نفعه، وأنَّ خيراً لا شر فيه هو الجنة، وشراً لا خير فيه هو جهنم، ولهذا صار البلاء النازل على الأولياء خيراً؛ لأنَّ ضرره من الألم قليل في الدنيا، وخيره وهو الثواب كثير في الآخرة، فنبه الله تعالى عائشة "رضي الله عنها"، ومن ماثلها ممن ناله هَم من هذا الحديث أنَّه ما أصابهم منه شر، بل هو خير على ما وضع الله الشر والخير عليه في الدنيا من المقابلة بين الضر والنفع، ورجحان النفع في جانب الخير، ورجحان الضر في جانب الشر)[2].

وأزال الله تعالى خاطر أن يكون ذلك الحديث شراً للمؤمنين ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ فإنَّه أثبت أنَّه خير لهم ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فأتى بالإضراب لإبطال أن يحسبوه شراً، وإثبات أنَّه خير لهم؛ لأنَّ فيه منافع كثيرة إذ يميز به المؤمنون الخُلَّص من المنافقين، وتشرع لهم بسببه أحكام تردع أهل الفسق عن فسقهم، وتتبين منه براءة فضلائهم، ويزداد المنافقون غيظاً ويصبحون محقرين مذمومين، ولا يفرحون بظنهم حزن المسلمين، فإنَّهم لما اختلقوا هذا الخبر ما أرادوا إلَّا أذى المسلمين[3].

إنهم اكتسبوا من الحادثة الثواب العظيم، لأنَّه كان بلاء مبيناً ومحنة ظاهرة، وفي هذا الخبر من الفوائد الدينية والأحكام والآداب التي لا تخفى على متأمليها[4].

(١) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٧١.
(٢) أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٦٣.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٧٢.
(٤) ينظر: الكشاف، ج٣/ ص٢١٧، ٢١٨.

كل نفس تتحمل ما اكتسبت من الإثم؛ لأنَّ هذا هو حكم الله في كل ذنب، ولا يكون لها إلَّا ما اكتسبت، إلَّا أن الذي تولى كبره وكان يرميه ويشيعه له عذاب عظيم، وهو عبد الله بن أبي سلول وأيضاً من كان يتكلم فيه هو حسان ومسطح وحمنة بت جحش، ومقصود من العذاب العظيم في الآية: إمَّا أن يكون المراد هو العمى، أو عذاب جهنم، أو الحد، فأمَّا العمى فهو الذي أصاب حسان، وأمَّا عذاب جهنم فلمن كتبه الله له، وأمَّا عذاب الحد[(١)]. فقد رُوى أنَّ النبي ﷺ حد في الإفك رجلين وامرأة، وهم: مسطح، وحسان، وحمنة[(٢)].

قال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾[(٣)].

و ﴿ لَّوْلَآ ﴾ في الآية حرف بمعنى (هلَّا) للتوبيخ، فالآية استئناف لتوبيخ عصبة الإفك من المؤمنين وتعنيفهم بعد أن سماه إفكاً[(٤)].

وهذا عتاب من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا، والمعنى أنَّه كان ينبغي من فضلاء المؤمنين والمؤمنات قياس هذا الأمر على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك في عائشة "رضي الله عنها" وصفوان رضي الله عنه أبعد[(٥)].

وفي هذه الآية التفات إلى الغيبة، وكان الأصل (ظننتم) وفي ذلك تنبيها على التوبيخ[(٦)]. وأيضاً المراد من الالتفات قصد المبالغة والتصريح بالإيمان، الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شراً[(٧)].

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: كذب ظاهر، لا خفاء فيه؛ لأنَّ المقصود به اطهر نساء الأرض عائشة "رضي الله عنها".

---

(١) ينظر: أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٦٣- ٣٦٤.

(٢) ينظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة النور، رقم الحديث (٣١٨١) من رواية: عائشة "رضي الله عنها"، قال الترمذي: حديث حسن غريب، ج٥/ ص٣٣٦.

(٣) سورة النور: الآية ١٢.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٧٣.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٠٢.

(٦) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٤٣؛ الجدول في إعراب القرآن، ج١٨/ ص٢٣٥.

(٧) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي (ت:٧٤١هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١ (بيروت/ ١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ج٢/ ص٦٣.

قالابن العربي الإفك المبين هو: (كذب ظاهر؛ لأنَّه خبر عن أمر باطن ممن لم يشاهده، وذلك أكذب الأخبار وشر الأقوال، حيث استطيل به العرض الذي هو أشرف المحرمات، ومقرون في تأكيد التحريم بالمهجات)[١].

قال الطبري: (قال المؤمنون والمؤمنات: هذا الذي سمعناه من القوم الذي رمي به عائشة "رضي الله عنها" من الفاحشة كذب وإثم، يبين لمن عقل وفكر فيه أنَّه كذب وإثم وبهتان)[٢].

إنَّ (لولا) في قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[٣]، مثل (لولا) السابقة بمعنى (هلا)، وهنا استئناف ثان؛ لتوبيخ العصبة الذين جاءوا بالإفك وذم لهم[٤].

إنَّ هذا مسوق لتوبيخ السامعين على ترك إلزام الخائضين، أي: هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ما قالوا ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ ﴾ الأربعة، وكان الظاهر فإذا لم يأتوا بهم، إلَّا أنَّه عدل إلى ما في النظم الجليل؛ لزيادة التقرير ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الخائضين، وما فيها من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفساد، أي: فأولئك المفسدون في حكم الله وشريعته، هم المحكوم عليهم بالكذب شرعاً، فخبرهم لم يطابق الواقع في الشرع، وقيل: المعنى فأولئك في علم الله تعالى هم الكاذبون الذين لم يطابق خبرهم الواقع في نفس الأمر؛ لأنَّ الآية في خصوص عائشة "رضي الله عنها"، وخبر أهل الإفك فيها غير مطابق للواقع في نفس الأمر في علمه عز وجل[٥].

وهذا التقييد بقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ ﴾ لزيادة تحقيق كذبهم؛ لأنَّ علم الله لا يكون إلَّا موافقاً لنفس الأمر[٦].

---

(١) أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٦٥.

(٢) جامع البيان، ج١٩/ ص١٢٩.

(٣) سورة النور: الآية ١٣.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٧٥.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٦١؛ روح المعاني، ج٩/ ص٣١٤.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٧٦.

وفَسَّر النسفي[1]، قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2]، بقوله: (لولا أني قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة، وأن أترحم عليكم في الآخرة في العفو والمغفرة، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك)[3].

قال تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾[4]. إنَّ لفظة ﴿ تَلَقَّوْنَهُۥ ﴾ مأخوذة من الولق، الذي هو إسراعك بالشيء بعد الشيء، يقال: ولق في سيره إذا أسرع، وقال، المعنى هو: تتلقون الإفك الذي جاءت به العصبة من أهل الإفك، فتقبلونه، ويرويه بعضكم عن بعض، يقال: تلقيت هذا الكلام عن فلان، بمعنى أخذته منه، وقيل ذلك؛ لأنَّ الرجل منهم كان يقول:
ألم يبلغك كذا وكذا عن عائشة "رضي الله عنها"؟ ليُشيع عليها بذلك الفاحشة[5].

إنَّما القول يكون بالأفواه، وقد ذكره الله تعالى في الآية ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم ﴾؛ مبالغة وإلزام وتأكيد[6].

قال ابن عاشور: (وأمَّا قوله: ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم ﴾ فوجه ذكر بأفواهكم مع أنَّ القول لا يكون بغير الأفواه، أنَّه أُريد التمهيد لقوله تعالى: ﴿ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي: هو قول غير موافق لِمَا في العلم، ولكنَّه عن مجرد تصور؛ لأنَّ أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول، فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه، وفي هذا من الأدب الأخلاقي، أنَّ المرء لا يقول بلسانه إلَّا ما يعلمه ويتحققه)[7].

---

(١) النسفي: هو أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، فقيه حنفي، ومفسر، له تصانيف مفيدة في الفقه والأصول، من أهم مؤلفاته: (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) و (كنز الدقائق) توفي سنة (٧١٠هـ). ينظر: الدرر الكامنة، ج٣/ ص١٧؛ الأعلام، ج٤/ ص٦٧.

(٢) سورة النور: الآية ١٤.

(٣) مدارك التنزيل، ج٢/ ص٤٩٣.

(٤) سورة النور: الآية ١٥.

(٥) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص١٣٠.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٠٤.

(٧) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٧٨.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾[١]، في هذه الآية: (عتاب لجميع المؤمنين، أي: كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تُنَزِهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه ﷺ، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنَّها بهتان، وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقال في الإنسان ما فيه)[٢].

ذكر عز وجل لفظ ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ في الآية، وهذا اللفظ يأتي للتعجب من أمر عظيم، وهو تنزيه لله تعالى عن أن تكون زوجة رسول الله ﷺ، على ما قال أهل الإفك فيها[٣].

قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ هو بمعنى التعجب من عظيم الأمر، والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه[٤].

لَمَّا كان تنزيه الله تعالى في مثل ذلك، حسن أن يوصل بذلك تعليلاً للتعجب والنفي: ﴿ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ ﴾ أي: كذب يبهت ويحير من يواجه به، ثم هوله بقوله: ﴿ عَظِيمٌ ﴾ أي: إنَّ الذي ينبغي للإنسان أولاً أن لا يظن بإخوانه المؤمنين ولا يسمع فيهم إلَّا خيراً، فإن غلبه الشيطان في ذهنه فلا يتكلم به، وليبادر إلى تكذيبه[٥].

بعد أن بين الله تعالى ما في خبر الإفك من تبعات لحق بسببها للذين جاءوا به، والذين تقبلوه عديد التوبيخ والتهديد، وانتفاع للمؤمنين بذلك، وبيّن بادىء ذي بدء أنَّه لا يحسب شراً لهم بل هو خير لهم، وأنَّ الذين جاءوا به ما اكتسبوا به إلَّا إثماً، وكيف حسبوه أمراً هيناً وهو عند الله عظيم، ولو تأملوا لعلموا عظمه عند الله تعالى، وذلك كله أعقب تحذير المؤمنين من العود إلى مثله من المجازفة في التلقي، ومن الاندفاع وراء كل ساع دون تثبت من كلامه، ودون تبصر في عواقب ما ينطق من هذا الحديث، فقال

---

(١) سورة النور: الآية ١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٠٥.

(٣) ينظر: التسهيل، ج٢/ ص٦٤.

(٤) ينظر: الكشاف، ج٣/ ص٢٢٠.

(٥) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٤٤.

تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1][2].

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا، إن كنت رجلاً[3].

قال الآلوسي في قوله تعالى ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[4]: (ينزلها مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها، والمراد بها الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن آداب معاملة المسلمين، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتفخيم شأن البيان، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلها ودقها، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع أفعاله، فأنّى يمكن تصديق ما قيل في حق حرم من اصطفاه لرسالته، وبعثه إلى كافة الخلق؛ ليرشدهم إلى الحق ويزكيهم ويطهرهم تطهيراً)[5].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[6].

إنَّ الذين يريدون أن تنتشر الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة بالحد والسعير إلى غير ذلك، والله يعلم ما في الضمائر، وأنتم لا تعلمون فعاقبوا في الدنيا على ما دل عليه الظاهر، والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة، ولولا فضل الله عليكم ورحمته تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب؛ للدلالة على عظم الجريمة، ولذا عطف قوله: وأنَّ الله رؤوف رحيم على حصول فضله ورحمته عليهم وحذف الجواب وهو مستغنى عنه بذكره مرة[7].

---

(١) سورة النور: الآية ١٧.

(٢) ينظر: التحرير التنوير، ج١٨/ ص١٨٢.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٠٥.

(٤) سورة النور: الآية ١٨.

(٥) روح المعاني، ج٩/ ص٣١٨.

(٦) سورة النور: الآية ١٩- ٢٠.

(٧) ينظر: أنوار التنزيل، ج٤/ ص١٠٢.

والفاحشة هنا أتت بمعنى الأمور القبيحة أو أخبار السوء، والآيتان متصلتان بالآيات السابقة سياقاً وموضوعاً، وقد احتوت أولاهما: تنديداً بالذين يحبون أن تنتشر أخبار السوء في أوساط المؤمنين وإنذاراً لهم، وإيعازاً بوجوب تأديبهم في الدنيا بالإضافة إلى ما سوف يكون لهم من عذاب أليم في الآخرة، واحتوت ثانيتهما: تذكيراً بما شملهم الله تعالى به من فضله ورحمته[١].

وصَحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللهِ، وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ))[٢]. فالحديث ينطوي فيه تلقين نبوي متناسق مع التلقين القرآني، وفيه تأديب وتحذير قويان لكل إنسان[٣].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[٤].

قال ابن عطية: (هذا الخطاب عام لجميع المؤمنين، وخُطُوات جمع خطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فكأنَّ المعنى: لا تمشوا في سبله وطرقه من الأفعال الخبيثة)[٥].

وهذه الآية استئناف ابتدائي، ليبين عز وجل أنَّ كل ما جرى في حادثة الإفك هو ظنون ووساوس شيطانية. قال ابن عاشور: (هذه الآية نزلت بعد العشر الآيات المتقدمة، فالجملة استئناف ابتدائي، ووقوعه عقب الآيات العشر التي في قضية الإفك مشير إلى أنَّ ما تضمنته تلك الآيات من المناهي وظنون السوء ومحبة شيوع الفاحشة كله من وساوس الشيطان، فشبه حال فاعلها في كونه متلبساً بوسوسة الشيطان، بهيئة الشيطان

---

(١) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٣٨٨.

(٢) مسند الإمام احمد، تتمة مسند الأنصار، رقم الحديث (٢٢٤٠٢) من رواية: ثوبان ، قال شعيب الانؤوط: صحيح لغيره، وإسناده حسن، ج٣٧/ ص٨٨.

(٣) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٣٨٨.

(٤) سورة النور: الآية ٢١.

(٥) المحرر الوجيز لبن عطية، ج٤/ ص١٧٢.

يمشي، والعامل بأمره يتبع خطى ذلك الشيطان، ففي قوله: ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ تمثيل مبني على تشبيه حالة محسوسة بحالة معقولة، إذ لا يعرف السامعون للشيطان خطوات حتى ينهوا على إتباعها، وفيه تشبيه وسوسة الشيطان في نفوس الذين جاءوا بالإفك بالمشي)[١].

بعد أن أمر بعدم إتباع خطوات الشيطان بيَّن أنَّه لولا فضل الله تعالى على العباد ما تطهر أحد من الذنوب فالزكاة هي التطهير من دنس الذنوب[٢].

في قوله تعالى ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عاشور: (هذا تذييل بين الوعد والوعيد، أي: سميع لمن يشيع الفاحشة، عليم بما في نفسه من محبة إشاعتها، وسميع لمن ينكر على ذلك، عليم لِمَا في نفسه من كراهة ذلك فيجازي كلا على عمله)[٣].

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤].

لَمَّا أنزل الله تعالى براءة أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، قال أبو بكر الصديق ﷺ وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة "رضي الله عنها" ما قال، فأنزل الله هذه الآية، فقال أبو بكرﷺ: بلى والله إنِّي أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً[٥].

قال العلماء في هذه الآية، إنَّها أرجى ما في كتاب الله تعالى، من حيث إنَّه لطف

---

(١) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٨٧.

(٢) ينظر: روح المعاني، ج٩/ ص٣٢٠.

(٣) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٨٧.

(٤) سورة النور: من الآية ٢٢.

(٥) ينظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ رقم الحديث (٤٧٥٠) من رواية: عائشة "رضي الله عنها"، ج٦/ ص١٠١؛ صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم الحديث (٢٧٧٠) من رواية: عائشة "رضي الله عنها"، ج٤/ ص٢١٢٩؛ أسباب النزول، ص٣٣٢.

الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ[١].

جاء الخطاب بصيغة الجمع؛ وذلك لِما لأبي بكرﷺ من فضل ومنزلة في الإسلام. قال الشعراوي: (ائتلى مثل اعتلى تماماً، ومنها تألى يعني: حلف وأقسم، يوجه الحق تبارك وتعالى الصديق أبا بكرﷺ، ويذكر لفظ ﴿ أُوْلُواْ ﴾ الدال على الجماعة؛ لتعظيمه لما له من فضل ومنزلة في الإسلام، ففي كل ناحية له فضل؛ لذلك أعطاه وصفين مثل ما أعطى للنبي ﷺ، فقال للصديق: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾، وقال للنبي ﷺ: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾)[٢][٣].

قال القرطبي: (في هذه الآية دليل على أنَّ القذف وإن كان كبيراً لا يحبط الأعمال؛ لأنَّ الله تعالى وصف مسطحاً بعد قوله بالهجرة والإيمان، وكذلك سائر الكبائر، ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله، قال تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾)[٤][٥].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٦]، هذه الآية استئناف بعد استئناف قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[٧]، والكل تفصيل للموعظة التي في قوله: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٨]. فابتدئ بوعيد العود إلى محبة ذلك، وثني بوعيد العود إلى إشاعة القالة[٩].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٠٨.
(٢) سورة المائدة: من الآية ١٣.
(٣) تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٣٠.
(٤) سورة الزمر: من الآية ٦٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٠٨.
(٦) سورة النور: الآية ٢٣.
(٧) سورة النور: من الآية ١٩.
(٨) سورة النور: الآية ١٧.
(٩) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٩٠.

وصف أبو حيان الغافلات بأنَّهم: (السليمات الصدور، النقيات القلوب، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر؛ لأنَّهن لم يجربن الأمور، ولا يفطن لما يفطن له المجريات)(١).

قال ابن عاشور: إنَّ المقصود من قوله تعالى ﴿لُعِنُواْ﴾ هو: (إخبار عن لعن الله إياهم بما قدر لهم من الإثم وما شرع لهم، واللعن في الدنيا التفسيق، وسلب أهلية الشهادة، واستيحاش المؤمنين منهم، وحد القذف، واللعن في الآخرة الإبعاد من رحمة الله، والعذاب العظيم عذاب جهنم فلا جدوى في الإطالة بذكر مسألة جواز لعن المسلم المعين هنا ولا في أنَّ المقصود بها من كان من الكفرة)(٢).

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾(٣).

هذه الآيات معقبة على حادثة الإفك ومتصلة بالسياق، وأسلوب هذه الآيات، يلهم أنَّها جاءت لزجر وردع من يتعرض ويتحدث بأعراض النساء، والتشديد فيه تعقيباً على ما كان من حادث قذف أمِّ المؤمنين "رضي الله عنها"، وفيها توكيد ضمني بنزاهتها وبراءتها، وهي في ذات الوقت جاءت عامة التوجيه؛ ليكون تلقينها الإنذاري والتأديبي مستمر المدى(٤).

معنى الآية أنَّ الألسنة تشهد عليهم بما كانوا يعملون من القذف والبهتان، وبما تناقلوا وأشاعوا من الحديث المأفوك، وحتى الجوارح التي ليس لها نطق سوف تتكلم وتشهد عليهم بما عملوا في الدنيا(٥).

يوم القيامة عندما تحدث هذه الشهادة، يوفيهم الله تعالى الجزاء العدل الذي يستحقونه، الذي لا ظلم فيه ولا تغيير، فالجزاء يكون بالحق؛ لأنَّه لم يحدث منهم توبة، ولا تجديد إيمان؛ لذلك لا بد أن يقع بهم ما حذرناهم منه وأخبرناهم به من العقاب، وليس هناك إله آخر يغير هذا الحكم أو يؤخره عنهم، ثم يقول تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ

(١) البحر المحيط، ج٨/ ص٢٦.
(٢) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٩١.
(٣) سورة النور: الآية ٢٤- ٢٥.
(٤) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٣٩٢.
(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢١٠.

﴿ ٱلۡمُبِينُ ﴾ فهو الشيء الثابت الذي لا يتغير[1].

قال تعالى: ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾[2].

هذه الآية متصلة بحادث الإفك اتصال تعقيب، وبسبيل توكيد براءة أمِّ المؤمنين "رضي الله عنها"، فلا يمكن أن تكون إلَّا بريئة طيبة لأنَّها زوجة النبي ﷺ، البريء الطيب، ولا يمكن أن تكون زوجة النبي ﷺ، البريء الطيب إلَّا بريئة طيبة[3].

يمكن أن يكون معنى الخبيثات هو: الخبيثات من المقالات للخبيثين من الرجال فيكون هذا تعريضاً بالذي تولى كبر الإفك، ويمكن أن يكون المراد بذلك الأعمال أيضاً فيكون معنى الكلام: ﴿ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[4]، والقول والعمل الخبيث لا يعلق بالمؤمن الطاهر ولا بالمؤمنة الطاهرة، فيكون المراد بهذا هو عائشة "رضي الله عنها" وصفوان رضي الله عنه، ثم الازكياء من المؤمنين والمؤمنات، وأيضاً فإنَّه يمكن أن يكون المراد هو عائشة "رضي الله عنها" ورسول الله ﷺ، ثم أهل الزكاء والطهارة من المؤمنين والمؤمنات، ويكون هذا في معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ ﴾[5]، على معنى أنَّه ليس كفؤ الزاني إلَّا زانية مثله أو مشركة، ولا كفؤ الزانية إلَّا زان مثلها أو مشرك[6].

أشار المراغي إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ فقال: (هذه الآية الكريمة تشرح الغرائز والطباع، وتبين أنَّ الإنسان بل هذا الوجود، لا تلاؤم بين أجزائه إلَّا بصفات متناسبة، فالكرة الأرضية متجاذبة الأجزاء، وكرة الهواء مطيعة لمجموعها، لما

---

(١) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٤١- ١٠٢٤٢.

(٢) سورة النور: الآية ٢٦.

(٣) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٣٩٢.

(٤) سورة الإسراء: من الآية ٨٤.

(٥) سورة النور: من الآية ٣.

(٦) ينظر: تنبيه الافهام، ج٤/ ص١٣٩.

بينها من تناسب وتشابه في الصفات، وهكذا أخلاق الناس وصفاتهم إذا تشابهت اتفقوا، وهم يكونون يوم القيامة كذلك، لا يجتمعون إلَّا حيث يتفقون)[1].

لَمَّا ثبت أنَّ الخبيث لا يجتمع إلَّا مع الخبيثة، والطيب لا يجتمع إلَّا مع الطيبة، كانت نتيجته قطعاً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي: العالوا الأوصاف بالطهارة والطيب ﴿ مُبَرَّءُونَ ﴾ ببراءة الله تعالى، وبراءة كل من له تأمل في مثل هذا الدليل ﴿ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي: القذفة الأخابث؛ لأنَّها لا تكون زوجة أطيب الطيبين إلَّا وهي كذلك، ولَمَّا أثبت لهم البراءة، استأنف الباري عز وجل الإخبار بجزائهم فقال: ﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ ﴾[2].

قال البيضاوي في قوله تعالى ﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ لهم: (يعني: الجنة، ولقد برأ الله أربعة بأربعة: برأ يوسف عليه السلام بشاهد من أهلها، وموسى عليه السلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم "عليها السلام" بإنطاق ولدها، وعائشة "رضي الله عنها" بهذه الآيات الكريمة مع هذه المبالغة، وما ذلك إلَّا لإظهار منصب الرسول ﷺ وإعلاء منزلته)[3].

بعد هذه الجولة في هذه الآيات المباركة، يظهر منها أنَّ الله تعالى فرض على المجتمع أربع واجبات، حين ورود شائعة تتعلق بالأعراض:

أولاً: حسن الظن ببعضنا البعض: ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا ﴾[4].

ثانياً: التكذيب المباشر والصريح، إعمالاً للبراءة الأصلية: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾[5]، وأنَّ يكون قولهم عند سماع القاذف: هذا افك، وبهتان، ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴾[6].

(١) تفسير المراغي، ج١٨/ ص٩٣.

(٢) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٥٢.

(٣) أنوار التنزيل، ج٤/ ص١٠٣.

(٤) سورة النور: من الآية ١٢.

(٥) سورة النور: من الآية ١٢.

(٦) سورة النور: الآية ١٦.

ثالثاً: طلب الدليل والبرهان على قول القاذف وإلَّا فهو رأس الكاذبين: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[١]، وفي هذه الآية ثلاث مؤكدات لاستحقاقهم هذا الوصف، وهي: ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ و ﴿ هُمُ ﴾ و (ال) من قوله تعالى ﴿ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ وكأنَّ الكذب حُصر فيهم، واصل الكلام (فأولئك كاذبون).

رابعاً: ترك العجلة في الكلام، والنظر في العاقبة: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾، وفي مثل هذا الموقف نبه الله تعالى على قول المؤمنين: ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾[٢].

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾[٣]، ذكر المؤمنات، مع أنَّ كل حكم أو أمر يعم المؤمنين والمؤمنات، من غير نص على المؤمنات، ولكن نصَّ عليهن في سياق الآية؟

السبب في ذلك أنَّ النساء كثيراً ما يقعن في هذا النوع من الغيبة من غير احتراس ولا تحفظ، كما حصل مع حمنة بنت جحش، فقد وقعت في إشاعة هذا الإفك، تحسب أنَّ في ذلك ما يرضي أختها أمُّ المؤمنين زينب "رضي الله عنها"[٤]، وهذه كانت برة تقية، كانت تنفي عن عائشة "رضي الله عنها"، ولا تقر كلام أختها، بل ترده، ولَمَّا عبر سبحانه وتعالى بوصف المؤمنين والمؤمنات، فإنَّه بذلك يشير إلى أنَّ الإيمان يقتضي ذلك[٥].

ثانياً: التلقي عادة يكون بالآذان لا بالألسنة، فما السر في جعل التلقي بالألسن في

---

(١) سورة النور: الآية ١٣.

(٢) ينظر: أسوار العفاف، ص١٨.

(٣) سورة النور: من الآية ١٢.

(٤) زينب: هي أمُّ الحكم زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن خزيمة، زوجة النبي ﷺ، قالت عائشة "رضي الله عنها": ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين من زينب وأتقى لله، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، توفيت سنة (٢٠هـ). ينظر: الاستيعاب، ٤/ ص١٨٤٩- ١٨٥١؛ الإصابة، ج٨/ ص١٥٤- ١٥٥.

(٥) ينظر: زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٥٨.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾[1]؟

هذا يدل على بلاغة الأداء القرآني في التعبير، قال الشعراوي: (انظر إلى بلاغة الأداء القرآني في التعبير عن السرعة في إفشاء هذا الكلام، وإذاعته دون وعي، ودون تفكير، فمعلوم أنَّ تلقي الأخبار يكون بالآذان لا بالألسنة، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكأنَّهم يتلقونه بألسنتهم، كأن مرحلة السماع بالأذن قد ألغيت، فبمجرد أن سمعوا قالوا)[2].

فَهُم بمجرد سماعهم لهذه الإشاعات سُرعان ما القوها بألسنتهم، كأنَّما عبرت للسان دون مرور بالسمع، وهذا يدل على خفة عقلهم، حتى أصبحت ألسنتهم مصانع تلقي الإشاعات، والكذب الذي يبلغ الآفاق، فيلقونها جُزافاً من غير علم أو تثبت[3].

هذا يدل على إعجاز القرآن الكريم، فقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾[4]، تحس به الإعجاز الذي يعطيك ذاته، فالأصل أن يتلقى الإنسان الكلام بأذنه، ثم يستوعبه بعقله وقلبه، ثم يتكلم به، أو لا يتكلم، وفي هذه الحادثة الأمر مختلف، فالتلقي كان باللسان بدل الأذن والقلب، فهو إشارة إلى سرعة الأخذ، وسرعة النطق دون التعقل والتدبر[5].

ثالثاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[6]، أتى سبحانه وتعالى بصيغة العموم مع أنَّ السياق كان عن أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"؟

المقصود من ذكر المحصنات بصيغة العموم هو: (وعيد من وقع في عائشة "رضي الله عنها" على أبلغ الوجوه؛ لأنَّه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات، فما الظن بوعيد من وقع في قذف سيدتهن، على أن تعميم الوعد أبلغ وأقطع من تخصيصه، ولهذا عممت زليخا[7]، حين قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ

---

(1) سورة النور: من الآية ١٥.
(2) تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢١٨.
(3) ينظر: أسوار العفاف، ص١٥.
(4) سورة النور: من الآية ١٥.
(5) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٧٢٦.
(6) سورة النور: من الآية ٢٣.
(7) هي زليخا امرأة قطفير عزيز مصر، وبعد وفاته تزوجت سيدنا يوسف عليه السلام، ولبست تاج مصر في مدته، وصارت ملكة كعادة زمانهم. ينظر: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله فواز العاملي (ت:١٣٣٢هـ) المطبعة الكبرى الأميرية، ط١ (مصر/١٣١٢هـ/١٨٩٥م) ج١/ ص٢٢٢، ٢٢٦.

أَلِيمٌ ﴾[١]، فعممت وأرادت يوسف عليه السلام، تهويلاً عليه وإرجافاً)[٢].

رابعاً: قدم سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ على ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾[٣]، والحديث كان يدور عن تبرئة سيدتنا عائشة "رضي الله عنها" فلماذا لم يبدأ المولى عز وجل بالطيبات والطيبين؟

قال عبد الكريم الخطيب: (قدَّم ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ على ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾؛ وذلك لأنَّ الخطاب موجه أولاً إلى أولئك الذين خبثوا نفساً، وديناً، فأطلقوا ألسنتهم في الطيبات والطيبين من المؤمنين، وأنَّهم لو لم يكونوا على تلك الصفة لظنوا بالمؤمنين والمؤمنات خيراً، ولكانوا يقولون إذ سمعوا اللغط بهذا الحديث: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾[٤]، كما وصَّى الله المؤمنين بذلك، ودعاهم إليه)[٥].

خامساً: عندما ذكر الله عز وجل الخبيث والطيب، فإنَّه قدم المرأة على الرجل؟

قال عبد الكريم الخطيب: (قُدمت المرأة على الرجل هنا في الحالين: الخبث والطيب؛ وذلك لأنَّ المرأة هي التي يطلب لها كِفؤها من الرجال، فلا يصح أن تتزوج بمن هو أنزل منها شرفاً وقدراً، والكفاءة هنا منظور إليها من ناحية التقوى، والعفة، والطهر، فالخبيثة، كِفؤها من هو أخبث منها خبثاً، والطيبة، كِفؤها من هو أطيب منها طيباً)[٦].

سادساً: هذه الآيات تتحدث عن حادثة الإفك وما يتعلق بها، ولكننا نجد في آخر هذا الموضوع يتحدث المولى عز وجل عن الرزق، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[٧]، فما هو المقصود من ذلك؟

---

(١) سورة يوسف: من الآية ٢٥.

(٢) الجدول في إعراب القرآن، ج١٨/ ص٢٤٧.

(٣) سورة النور: من الآية ٢٦.

(٤) سورة النور: من الآية ١٦.

(٥) التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٥٨.

(٦) المصدر السابق، ج٩/ ص١٢٥٨.

(٧) سورة النور: من الآية ٢٦.

لأنَّ كل معركة فيها خصومة قد تكون آثار تتعلق بالرزق، والرزق تكفل الله به لعباده، سواء المؤمن أو الكافر، وحين تعطي المحتاج فإنَّما أنت مناول عن الله تعالى، والحق سبحانه يحترم ملكية الإنسان مع أنَّه رازقه ومعطيه، لكن طالما أعطاه صار العطاء ملكاً له، فإنَّ حثه على النفقة بعد ذلك يأخذها منه قرضاً، لذلك يقول سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1]، فإن أنفق الموسر على المعسر جعله الله قرضاً، وتولى سداده بنفسه؛ لذلك يقول تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[2]؛ لأنَّ الإنسان تعب في جمع المال وأصبح عزيزاً عليه لذلك يبخل به، فأخذه الله منه قرضاً مردوداً بزيادة، وكان الرزق والمال بهذه الأهمية؛ لأنَّه أول مناط لعمارة الخليفة في الأرض، لذلك ترك الحديث عن القضية الأساسية هنا التي تتحدث عن حادثة الإفك، وذكر هذه الآية التي تتعلق بالرزق[3].

بعد ذلك فمن تمعن وتدبر هذه الآيات الكريمة، وَجَد الخير الوفير من اللطائف البيانية.

ختاماً لهذه الآيات الكريمة نذكر ما صحَّ من قول خير خلق الله محمد ﷺ: ((بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الْكَذِبِ أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))[4].

---

(١) سورة البقرة: من الآية ٢٤٥.

(٢) سورة محمد: من الآية ٣٨.

(٣) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٣٥.

(٤) صحيح مسلم، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم الحديث (٥) من رواية: أبي هريرة ﷺ، ج١/ ص١٠.

الفصل الثاني

الاستئذان لدخول البيوت، وما يتعلق به، والمثل النوراني في آية النور ويشمل الآيات (٢٧- ٣٥)

توطئة:

بعد التأمل والتدبر في آيات السورة من (٢٧- ٣٥)، وما قبلها من بداية السورة، والنظر في أقوال المفسرين، تبين لي أنَّ الآيات سيقت لبيان آداب الاستئذان، بعد تلك الحادثة التي تحدثت عنها الآيات السابقة، والتي بيَّن فيها الله عزَّ وجل براءة أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، وجزاء من تحدث بتلك الحادثة ونشر الخبر المأفوك، وقد جاء الحديث في هذه الآيات الكريمة عن موضوع الاستئذان وما يتعلق به، والمثل النوراني في آية النور، من خلال أربعة مباحث، وكل مبحث يمثل موضوع مستقل من موضوعات السورة.

المبحث الأول

الاستئذان لدخول البيوت، ويشمل الآيات (٢٧- ٢٩)

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾[١].

توطئة:

جاءت هذه الآيات الكريمة وهي تحمل في طياتها خطوة من الخطة الوقائية التي وضعها الإسلام لمنع وقوع فاحشة الزنا، وهي الاستئذان لدخول البيوت المسكونة وغير المسكونة، وتشكل هذه الآيات جانباً هاماً من محور السورة الكريمة وهو التربية الأخلاقية، والآداب الاجتماعية[٢].

---

(١) سورة النور: الآية ٢٧- ٢٩.

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٠٧.

إنَّ الشريعة الإلهية عندما تحرم شيئاً، فإنَّها تحرم معها الأسباب والدواعي والوسائل، حتى تستوقف المرء على مسافة بعيدة قبل أن يفضي إلى حد الجريمة الأصلية، فالشريعة ناصحة للبشر، ومصلحة لمفاسدهم، ومساعدة لهم على تذليل مشاكلهم أيضاً، فتستخدم كل ما يؤثر فيهم من التدابير التعليمية والخلقية والاجتماعية، حتى تأخذ بأيدي الناس في اجتناب السيئات[١].

الإسلام لم يحرم الزنا فقط، بل حرم كل السبل الموصلة إليه، وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[٢]، وإنَّ الشريعة تجعل فاصلاً بين العبد والمعصية؛ لأنَّ القرب من المعصية قد يضعف النفوس، ويوقعها في ارتكاب المعاصي، ولذلك كان الأمر بالاستئذان منعاً لوقوع البصر على العورات، التي تحرك رؤيتها الشهوة الممهدة لارتكاب الفاحشة[٣].

وردت أحاديث كثيرة تتحدث عن آداب الاستئذان وكيفيتها، منها:

١. أنَّ رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة رضي الله عنه[٤]، فقال: ((السلام عليكم ورحمة الله، فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً، ورد عليه سعد رضي الله عنه ثلاثاً، ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ واتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلَّا هي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، أحببت أن أستكثر من سلامك، ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرب له زبيباً، فأكل النبي ﷺ، فلمَّا فرغ قال: ((أَكَلَ طَعَامَكُمُ الْأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ))[٥].

---

(١) ينظر: تفسير سورة النور، أبو الأعلى بن احمد حسن المودودي الهندي (ت:١٣٩٩هـ) مؤسسة الرسالة، د.ط (بيروت/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص١٤١- ١٤٢.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٢.

(٣) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٠٨.

(٤) هو أبو ثابت سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرج الأنصاري، شهد العقبة، وكان سيداً جواداً، وجيهاً في الأنصار وصاحب رايتهم في المشاهد كلها، توفي سنة (١٥هـ). ينظر: أسد الغابة، ج٢/ ص٤٤١؛ الإصابة، ج٣/ ص٥٥- ٥٦.

(٥) مسند الإمام احمد، مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث (١٢٤٠٦) من رواية: أنس بن مالك رضي الله عنه، قال شعيب الارنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ج١٩/ ص٣٩٧- ٣٩٨.

٢. صحَّ من حديث جابرﷺ[١]، أنَّه قال: ((أتيت النبي ﷺ فدعوت، فقال النبي ﷺ: من هذا؟ قلت: أنا، قال: فخرج وهو يقول: أنا أنا))[٢]. فكأنه ﷺ كره ذلك، والصحيح أن يقول: أنا فلان، ويسمي اسمه. قال القرطبي: (إنَّما كره النبي ﷺ ذلك؛ لأنَّ قوله أنا لا يحصل بها تعريف، وإنَّما الحكم في ذلك أن يذكر اسمه ...؛ لأنَّ في ذكر الاسم إسقاط كلفة السؤال والجواب)[٣]. كما كان يفعل عمر بن الخطاب ﷺ فإنَّه يجمع بين السلام والإبانة عن الاسم، وهو كمال الاستئذان[٤]. فقد روي عنه: (أنَّه أتى النبي ﷺ، وهو في مشربة له فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليكم أيدخل عمر)[٥].

٣. وصحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ، فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ))[٦].

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيات الكريمة.

---

(١) هو جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان الأنصاري، أحد الستّة الذين شهدوا العقبة الأولى، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، توفي سنة (٧٤هـ) وقيل (٧٨هـ). ينظر: أسد الغابة، ج١/ ص٤٩٢؛ الإصابة، ج١/ ص٥٤٥، ٥٤٧.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب كراهة قول المستأذن أنا إذا قيل من هذا، رقم الحديث (٢١٥٥) من رواية: جابر بن عبدالله ﷺ، ج٣/ ص١٦٩٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢١٧.

(٤) ينظر: شرح السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (ت:٥١٦هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢ (دمشق/١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ج١٢/ ص٢٨٨.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الآداب، باب في الرجل يفارق الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه، رقم الحديث (٥٢٠١) من رواية: بن عباس ﷺ، قال شعيب الارنؤوط: إسناده صحيح، ج٧/ ص٤٩٥.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، رقم الحديث (٢١٥٨) من رواية: أبي هريرة ﷺ، ج٣/ ص١٦٩٩.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

بعد التأمل والتفكر في هذه الآيات الثلاث، نعلم أنَّها متناسقة موضوعياً مع الموضوع السابق لها تناسقاً بديعاً.

إنَّ بيان هذه الأحكام بعد ذكر حادثة الإفك على الفور، ما كان إلَّا نتيجة لوجود وسط شهواني حسب تشخيص الله تعالى، والله تعالى قد اختار أحسن طريق لتغيير هذا الوسط الشهواني، وهو أن ينهى الناس عن دخول بعضهم بيوت بعض بغير استئناس أهلها، وينهى الرجال منهم عن النظر إلى النساء الأجنبيات وبالعكس، والاختلاط بهن على الوجه الحر، وينهى النساء عن البروز بالزينة إلى غير المحارم من الأقارب والأجانب، كأنَّ السفور والتبرج واختلاط الرجال والنساء في المجتمع، هي الأسباب الأساسية في علم الله تعالى، التي لأجلها تجري في المجتمع شهوانية غير مشعور بها، فلم يكن شيء بالنسبة لهذا المعنى أنجح وأصح لإصلاح مفاسد المجتمع من هذه الأحكام[1].

هذه الآيات هي فصل تشريعي يتمم بعضه بعضاً، وعند إمعان النظر فإنَّه يظهر التناسق ما بين هذه الآيات وبين الموضوع السابق، فالدخول إلى بيوت الناس بدون إذن، مما يفسح المجال للقيل والقال وإشاعة أخبار السوء، وهذا مما حذرت منه الآيات السابقة، ومن المحتمل أن تكون هذه الآيات قد نزلت بعد تلك الآيات فوضعت في ترتيبها للتناسق الموضوعي والظرفي، أمَّا إذا لم تكن نزلت بعدها مباشرة فيكون ترتيبها للتناسق الموضوعي الملموح[2].

---

(١) ينظر: تفسير سورة النور للمودودي، ص١٤٠– ١٤١.

(٢) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٣٩٥.

قال المودودي[(١)]: (لقد كان الغرض من الأحكام المذكورة في بدء السورة، أن يُتدارك ما يظهر في المجتمع من مفاسد، وهنا يبدأ الله تعالى من هذه الآيات بسرد الأحكام التي المقصود من ورائها الحيلولة دون نشوء المفاسد في المجتمع أصلاً، واستئصال الأسباب التي تظهر لأجلها مثل هذه المفاسد، وذلك بإصلاح الطرق المدنية، والحياة الاجتماعية)[(٢)].

لقد بينت الآيات السابقة التي تناولت حادثة الإفك، أنَّ المنافقين فتحوا بإفكهم ذلك باب الظنون السيئة بين المسلمين، فأمر الله تعالى بالتنزه عن مواقع التهم والتلبس بما يحسم الفساد، فأهل الإفك إنَّما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة، فصارت كأنَّها طريق التهمة، فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره إلَّا بعد الاستئذان والسلام، لأنَّ في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة، وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به[(٣)].

قال الشوكاني[(٤)]: (لَمَّا فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف، شرع في ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان؛ لِمَا في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء، فربما يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين، وأيضاً فإنَّ الإنسان يكون في بيته ومكان خلوته، على حالة قد لا يحب أن يراه عليها غيره، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير)[(٥)].

---

(١) هو أبو الأعلى بن احمد حسن المودودي أو أبو العلاء المودودي الهندي، درس اللغة العربية، والقرآن، والحديث، والفقه، أسس الجماعة الإسلامية في الهند، من أهم مؤلفاته: (تفسير تفهيم القرآن) و (المصطلحات الأربعة في القرآن) توفي سنة (١٣٩٩هـ). ينظر: موقع وكيبيديا، ar.wikipedia.org/wiki

(٢) تفسير سورة النور للمودودي، ص١٤٠.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٣٥٦؛ نظم الدرر، ج٥/ ص٢٥٢.

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فقيه، مجتهد، من كبار علماء اليمن، كان يرى تحريم التقليد، من أهم مؤلفاته: (فتح القدير) و (نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار) توفي سنة (١٢٥٠هـ). ينظر: الأعلام، ج٦/ ص٢٩٨.

(٥) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (ت:١٢٥٠هـ) دار بن كثير، دار الكلم الطيب، ط١ (دمشق/بيروت/١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ج٤/ ص٢٣؛ ينظر: فتح البيان، ج٩/ ص١٩٦؛ نيل المرام، ص٣٩١.

جاء موضوع هذه الآيات الثلاث وهو الاستئذان، متناسقاً مع الموضوع السابق له وهو حديث الإفك؛ وذلك لقيم الله تعالى المسلمين على أدب خاص، يتصل بالبيوت وحرمتها، حتى لا تكون مظنّة لريبة، أو موضعاً لتهمة النفوس إذا ما استقبلت هذه الآيات فإنَّها تكون مهيأة لقبول كل ما يدفع التهم، وينفي الرَّيب، بعد تلك التجربة القاسية التي عاشها النبي ﷺ، وزوجه، وصديقه الصديق، وصحابته ﷺ، وصالحوا المؤمنين(١).

إنَّ حكم الاستئذان هو حكم آخر يتعلق بالأسرة والبيوت، وهو متناسق تماماً مع الموضوع السابق، ومن دواعي البعد عن الريبة والشك والظن والوقوع في الزنا، ومراعاة لأحوال الناس رجالاً ونساء الذين لا يريدون لأحد الاطلاع عليها، ولأنَّ النظر والاطلاع على العورات طريق الزنا(٢).



(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٦٠.

(٢) ينظر: التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٠٠؛ التفسير الواضح، ج٢/ ص٦٧٠.

المطلب الثاني
تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

قال عدي بن ثابت[2]، في سبب نزول هذه الآية: (جاءت امرأة من الأنصار، فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل عليَّ، وإنَّه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت الآية)[3].

وجاءت هذه الآيات لبيان آداب الاستئذان للبيوت المسكونة، لتهدي الناس إلى الطريق المستقيم الخالي من التهم والشبهات التي تهدم كيانه، وهي تحمل آداب اجتماعية شرعية ذات مدلول حضاري قويم، وتمدن رفيع، لِما فيها من تنظيم لحياة المجتمع وأحوال الأسر في البيوت، حفظاً لروابط الود والمحبة، وتبادل الزيارات بين المؤمنين[4].

وكانت تحية الرجل في الجاهلية أنَّه إذا دخل بيتاً غير بيته، قال: حييتم صباحاً، أو حييتم مساءً، فجاءت الآيات تبين أنَّ الاستئذان أو التسليم خير من أن يدخلوا بغتة؛ لأنَّه ربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف، فصد الله عن ذلك وعلَّم الأحسن والأكمل[5].

قال أبو حيان: (الظاهر أنَّ الاستئناس هو خلاف الاستيحاش؛ لأنَّ الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا، فهو كالمستوحش من جفاء الحال إذا أذن له استأنس، فالمعنى حتى يؤذن لكم، كقوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ ﴾[6]،

---

(١) سورة النور: الآية ٢٧.

(٢) هو عدي بن أبان بن ثابت بن الخطيم الأنصاري، الإمام، الحافظ، الواعظ، قال أبو حاتم: صدوق، وقال غيره: ثقة ثبت، توفي سنة (١١٥هـ) وقيل (١١٦هـ). ينظر: تاريخ الإسلام، ج٣/ ص٢٧٦؛ سير أعلام النبلاء، ج٥/ ص٤٩٦.

(٣) أسباب نزول القرآن، ص٣٢٤- ٣٢٥.

(٤) ينظر: التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٠٠.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل، ج٤/ ص١٠٣؛ البحر المحيط، ج٨/ ص٣١.

(٦) سورة الأحزاب: من الآية ٥٣.

وهذا من باب الكنايات والإرداف؛ لأنَّ هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن، فوضع موضع الإذن)[1].

والاستئناس في اللغة: هو الاستئذان[2]. وإنَّ وجه التعبير عن الاستئذان بالاستئناس، أنَّه مثله في معنى الاستعلام، وقد أُختلف في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: حتى تستأذنوا.

القول الثاني: حتى تئنسوا أهل البيت بالتنحنح، فيعلموا بالدخول عليهم.

القول الثالث: حتى تعلموا أفيها من تستأذنون عليه أم لا[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾[4]، أي: علمتم[5].

قال ابن برجان: (الاستئناس قد يكون بكلام وبتنحنح، والاستئناس أيضاً قد يكون بأن يقول لمن رآه يدخل على قوم: (استأذن عليهم) ونحو هذا، يقال من ذلك: آنَست وأنِست، بمعنى: رأيت وأحسست، قال تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾[6]، بمعنى: رأيت وآنست من فلان كذا، أي: أحسست، فقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ أي: حتى تروا من تأنسوا به من داخل عليهم)[7].

قال ابن كثير[8]: (هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك في الاستئذان، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلَّا انصرف)[9].

---

(١) البحر المحيط، ج٨/ ص٣٠.

(٢) ينظر: تاج العروس، ج١٥/ ص٤١٦.

(٣) ينظر: أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٧٠.

(٤) سورة النساء: من الآية ٦.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢١٣.

(٦) سورة القصص: من الآية ٢٩.

(٧) تنبيه الأفهام، ج٤/ ص١٤٠.

(٨) هو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، حافظ، ومؤرخ فقيه، من أهم مؤلفاته: (تفسير القرآن العظيم) و (البداية والنهاية) توفي سنة (٧٧٤هـ). ينظر: الدرر الكامنة، ج١/ ص٤٤٥؛ الأعلام، ج١/ ص٣٢.

(٩) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت:٧٧٤هـ) تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ج٦/ ص٣٣.

وصحَّ عن أبي سعيد الخدري ﷺ[١]، أنَّه قال: (كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى[٢]، كأنَّه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: ((إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ)) قال: والله لتقيمن عليه ببينة، أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبي بن كعب[٣]: والله لا يقوم معك إلَّا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم فقمت معه، فأخبرت عمر أنَّ النبي ﷺ قال ذلك)[٤].

والاستئذان في السنة يكون ثلاثاً لا يزاد عليها، لحديث أبي موسى الأشعري، وصورته أن يقول الرجل: السلام عليكم أأدخل، فإن أُذن له دخل، وإن أُمر بالرجوع انصرف، وإن سكت عنه استأذن ثلاثا، ثم ينصرف من بعد الثلاث[٥].

قال القرطبي: (إنَّما خص الاستئذان بثلاث؛ لأنَّ الغالب من الكلام إذا كرر ثلاثاً سمع وفهم؟ ولذلك كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى يفهم عنه، وإذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثاً، وإذا كان الغالب هذا، فإذا لم يؤذن له بعد ثلاث ظهر أنَّ رب المنزل لا يريد الإذن، أو لعله يمنعه من الجواب عنه عذر لا يمكنه قطعه، فينبغي للمستأذن أن ينصرف، لأنَّ الزيادة على ذلك قد تقلق رب المنزل، وربما يضره الإلحاح

---

(١) هو أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الانصاري الخزرجي، من مشهوري الصحابة وفضلائهم، ومن المكثرين من الرواية، شهد الخندق وما بعد ذلك من المشاهد، توفي سنة (٧٤هـ) وقيل (٦٤هـ). ينظر: أسد الغابة، ج٢/ ص٤٥١؛ الإصابة، ج٣/ ص٦٥، ٦٧.

(٢) هو أبو موسى عبد الله بن قيس بن سليم بن الأشعري، أسلم بمكة، وهاجر إلى أرض الحبشة، وكان عامل رسول الله ﷺ على زبيد وعدن، وأستعمله عمر ﷺ على البصرة، اختلف في سنة وفاته: فقيل (٤٤هـ) وقيل (٥٠هـ) وقيل (٥٣هـ). ينظر: الاستيعاب، ج٤/ ص١٧٦١، ١٧٦٤؛ أسد الغابة، ج٣/ ص٣٦٤؛ الإصابة، ج٤/ ص١٨١، ١٨٣.

(٣) هو أبو المنذر أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية الانصاري الخزرجي، شهد العقبة الثانية، وبدرا والمشاهد كلها، وكان عمر يقول: أُبي سيد المسلمين، اختلف في سنة وفاته، فقيل (٢٢هـ) وقيل (٣٠هـ) وقيل (٣٢هـ). ينظر: أسد الغابة، ج١/ ص٦٨؛ الإصابة، ج١/ ص١٨١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا، رقم الحديث (٦٢٤٥) من رواية: أبي سعيد الخدري ﷺ، ج٨/ ص٥٤؛ صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب الاستئذان، رقم الحديث (٢١٥٣) من رواية: بسر بن سعيد ﷺ، ج٣/ ص١٦٩٤.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢١٤- ٢١٥.

حتى ينقطع عما كان مشغولاً به)[١].

واختلف العلماء في الاستئذان والسلام، أيهما يقدم على الآخر، فمنهم من قال: يقدم الاستئذان لتقديمه في الآية، ومنهم من قال: يقدّم السلام ثم يستأذن فيقول: السلام عليكم، ثم يقول أأدخل، كما في الحديث النبوي الذي يُبين صورة الاستئذان: فقد روي أنَّ رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: ((اخْرُجِي إِلَيْهِ، فإنَّهُ لا يُحسِنُ يَسْتأذِنُ، فَقُولي لَهُ يَقُولُ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، آدْخُل؟ قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، آَدْخُلُ؟ قَالَ: فَأَذِنَ))[٢][٣].

قال أبو حيان: (الواو في ﴿وَتُسَلِّمُواْ﴾ لا تقتضي ترتيباً فشرَّع النداء بالسلام على الإذن لِما في السلام من التفاؤل بالسلامة)[٤].

قال ابن عاشور: (لقد جمعت الآية الاستئذان والسلام بواو العطف، المفيد التشريك فقط، فدلت على أنَّه إن قدم الاستئذان على السلام أو قدم السلام على الاستئذان فقد جاء بالمطلوب منه، وورد في أحاديث كثيرة الأمر بتقديم السلام على الاستئذان فيكون ذلك أولى ولا يعارض الآية)[٥].

والمعنى: أن لا تدخلوا بيوتاً لستم تملكونها ولا تسكنونها حتى تستأذنوا، ويستعلم أهل الدار بقدومكم، وهذا من الآداب القرآنية التي جاءت لتهدي البشرية، حتى قال بعض العلماء: (اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً) فيتأدبون في حركاتهم وسكناتهم، ودخولهم وخروجهم، فيستأذنون كما أمر الله تعالى عند دخول منازلهم برفع صوتهم بذكر الله تعالى، أو بالسلام قبل الدخول، أو بالتسبيح، وكذلك عند دخولهم منزل غيرهم[٦].

---

(١)الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢١٥.

(٢) مسند الإمام أحمد، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ، رقم الحديث (٢٣١٢٧) من رواية: ربعي بن حراش، قال شعيب الارنؤوط: صحيح لغيره، ج٣٨/ ص٢٠٦- ٢٠٧.

(٣) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص١٤٦؛ التسهيل لعلوم التنزيل، ج٢/ ص٦٦؛ الإكليل في استنباط التنزيل، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص١٩١.

(٤) البحر المحيط، ج٨/ ص٣١.

(٥) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٩٩.

(٦) ينظر: البحر المديد، ج٤/ ص٢٨- ٢٩.

لم ينهَ الشرع عن ترك شي إلَّا لِما فيه من مفسدة عند حصوله. ومن المفاسد التي تنتج عند دخول البيوت بغير إذن، هي:

١. منها ما صحَّ عن النبي ﷺ، أنَّه قال: ((إِنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ))[١]، فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإنَّ البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

٢. أنَّ ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر كسرقة أو غيرها، لأنَّ الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأذنوا[٢].

قال تعالى في ختام الآية: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ومعناها ظاهر، إذ المراد أنَّ فعل ذلك خير لكم، وأولى لكم من الهجوم بغير إذن، لكي تتذكروا هذا التأديب فتتمسكوا به وتفعلوها، وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان[٣].

قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[٤].

الآية تفريع على الآية السابقة، وهما متصلتان، فالسابقة فرض الله تعالى فيها الإذن بعد الاستئناس والسلام، وهذه الآية مفروضة في جزء منها، في حال إذا لم يجدوا أحداً، والجزء الثاني مفروض فيه إذا لم يكن إذن، بل كان الأمر بالمنع والرجوع[٥].

وجاءت هذه الآية لاحتراس من أن يظن ظان، أنَّ المنازل غير المسكونة يدخلها

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من اجل البصر، رقم الحديث (٦٢٤١) من رواية: سهل بن سعد ﷺ، ج٨/ ص٥٤؛ صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب نظر الفجاءة، رقم الحديث (٢١٥٦) من رواية: سهل بن سعد ﷺ، ج٣/ ص١٦٩٨.

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت:١٣٧٦هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١ (بيروت/ ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ص٥٦٥.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٣٥٩؛ لباب التأويل في معاني التنزيل، أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم الخازن (ت:٧٤١هـ) تحقيق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ج٣/ ص٢٩١.

(٤) سورة النور: الآية ٢٨.

(٥) ينظر: زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٧٧.

الناس في غيبة أصحابها بدون إذن منهم، فيتوهمون بأنَّ العلة في شرع الاستئذان هي ما يكره أهل المنازل من رؤيتهم على غير تأهب، ولكن ليست هذه العلة وإنَّما هي كراهتهم رؤية ما يحبون ستره من شؤونهم، وجاءت الغاية (حتى) لتأكيد النهي: فلا تدخلوها حتى يأتي أهلها فيأذنوا لكم[١].

قال البيضاوي: (فإن لم تجدوا فيها أحدا يأذن لكم، فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم حتى يأتي من يأذن لكم، فإن المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط، بل وعلى ما يخفيه الناس عادة، مع أنَّ التصرف في ملك الغير بغير إذنه محظور، واستثنى ما إذا عرض فيه حرق أو غرق أو كان فيه منكر ونحوها)[٢]. فلا يجوز دخول البيت الخالي من صاحبه، ولكن إذا كان قد أُذن بدخوله والجلوس فيه، أو كان في مكان آخر، وأرسل من يُبلغ بالجلوس في بيته وانتظاره لحين عودته فلا بأس في ذلك، وإلَّا فإنَّ مجرد خلو البيت من صاحبه فإنَّه لا يبيح لأحد أن يدخله بدون استئذان[٣].

قال ابن عاشور في معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ ﴾ أي: (إنَّه أفضل وخير لكم من أن يأذنوا على كراهية، وفي هذا أدب عظيم، وهو تعليم الصراحة بالحق دون المواربة ما لم يكن فيه أذى، وتعليم قبول الحق؛ لأنَّه أطمن لنفس قابله من تلقي ما لا يدرى أهو حق أم مواربة، ولو اعتاد الناس التصارح بالحق بينهم لزالت عنهم ظنون السوء بأنفسهم)[٤].

ختم عز وجل الآية بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾، وهذا توعد من الله تعالى لمن يتجسس على البيوت، ولمن يطلب الدخول على حين غفلة، يبتغي من ذلك المعصية، أو النظر إلى ما لا يحل ولا يجوز له، ولغير هؤلاء ممن يقع في محضور[٥].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٠١.

(٢) أنوار التنزيل، ج٤/ ص١٠٤.

(٣) ينظر: تفسير سورة النور للمودودي، ص١٤٦.

(٤) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٠٠.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٢٠.

قـــال تعـــالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾(١).

قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها؛ وذلك أنَّها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له متاع فيها بغير إذن، كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى)(٢).

قال العلماء إنَّ في هذه الآية خمسة أقوال، **الأول:** إنَّها الخانات المشتركة والبيوت المبنية للسابلة ليأووا إليها، ويؤووا أمتعتهم، **الثاني:** إنَّها حوانيت التجار التي بالأسواق، **الثالث:** إنَّها جميع البيوت التي لا ساكن لها، لأنَّ الاستئذان إنَّما جُعِل لأجل الساكن، **الرابع:** إنَّها الخرابات العاطلات، **الخامس:** إنَّها بيوت مكة(٣).

قال ملا علي القاري: (إنَّه سبحانه رفع الجناح والحرج في الانتفاع بما لا يستتصر به صاحبه بغير إذنه، كدخول ارض للداخل فيها غرض كقضاء حاجة، أو لا تجد طريقا غير تلك الجهة، إذا لم يكن من دخوله ضرر على صاحبه، وجرى هذا مجرى الاستظلال بظل حائطه إذا لم يكن قاعدا في ملكه، وكالنظر في المرآة المنصوبة في جدار غيره)(٤).

فـي قولـه تعـالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾، قـال أبـو السـعود: (هـذا وعيداً لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد أو اطلاع على عورات)(٥).

وختاماً فإنَّ الخطاب في الآية عام للمسلمين، وليس فيه قرينة تخصص أنَّه خطاب للرجال دون النساء، وحكمه يتناولهم في كل ظرف ومكان، والروعة فيما احتوته هذه الآيات، أنَّه آداب من طبيعتها الخلود والاتساق مع الخُلق الفاضل، والذوق السليم، وأيضاً فقد احتوت الآيات على تأديب رفيع في هذا الشأن، توخى فيه تنظيم السلوك الشخصي بين المسلمين، تنظيماً يجنبهم دواعي الريبة، وأخبار السوء، وما يكون فيه للغير من أذى

---

(١) سورة النور: الآية ٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج٦/ ص٣٨.

(٣) ينظر: النكت والعيون، ج٤/ ص٨٨؛ زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت:٥٩٧هـ) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط١ (بيروت/١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ج٣/ ص٢٨٩.

(٤) أنوار القرآن، ج٣/ ص٤٦١.

(٥) إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٦٩.

وتثقيل، ونبهت الآيات الثلاث الأخيرة إلى أنَّ ما في ذلك من تذكير وتعليم، وإلى كون الله تعالى يعلم كل ما يفعلونه، وكل ما يبدونه أو يكتمونه، على سبيل التدعيم لما احتوته الآيات من تشريع، والتشديد على وجوب إتباعه وعدم مخالفته[1].

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: عبر المولى عز وجل عن الاستئذان بالاستئناس، في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[2]؟

في هذا المقام يذكر سيد قطب السبب في ذلك مُشيراً إلى أنَّ هناك لفتة دقيقة لطيفة، إذ قال: (يعبر عن الاستئذان بالاستئناس وهو تعبير يوحي بلطف الاستئذان، ولطف الطريقة التي يجيء بها الطارق، فتحدث في نفوس أهل البيت أنسابه، واستعداداً لاستقباله، وهي لفتة دقيقة لطيفة، لرعاية أحوال النفوس، ولتقدير ظروف الناس في بيوتهم، وما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها، ويحرجوا أمام الطارقين في ليل أو نهار)[3].

إنَّ الاستئناس أدق في التعريف من الاستئذان، وأدل على الاستعلام، فتستأنسوا: أي تطلبوا الأنس بأهلها، وتزيلوا الوحشة التي تحدثها المفاجأة، أمَّا الاستئذان فهو الإذن المجرد، وتتحقق الإجابة بالإذن، وإزلة الوحشة التي يدل عليها لفظ تستأنسوا لا يتحقق بمجرد الإذن بل لابد لتحققه من إيجاد الألفة، وهو يتضمن في تحقيق طلب الإذن، والاستجابة بالإذن فعلاً[4]. فلفظ الاستئناس يوحي بأنَّ القادم قد استأنس بمن يريد الدخول عليهم وهم قد أنسوا به، واستعدوا لاستقباله، فيدخل عليهم وهم متهيئون لحسن لقائه، فإذا ما صاحب كل ذلك التسليم عليهم، كان حسن اللقاء أتم وأكمل[5].

---

(١) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٣٩٤– ٣٩٥.

(٢) سورة النور: من الآية ٢٧.

(٣) في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٥٠٨.

(٤) ينظر: زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٧٥.

(٥) ينظر: التفسير الوسيط، ج١٠/ ص١٠٩.

ومما يدل على أنَّ المراد بالاستئناس الاستئذان، هو قوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[1]، فإنَّه تعالى قد علق الدخول على الاستئناس بأحد من يعرفه في الدار وإذنه له، وفي نسق التلاوة ما دل على أنَّه أراد الاستئذان في ختام هذه السورة ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2]، فالاستئذان في هذه الآية هو استئناس المستأذِن من الآذِن له، وقد يكون الاستئذان للحديث، كقوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾[3][4].

ونُلخص مما سبق أنَّ لفظي الاستئذان والاستئناس في القرآن الكريم بينهما تقارب دلالي، حيث يشتركان في معنى طلب السماح، وينفرد الاستئناس بلمح زوال الوحشة والتلطف في الطلب.

ثانياً: لقد تقررت مشروعية السلام في أول الإسلام ولم يكن خاصاً بحالة دخول البيوت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[5]، فلِم ذكره هنا مع الاستئذان؟

إنَّما ذكر السلام مع الاستئذان، مع أنَّه قد تقررت مشروعيته في أول الإسلام؛ للمحافظة عليه مع الاستئذان، لئلا يلهي الاستئذان الطارق فينسى السلام أو يحسب الاستئذان كافياً عن السلام[6].

ثالثاً: بالنظر إلى الآية السادسة والعشرين والآية الأولى من هذه السورة الكريمة نجدها قد ختمت رؤوس آيها بنفس الخاتمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؟

إنَّ اتحاد هاتين الآيتين بنفس الخاتمة فيه فائدة ذكرها سعيد حوى في تفسيره، بقوله: (هذا يفيد أنَّ التذكر كما يكون أثراً عن البيان، يكون أثراً عن تطبيق الأحكام، فلا

---

(١) سورة النور: من الآية ٢٨.

(٢) سورة النور: من الآية ٥٩.

(٣) سورة الأحزاب: من الآية ٥٣.

(٤) ينظر: أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الجصاص (ت:٣٧٠هـ) تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ج٣/ ص٤٠٠؛ قبسات من سورة النور، ص١٥٦.

(٥) سورة النساء: من الآية ٨٦.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٩٨.

يكون الإنسان لله ذاكراً إلّا باجتماع الذكر، وقراءة القرآن، وتطبيق الأحكام)[1].

رابعاً: في قوله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾[2]، ولم يقل (هو خير لكم)؟

ذلك لأنَّ كلمة ﴿أَزْكَىٰ ﴾ مشتقة من (الزكاة) التي تطهّر النفوس، وتحدّ من جبروتها، فلقد اختصر البيان القرآني كلّ ما يمكن أن يحدث في عدم الاستئذان من قبائح ومنكرات بكلمة ﴿أَزْكَىٰ ﴾[3].

خامساً: في قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[4]، قدَّم الجار ﴿بِمَا ﴾ مع عملهم على علمه سبحانه، ولم يقل (والله عليم بما يعملون)؟

قال البقاعي: (ولَمَّا كان المراد المبالغة في العلم، قدم الجار ﴿بِمَا ﴾ ليصير كما إذا سألت شخصاً عن علم شيء فقال لك: ما أعلم غيره، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: وإن التبس أمره على أحذق الخلق ﴿عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء منه وإن دق)[5].

جاء في زهرة التفاسير: (قدم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ على ﴿عَلِيمٌ ﴾ للأهمية وللاختصاص)[6].

لو نظرنا إلى سياق الآية لوجدناها تتحدث عن العمل، فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا ﴾ عمل، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ عمل، وقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ عمل، فالله تعالى قدم ذكر العمل ثم أشار أنَّ الله عليم بذلك العمل.

(١) الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٧٢٩.

(٢) سورة النور: من الآية ٢٨.

(٣) ينظر: جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، دار المكتبى، ط٢ (دمشق/١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص٢٦٥

(٤) سورة النور: من الآية ٢٨.

(٥) نظم الدرر، ج٥/ ص٢٥٤.

(٦) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٧٨.

المبحث الثاني

أحكام النظر والحجاب، ويشمل الآيتين (٣٠-٣١)

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١].

توطئة:

جاءت هذه الآيات لتتحدث عن الجوارح التي بطبيعتها قد جُبلت على حب الشهوة، المؤدية إلى ارتكاب المعصية، كما صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ))[٢][٣].

إنَّ إطلاق اسم الزنا على نظر العين إلى ما لا يحل، دليل واضح على تحريمه والتحذير منه، ومعلوم أنَّ النظر سبب الزنا، فإنَّ من أكثر من النظر إلى جمال امرأة مثلاً، قد يتمكن بسببه حبها من قلبه تمكناً يكون سبب هلاكه؛ لأنَّ النظر بريد الزنا[٤].

---

(١) سورة النور: الآية ٣٠- ٣١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، رقم الحديث (٦٢٤٣) من رواية: أبي هريرة ﷺ، ج٨/ ص٥٤؛ صحيح مسلم، كتاب القدر، باب قدر على بن آدم حظه من الزنا وغيره، رقم الحديث (٢٦٥٧) من رواية: أبي هريرة ﷺ، ج٤/ ص٢٠٤٦.

(٣) ينظر: أسوار العفاف، ص٢٥.

(٤) ينظر: أضواء البيان، ج٥/ ص٥١٠.

قال صريع الغواني[١][٢]:

كَسَبَتْ لِقَلْبِي نَظْرَةً لِتَسُرَّهُ عَيْنِي فَكَانتْ شِقْوَةً وَوَبَالًا

مَا مَرَّ بِي شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْهَوَى سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْهَوَى وَتَعَالَى.

الشاهد فيه: قوله (كسبت لقلبي نظرة) في هذه العبارة يُبيِّن أنَّ عدم غضه للبصر، أوقعه في تعب وشدة.

لهذا فقد أمر الله تعالى عباده بغض البصر وحفظه وصرفه عما لا يجوز النظر إليه، فحفظ الفرج هو ثمرة طبيعية لغض البصر، ومن استطاع امتناع عينيه من النظر إلى الحرام، فإنَّه سيتحكم بإرادته لحفظ فرجه، وبعد ذلك تتحقق طهارة النفس، وطهارة المجتمع من كل المظاهر التي تؤدي إلى انتشار الفاحشة، فما أمرهم به سبحانه وتعالى هو للمحافظة على العورات من النظر؛ لأنَّ النظرة الحرام قد يستتبعها البحث عن المعصية، فيأتي غضُّ البصر كوسيلة وقائية مانعة من وقوع المعصية، وهذا يساهم في تحقيق التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع[٣].

قال محمد عزة: (الآية هي بسبيل حث المؤمنين على التمسك بأهداب العفة، وتوقي أسباب الفتنة والفاحشة، وعلى عدم التبذل في كشف ما لا يأتلف مع الحياء من أجسادهم وعوراتهم، وكل هذا أدب رفيع متسق مع الذوق السليم والخلق الكريم في كل ظرف ومكان)[٤].

قال ابن عاشور: (في هذا الأمر بالغض، أدب شرعي عظيم في مباعدة النفس عن التطلع إلى ما عسى أن يوقعها في الحرام، أو ما عسى أن يكلفها صبراً شديداً عليها)[٥].

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيتين الكريمتين.

---

(١) هو أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري، شاعر سماه هارون الرشيد بصريع الغواني، كوفي نزل بغداد، وكان مدَّاحاً بليغاً، له ديوان اسمه: (ديوان صريع الغواني) توفي سنة (٢٠٨هـ). ينظر: تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت:٤٦٣هـ) تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١ (بيروت/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ج١٥/ ص١١٦؛ سير أعلام النبلاء، ج٧/ ص٣٥٥.

(٢) شرح ديوان صريع الغواني، أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري (٢٠٨هـ) تحقيق: الدكتور سامي الدهان، دار المعارف، ط٣ (القاهرة/ د.ت) ص٢٠١.

(٣) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢١٢، ٢١٤.

(٤) التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٠٢.

(٥) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٠٤.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

إنَّ هاتين الآيتين هما فصل جديد أو موضوع جديد، والتناسق الموضوعي ملموح بينه وبين الموضوع السابق، فإذا لم تكن نزلت بعده فيكون ترتيبها في مكانها بسبب الصلة الموضوعية(١).

بعد التأمل والتفكر في هاتين الآيتين، تبين أنَّ تناسق آيات هذا الموضوع مع الموضوع السابق واضحة جدا، ووضوحها يظهر في قول النبي ﷺ، السابق ذكره: ((إِنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ))(٢).

تناسق موضوع غضُّ البصر مع الموضوع السابق الذي تحدث عن آداب الاستئذان، لِمَا بينهما من علاقة وترابط، لأنَّه بعد الاستئذان والدخول إلى البيوت، سيحدث الاختلاط، ومن المحتمل أن يقع البصر على ما يحرم النظر إليه، فجاءت آيات هذا الموضوع تأمر المؤمنين بغض البصر لتحميهم من خطوات الشيطان التي قد تؤدي إلى الهاوية والوقوع في الزنا.

قال ابن عاشور: (أعقب حكم الاستئذان ببيان آداب ما تقتضيه المجالسة بعد الدخول، وهو أن لا يكون الداخل إلى البيت محدقاً بصره إلى امرأة فيه، بل إذا جالسته المرأة غض بصره، واقتصر على الكلام، ولا ينظر إليها إلَّا النظر الذي يعسر صرفه)(٣).

تناسقت هذه الآيات بما قبلها تناسقاً محكماً؛ لأنَّها تمثل الخطوة الثانية التي وضعها الإسلام في منهجه لاستئصال فاحشة الزنا من المجتمع، فجاء أمر الله تعالى بان يغض المؤمنين والمؤمنات أبصار بعضهم عن بعض إذا ما حصلت الخلطة بعد الاستئذان(٤).

---

(١) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٠١- ٤٠٣.

(٢) سبق تخريجه، ص١٨٤.

(٣) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٠٣.

(٤) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢١١.

قال محمد حجازي: (هذا حكم آخر من الأحكام التي تحفظ العرض، ويصان النسب، وتمنع الفحشاء، ويبعد الزنا، فالإذن قبل الدخول، والحجاب وعدم النظر ومنع الاختلاط، مما يباعد بلا شك بين الشخص وبين الخطر)[١].

فما زالت الآيات توضح الأسباب التي تأخذ بيد المسلم المؤمن بعيداً عن المعاصي، فتشير الآيات إلى أنَّ النظر والتبرج هما علة الوقوع في هذه المعاصي، وانَّ الواجب على المسلمين أن يلتزموا بالاستئذان وكف البصر، ثم بين للنساء ما يجب إظهاره من الزينة وما يجب إخفاؤه منها، وبهذا يبدو واضحاً جلياً التناسق الكامل بين النهي الوارد في آيات الموضوع السابق وبين موضوع غض البصر[٢].

مسألة غض البصر التي يأمرنا بها الله تعالى في هذه الآية، هي صمام الأمان الذي يحمينا من الانزلاق في الجريمة البشعة التي بدئت بها هذه السورة، وللإنسان وسائل إدراكات متعددة، لكن أفتن شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس هي حاسة البصر؛ لذلك وضع الشارع الحكيم المناعة اللازمة في طرفي الرؤية في العين الباصرة وفي الشيء المبصر، فأمر المؤمنين بغض أبصارهم، وأمر المؤمنات بعدم إبداء الزينة، وهكذا جعل المناعة في كِلا الطرفين، ليسد منافذ فساد الأعراض، ويمنع أسباب تلوث النسل[٣].

قال عبد الكريم الخطيب: (هاتان الآيتان تشرحان تلك الإشارة الخفية التي جاءت في الآية السابقة عليهما ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾[٤]، حيث جاءت الآيتان تدعوان إلى غضّ الأبصار، وحفظ الفروج، وهي أمور تقع غالباً في خفاء وستر، فجاءت الآيتان تصرحان بالأمر بما هو مطلوب من المؤمن، والمؤمنة، وهو غض البصر، وحفظ الفرج)[٥].

ذكر أيضاً وهبة الزحيلي سبب التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق، فقال: (إنَّ الدخول إلى البيوت مظنة الاطلاع على العورات، لذا أمر المؤمنون والمؤمنات

---

(١) التفسير الواضح، ج٢/ ص٦٧٤.

(٢) ينظر: قبسات من سورة النور، ص١٦٤- ١٦٥.

(٣) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٤٨- ١٠٢٤٩.

(٤) سورة النور: من الآية ٢٩.

(٥) التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٦٣.

بغض البصر بصورة حكم عام، يشمل المستأذن للدخول إلى البيوت وغيره، فيجب على المستأذن التحلي به عند الاستئذان والدخول، منعاً من انتهاك الحرمات المنهي عنها، كما يجب على النساء عدم إبداء الزينة لأحد إلَّا للمحارم، لِمَا في ذلك من الفتنة الداعية إلى الوقوع في الحرام، كالنظر الذي هو أيضاً بريد الزنا، فالجامع بين حكم النظر والحجاب، سد الذرائع إلى الفساد)[١].



(١) التفسير المنير، ج١٨/ ص٢١٣.

المطلب الثاني

تفسير الآيتين في ضوء تناسقها الموضوعي

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(١).

قال الالوسي: (غض البصر هو: إطباق الجفن على الجفن)(٢).

إنَّ الله تعالى أمر عباده المؤمنين بغضِّ البصر، وحفظه، وصرفه عما لا يجوز النظر إليه من مفاتن المرأة الأجنبية من غير المحارم.

قال ابن كثير: (هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلَّا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعاً)(٣).

كما صحَّ عن احد الصحابة أنَّه قال: (سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفُجاءة، فأمرني أن اصرف بصري)(٤).

مبدأ الفتنة من فضول النظر، وإنَّما يتسلط الشيطان على ابن آدم، وينال منه غرضه عن طريق النظر، فيدعو بالنظر إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به، فالحوادث العظام إنَّما هي كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة(٥). وكما قال الشاعر(٦):

---

(١) سورة النور: الآية ٣٠.

(٢) روح المعاني، ج٩/ ص٣٣٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج٦/ ص٣٨.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب نظرة الفجاءة، رقم الحديث (٢١٥٩) من رواية: جرير بن عبد الله ﷺ، ج٣/ ص١٦٩٩.

(٥) ينظر: تفسير القرآن الكريم، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) تحقيق: الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، ط١ (بيروت/١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) ص٦٩٠.

(٦) ورد هذا البيت في كتب ابن القيم ولم يذكر قائله: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص٩٧؛ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) دار المعرفة، ط١ (المغرب/ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) ص١٥٣؛ روح المعاني، ج٩/ ص٣٣٤.

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَر وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

كَمْ نَظْرَةٌ بَلَغَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا كَمَبْلَغِ السَّهْمِ بَيْنَ الْقَوْسِ وَالْوَتَرِ

وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا طَرْفٍ يُقَلِّبُهُ فِي أَعْيُنِ الْعِينِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ

يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ لا مَرْحباً بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ.

فغض البصر من جانب الرجال أدب نفسي، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، كما أنَّ فيه إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية، وهو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة، ويقظة الرقابة(١).

قال تعالى: ﴿ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ ﴾ والمراد من الحفظ هنا، هو: حفظها من أن تباشر غير ما أباحه الشرع والدين(٢).

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ ﴾ أي: (غض البصر، وحفظ الفروج أطهر لكم، فيكون المجتمع طاهراً نقياً سليماً، والبيوت طاهرة سليمة، وهم في ذات أنفسهم أطهار طيبون، ويكونون خيرًا في خير يظلهم الخير دائماً، ويكونون في قبة من الفضيلة تظلهم، وتؤدى بهم جميعاً إلى جنة الآخرة، كما كانوا في ظلة من الفضيلة في الدنيا)(٣).

قال ابن عاشور في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾: (ذيل الله تعالى بجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾؛ لأنَّه كناية عن جزاء ما يتضمنه الأمر من الغض والحفظ؛ لأنَّ المقصد من الأمر الامتثال)(٤).

عبر عز وجل بالصنعة في قوله تعالى: ﴿ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾؛ لأنَّ وازع الحياء لا يُخالف إلَّا بمعالجة وتدرب، أي: وإن تناهوا في إخفائه، ودققوا في تدبير المكر فيه(٥).

ثم قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ

(١) ينظر: في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٥١٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٠٤.

(٣) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٨١.

(٤) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٠٤.

(٥) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٥٧.

ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١].

إنَّ توجيه الأمر للمؤمنين بغض البصر لا يمكن أن يثمر العفة والطهارة التي يهدف إليها الإسلام، إلَّا إذا أمرت المرأة بنفس التكليف السالف للمؤمنين، ولأجل ذلك أمر الله تعالى المؤمنات بغضِ البصر وحفظ الفرج، وزادهن في التكليف وذلك بالنهي عن إبداء الزينة، إلَّا لمن استثنتهم الآية[٢].

قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: (ذكر عز وجل الزينة دون مواقعها؛ للمبالغة في الأمر بالتصوّن والتستر؛ لأنَّ هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهي الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن، فنهى عن إبداء الزينة نفسها)[٣].

ووصف الله تعالى الزينة بأنَّ منها ظاهراً، وهذا يدل على أنَّ هناك زينة باطنة، واختلف العلماء في الزينة الظاهرة على ثلاثة أقوال، **الأول**: إنَّها الثياب. **الثاني**: الكحل والخاتم. **الثالث**: إنَّه الوجه والكفان. فالقول الثاني والثالث بمعنى واحد؛ لأنَّ الكحل والخاتم في الوجه والكفين، إلَّا أنَّه يخرج عنه بمعنى آخر، وهو أنَّ الذي يرى الوجه والكفين هي الزينة الظاهرة يقول ذلك ما لم يكن فيها كحل أو خاتم، فإن تعلق بها الكحل والخاتم وجب سترها، وكانت من الباطنة، فأمَّا الزينة الباطنة فالقرط والقلادة والخلخال وغيره[٤].

قال الزمخشري: (سومح مطلقاً في الزينة الظاهرة؛ لأنَّ سترها فيه حرج، والمرأة لا تجد بُدَّاً من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها، خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها، وخاصة الفقيرات

---

(١) سورة النور: الآية ٣١.

(٢) ينظر: التفسير القرآني لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢١٢.

(٣) الكشاف، ج٣/ ص٢٣٠.

(٤) ينظر: أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٨١- ٣٨٢.

منهن، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يعني: إلَّا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره والأصل فيه الظهور)[١].

قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والخُمر جمع خمار، والخمار هي المقنعة التي تغطي به رأسها[٢].

وصحَّ عن أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها" أنَّها قالت: (يرحم الله نساء المهاجرات الأُول، لَمَّا انزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مُرُوطَهنَّ[٣]، فاختمرن بها)[٤].

وبعد أن أمر الله تعالى المؤمنات بغض البصر وحفظ الفرج، جاء الاستثناء ليبين أنَّ لهن إظهار الزينة للزوج، وكذلك المحارم الذين يطلعون على بعض الزينة، وأوضح البيضاوي السبب في جواز إظهار الزينة أمام المحارم الذين استثنتهم الآية، بقوله: (وذلك لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، لما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة)[٥].

هؤلاء المحارم ليسوا على مستوى واحد في ما يجوز من النظر إلى زينة المرأة. قال أبو حيان: (بدأ تعالى بالأزواج؛ لأنَّ اطلاعهم يقع على أعظم من الزينة، ثم ثنى بالمحارم وسوى بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم في الحرمة بحسب ما في نفوس البشر، فالأب والأخ ليس كابن الزوج، فقد يبدى للأب ما لا يبدى لابن الزوج)[٦].

الأنواع الباقية الذين استثنتهم الآية الكريمة ممن يجوز لهم النظر إلى زينة المرأة

---

(١) الكشاف، ج٣/ ص٢٣١.

(٢) ينظر: أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٨٢؛ الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٣٠.

(٣) مروطهن: جمع مرط، وهو إزار أو كساء من خز أو صوف أو كتان. ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ج٩/ ص١٧٠؛ لسان العرب، ج٧/ ص٤٠١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ رقم الحديث (٤٧٥٨) من رواية: أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، ج٦/ ص١٠٩.

(٥) أنوار التنزيل، ج٤/ ص١٠٥.

(٦) البحر المحيط، ج٨/ ص٣٤.

فهم: الأب، وأب الزوج، والأبناء، وأبناء الزوج، والإخوان، وأبناء الإخوان، وأبناء الأخوات، وهؤلاء لا خلاف فيهم.

أمَّا النساء أو ملك اليمين، والتابعين غير أولي الإربة، أي: الغير المحتاجين إلى الوطء، من الرجال البُله المغفلين، والأطفال الذين لا تثيرهم المرأة لصغر سنهم، فقد اختلف العلماء فيهم، وفصلوا وتوسعوا، ولا يسع المقام لذكرهم وتفصيلهم[١].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع قعقعة خلخالها، ومعلوم أنَّ الرجل الذي يغلب عليه شهوة النساء إذا سمع صوت الخلخال يصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتهن، وعلل الله تعالى ذلك بأن قال: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فنبه به على أنَّ الذي لأجله نهي عنه أن يعلم زينتهن من الحلي وغيره[٢].

قال أبو السعود في معنى الآية: (أي: ولا يضربن بأرجلهن الأرض، ليتقعقع خلخالهن فيعلم أنهن ذوات خلخال، فإنَّ ذلك مما يورث الرجال ميلا إليهن، ويوهم أنَّ لهن ميلا إليهم، وفي النهي عن إبداء صوت الحلي بعد النهي عن إبداء عينها، من المبالغة في الزجر عن إبداء موضعها مالا يخفى)[٣].

إنَّ الإنسان من حيث جبل على النقص لا يخلو عما يوجب عليه التوبة، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب، فإن خلا عنه فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده، والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنَّما يتفاوتون في المقادير،

(١) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص١٦٠- ١٦١؛ أحكام القرآن للجصاص، ج٣/ ص٤١١- ٤١٢؛ أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٨٥- ٣٨٩؛ الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٣٣- ٢٣٧؛ التسهيل، ج٢/ ص٦٧.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٣٦٧.

(٣) إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٧١.

فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1].

أي: ارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله تعالى فيما أمركم ونهاكم من غضّ البصر، وحفظ الفرج، وترك دخول بيوت غير بيوتكم، من غير استئذان ولا تسليم، وغير ذلك مما أمركم به ونهاكم عنه؛ لتفلحوا وتدركوا طلباتكم لديه، إذا أنتم أطعتموه فيما أمركم ونهاكم[2].

قال النسفي: (العبد لا يخلو عن سهو وتقصير في أوامره ونواهيه وإن اجتهد فلذا وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة وبتأميل الفلاح إذا تابوا وقيل أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس له حاجة بالتوبة وظاهر الآية يدل على أن العصيان لا ينافي الإيمان)[3].

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: قدَّم عز وجل غضَّ البصر على حفظ الفرج في قوله: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ ﴾ وإنَّما حفظ الفرج أعظم؟

أوضح كثير من المفسرين هذه الإشارة بقولهم: إنَّ السبب في تقديم غضُّ الأبصار على حفظ الفروج؛ هو أنَّ النظر يعتبر بريد الزنا، وإنَّ البلوى فيه أشد وأعظم، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه، فلا يعف الفرج إلَّا بعفاف النظر[4].

قال صاحب زهرة التفاسير: (إبتدأ سبحانه وتعالى بالأمر بغض البصر؛ لأنَّه الباب الأكبر إلى القلب، ولأنَّ النظرة المريبة ذريعة إلى أكبر الفحش، ولأنَّ النظر المحصف يناقض الحياء، ولأنَّه يؤذي النساء، فيمنعهن من قضاء شؤونهن خارج منازلهن، وما لهن بد من أدائها، ولأنَّ غض البصر، ينشر اللياقة والحياء العام، والحياء خير كله)[5].

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت:٥٠٥هـ) دار المنهاج، ط٢ (جدة/١٤٣٤هـ/٢٠١٣م) ج٧/ ص٣٦.

(٢) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص١٦٥.

(٣) مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥٠٢.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٣٦٣؛ أنوار التنزيل، ج٤/ ص١٠٤؛ مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥٠٠.

(٥) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٨٠.

ثانياً: إنَّ من الأسرار التي تدق على الأفهام، هي دخول من الجارة على غض الأبصار، دون الفروج[1]، في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾[2]؟

السر في ذلك بيَّنه الزمخشري بقوله: (إنَّ أمر النظر أوسع، ألا ترى أنَّ المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهنّ وصدورهنّ وأعضادهنّ وأسوقهنّ وأقدامهنّ، وكذلك الجواري المستعرضات للبيع ... وأمَّا أمر الفرج فمضيق)[3]. وقال أبو حيان مثل هذا القول[4].

قال صاحب الجواهر الحسان: (أظهر ما في ﴿مِنْ﴾ أَن تكون للتبعيض؛ لأَنَّ أول نظرة لا يملكها الإنسان، وإنَّما يغضُّ فيما بعد ذلك، فقد وقع التبعيض بخلاف الفروج إذ حفظها عام لها، والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذيرُ منه، وحفظُ الفرج هو عن الزنا وعن كشفه حيث لا يحل)[5].

ذكر ابن العربي أنَّ للعلماء ثلاثة أقول في سبب دخول (من) المقتضية للتبعيض في قوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ وعدم دخولها في قوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، فقال: (للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال، **الأول:** إنَّ غض الأبصار مستعمل في التحريم؛ لأنَّ غضها عن الحلال لا يلزم، وإنَّما يلزم غضها عن الحرام؛ فلذلك أدخل حرف التبعيض في غض الأبصار، فقال: من أبصارهم. **الثاني:** إنَّ من نظر العين ما لا يحرم، هو النظرة الأولى، فما زاد عليها محرم، وليس من أمر الفرج شيء ما يحلل. **الثالث:** إنَّ من النظر ما يحرم، وهو ما يتعلق بالأجانب ومنه ما يحلل، وهو ما يتعلق بالزوجات وذوي المحارم، بخلاف الفرج؛ فإنَّ ستره واجب في الملأ والخلوة)[6].

(١) ينظر: الجدول في إعراب القرآن، ج١٨/ ص٢٥٦.

(٢) سورة النور: من الآية ٣٠.

(٣) الكشاف، ج٣/ ص٢٢٩.

(٤) ينظر: البحر المحيط، ج٨/ ص٣٢.

(٥) الجواهر الحسان، ج٤/ ص١٨٢.

(٦) أحكام القرآن، ج٣/ ص٣٧٧.

تظهر الفائدة من ذكر ﴿مِنْ﴾ في غض البصر دون حفظ الفرج؛ وذلك للدلالة على أنَّ حكم النظر أخف من حكم الفرج، ما إذ يحل النظر إلى بعض أعضاء المحارم، ولا يحل شيء من فروجهن[١].

ثالثاً: من المعلوم أنَّ كل أمر في القرآن الكريم للمؤمنين، هو أيضاً للمؤمنات، ولكن في هذا الموضوع جاءت الآية الأولى للمؤمنين، ثم تبعتها الآية الأخرى للمؤمنات؟

قال محمد حجازي: (كل أمر في القرآن للمؤمنين فهو كذلك للمؤمنات، ولكنَّه أعيد الحكم هنا مع المؤمنات؛ لأنَّ النساء في أشد الحاجة إلى ذلك، على أنَّ الحكم من أخطر الأحكام التي تقتضي التفصيل والبيان)[٢].

رابعاً: ذكر عز وجل عدم إبداء الزينة بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[٣] ثم كرره بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[٤]؟

جاء هذا التكرار للتأكيد، وأيضاً لبيان من يحل له إبداء الزينة، ومن لا يحل له الإبداء[٥].

خامساً: ترك الله تعالى ذكر الأعمام والأخوال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[٦]، وهم من المحارم وذكرهم ذكر من استثنى من الآية؟

سُئل الشعبي[٧]، عن ذلك فقال: (لئلا يصفها العم لابنه، وهو ليس بمحرم لها، وكذا الخال فيفضي إلى الفتنة، والمعنى فيه أنَّ كل من استثني يشترك هو وابنه في

(١) ينظر: فتح الرحمن، ص٣٩٤.

(٢) التفسير الواضح، ج٢/ ص٦٧٤.

(٣) سورة النور: من الآية ٣١.

(٤) سورة النور: من الآية ٣١.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل، ج٤/ ص١٠٥؛ نظم الدرر، ج٥/ ص٢٥٨.

(٦) سورة النور: من الآية ٣١.

(٧) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري، تابعي، من رجال الحديث الثقات، كان فقيهاً شاعراً، توفي سنة (١٠٣هـ). ينظر: تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ) مطبعة دائرة المعارف النظامية، ط١ (الهند/١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ج٥/ ص٦٥، ٦٩؛ الأعلام، ج٣/ ص٢٥١.

المحرميـة، إلَّا العـم والخـال، وهـذا مـن الدلالـة البليغـة علـى وجـوب الاحتيـاط فـي سترهن)[1]. وأيضاً فقد ترك الله تعالى ذكرهم كما ترك محرم الرضاع، أو لفهمهما من بني الإخوان وبني الأخوات، بالأولى أو بالمساواة[2].

قال البيضاوي: (إنَّما لم يذكر الأعمام والأخوال؛ لأنَّهم في معنى الإخوان، أو لأنَّ الأحوط أن يتسترن عنهم، حذراً أن يصفوهن لأبنائهم، أو نسائهن)[3].



(١) الموسوعة القرآنية خصائص السور، ج٦/ ص٩٣.

(٢) ينظر: فتح الرحمن، ص٣٩٥.

(٣) أنوار التنزيل، ج٤/ ص١٠٥.

المبحث الثالث

زواج الأحرار ومكاتبة الأرقاء، ويشمل الآيات (٣٢- ٣٤)

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١].

توطئة:

جاءت هذه الآيات لترغب في الزواج وتحث عليه، فقد جعل الإسلام الزواج من القربات إلى الله تعالى؛ لأنَّه الطريق الآمن لتنظيم علاقة الرجل بالمرأة، ولبناء الأسرة الصالحة، ولقد أمر به النبي محمد ﷺ، وحث عليه، فقال ((مَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلَيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي، وَمِنْ سُنَّتِي النِّكَاحُ))[٢]، ثم دعا عز وجل أولياء الأمور إلى تزويج الشباب والبنات، وتسهيل العقبات التي تعترض طريق الزواج، وخاصة العقبات المالية، مما جعل الكثير يخاف من الزواج ويتهيبون من الفقر، وما هذا إلَّا وسوسة من الشيطان تزهيداً لهم بالزواج، وإفساحاً وترويجاً للفاحشة، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣][٤].

قال ابن عاشور: (أردفت أوامر العفاف بالإرشاد إلى ما يعين عليه، ويعف نفوس

---

(١) سورة النور: الآية ٣٢- ٣٤.

(٢) مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (ت:٢١١هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط٢ (بيروت/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ج٦/ ص١٦٨؛ السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت:٤٥٨هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط٣ (بيروت/١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ج٧/ ص١٢٤. قال الهيثمي: رجاله ثقات. ينظر: مجمع الزوائد، ج٤/ ص٢٥٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

(٤) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٢٠- ٢٢١.

المؤمنين والمؤمنات، ويغض من أبصارهم، فأمر الأولياء بأن يزوجوا أياماهم ولا يتركوهن متأيمات؛ لأنَّ ذلك أعف لهن وللرجال الذين يتزوجونهن، وأمر السادة بتزويج عبيدهم وإمائهم، وهذا وسيلة لإبطال البغاء كما سيتبع به في آخر الآية)[1].

على ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيات الكريمة.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

يظهر مدى التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق بالنظر إلى ما أمرت به الآيات السابقة من غض البصر، وحفظ الفرج، وأن تستر النساء أجسامهن، وعدم إبداء زينتهن إلَّا لطائفة من الرجال ذكرتهم الآية، وكل تلك المقدمات تهدف إلى حماية المجتمع من آفة الزنا، ثم جاء العلاج في هذا الموضوع، الذي يهدف للإرشاد إلى الطريق الصواب وهو الزواج[2].

ففي موضوعات السورة تناسق بديع، فإنَّه لَمَّا ذكر في الآيات السابقة ما يصون الأسرة في كيانها، وما يصون النساء من قول السوء، وما تمس عفتهن بالأنظار الجارحة، أمر الرجال بغض البصر، وأمر بأن تكون نظرات النساء غير مغرية لأهل السوء، وألَّا يكون إبداء الزينة مغريا لأهل الدعارة والفساد، وكل هذا كان لحماية النفوس من الشر، وبعد ذلك بين الأمر الإيجابي الذي يصون المرأة، وهو سبيل العفة، وطريقها، وهو النكاح[3].

إنَّ الموضوع السابق كان يتكلم عن غض البصر وحفظ الفرج، وأنَّ هذه الأمور لا تحل للمسلم، ثم جاء هذا الموضوع للإرشاد إلى طريق الحِلّ، ويبين ما يحل للعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة وسكون دواعي الزنا، ويسهل بعده غض البصر عن

(١) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢١٥.

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢١٧.

(٣) ينظر: زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٨٦.

جميع المحرمات، فتناسقت الموضوعات السابقة بهذا الموضوع تناسقاً حكيماً[(١)].

الآية تحتوي موضوعاً مستقلاً عن الموضوع السابق، غير أنَّ التناسق الموضوعي غير مفقود، ولقد أورد المفسرون في سياق هذه الآية حديثاً نبوياً عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))[(٢)]، وهذا الحديث يجعل بين هذه الآية والموضوع السابق صلة تعقيبية، على اعتبار أنَّ المتزوجين أبعد عن الافتتان وأقدر على العفة واجتناب مزالق الفاحشة، وهذا مما استهدفه الموضوع السابق، ولفظ الحديث متصل بما جاء في الآيات السابقة، ومن المحتمل أن تكون الآية قد نزلت مع الموضوعات السابقة، أو أعقبتهم فوضعت في ترتيبها، وإلَّا فيكون ذلك بسبب التناسق الموضوعي[(٣)].

قال المراغي: (لَمَّا أمر سبحانه بغض الأبصار وحفظ الفروج ونحوهما مما يفضى إلى السفاح أعقبه بالأمر بإنكاح الأيامى؛ لأنَّه الوسيلة لبقاء هذا النوع، وحفظ الأنساب الذي يستدعى مزيد الشفقة على الأولاد وحسن تربيتهم ودوام الألفة بينهم)[(٤)].

إنَّ الشارع الحكيم عندما يُشرِع أمراً ما، فإنَّه يستولي بالتشريع على كل ثغرات الحياة، فلا يعالج جانباً ويترك جانباً، فلما تكلم عز وجل عن مسألة حفظ الفروج ودعا إلى الحفاظ على طهارة الأنساب، أراد أن يتكلم عن هؤلاء الرجال أو النساء الذين لم يتيسر لهم أمر الزواج، وذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه[(٥)].

---

(١) ينظر: اللباب، ج١٤/ ص٣٦٣؛ فتح البيان، ج٩/ ص٢١٢؛ قبسات من سورة النور، ص١٧٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، رقم الحديث (٥٠٦٦) من رواية: بن مسعود ﷺ، ج٧/ ص٣؛ صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، رقم الحديث (١٤٠٠) من رواية: بن مسعود ﷺ، ج٢/ ص١٠١.

(٣) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٤٠- ٤١٤.

(٤) تفسير المراغي، ج١٨/ ص١٠٢؛ ينظر: التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٣٠.

(٥) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٦١.

قال البقاعي: (لَمَّا تقدم سبحانه إلى عباده في الأمور العامة للأحوال والأشخاص في الزنا وأسبابه، فحكم وقرر، ووعظ وحذر، أتبعه أسباب العصمة التي هي نعم العون على التوبة)[1].

التناسق واضح بين هذا الموضوع وسابقه؛ لانَّ ما مضى من موضوعات في حكم الزنا وفظاعته، وأنَّه أمر يقتضي عقاباً خاصاً لمن يسب بها مسلماً بدون شهود على فعله، ثم جاءت قصة الإفك، وما فيها من آيات ومواعظ وحكم ومنافع، ثم كان الكلام على الإذن قبل الدخول، وعلى غض البصر، كل ذلك لأجل البعد عن الزنا، الذي هو من أكبر الفواحش والآثام، وبعد ذلك كان العلاج لهذا الداء الوبيل والخطر الجسيم، وهذا العلاج هو النكاح، أي: الزواج الذي هو حرز لنصف الدين، وتنفيس شرعي اجتماعي[2].

قال الزمخشري: (ما أحسن ما رتب هذه الأوامر، حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد من مواقعة المعصية وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وانصرافها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه)[3].



(١) نظم الدرر، ج٥/ ص٢٦٠.

(٢) ينظر: التفسير الواضح، ج٢/ ص٦٧٧– ٦٧٨.

(٣) الكشاف، ج٣/ ص٢٣٨؛ ينظر: مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥٠٣.

المطلب الثاني

تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

قال الزمخشري: (الأيامى واليتامى: أصلهما أيائم ويتائم، فقلبا. والأيم: للرجل والمرأة. وقد آم وآمت وتأيما: إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو ثيبين)[2]. قال الشاعر[3]:

فَإِنْ تَنْكِحِي أَنْكِحْ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي وَإِنْ كُنْت أَفْتَى مِنْكُمْ أَتَأَيَّمُ.

الشاهد فيه: قوله (تتأيَّمي) أشار بهذا اللفظ إلى المرأة التي لم تتزوج.

والخطاب في الآية للأولياء بتزويج من لا زوج له. قال القرطبي: (هذه المخاطبة تدخل في باب الستر والصلاح، أي: زوجوا من لا زوج له منكم فانه طريق التعفف، والخطاب للأولياء)[4].

خصص من العبيد والإماء الصالحين؛ وذلك لأنَّ إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم، وقيل المراد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه[5].

قال ابن عاشور: (ظاهر وصف العبيد والإماء بالصالحين، أنَّ المراد اتصافهم بالصلاح الديني، أي: الأتقياء، والمعنى: لا يحملكم تحقق صلاحهم على إهمال إنكاحهم، لأنَّكم آمنون من وقوعهم في الزنا، بل عليكم أن تزوجوهم رفقاً بهم ودفعاً لمشقة العنت عنهم، فيفيد أنهم إن لم يكونوا صالحين كان تزويجهم آكد أمراً)[6].

قال ابن برجان في هذه الآية: (إرشاداً منه تعالى إلى قطع الفاحشة من الإتباع والغاشية، وغيرهم يَنكِحون ليُغنوهم بذلك عن مقارفة الزنا، ثم وعدهم بالغنى إن خافوا

---

(١) سورة النور: الآية ٣٢.

(٢) الكشاف، ج٣/ ص٢٣٣.

(٣) لم أعثر على قائله، وورد في: النكت والعيون، ج٤/ ص٩٧؛ أحكام القرآن للجصاص، ج٣/ ص٤١٤؛ أنوار التنزيل، ج٤/ ص١٠٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٣٩.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل، ج٤/ ص١٠٥.

(٦) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢١٦.

الفقر، إن لم يجدوا طولاً للحرائر فلينكحوا الايامى حتى يغنيهم الله من فضله)[١].

قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

وصحَّ عن جابر ﷺ أنَّه قال: كان لعبدالله بن سلول جاريتان، وكان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

قوله تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ﴾ أي: ليجتهد في العفة وصون النفس، والنكاح في الآية هو اسم ما يمهر وينفق في الزواج، كاللحاف واللباس لما يلتحف به ويلبس، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ فالمأمور بالاستعفاف هو الاستعفاف من عدم المال الذي يتزوج به، ويقوم بمصالح الزوجية[٤]. والذين يطلبون الكتاب، أي: المكاتبة وهي: أن يدفع العبد أو الأمة مال إلى ساداتهم، ليصبحوا أحراراً[٥].

توسَّع المفسرون في توضيح المكاتبة بين السيد والعبد، وذكروا لذلك أقوالاً عدة، لا يتسع المقام لذكرها[٦].

الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ ظاهره أنَّه موجه إلى سادة العبيد؛ ليتناسق الخطابان، وهو أمر للسادة بإعانة مكاتبيهم بالمال الذي انعم الله به

---

(١) تنبيه الافهام، ج٤/ ص١٤٣.

(٢) سورة النور: الآية ٣٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ رقم الحديث (٣٠٢٩) من رواية: جابر بن عبدالله ﷺ، ج٤/ ص٢٣٢٠. الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي بن قائدة الهمداني (ت:١٤٢٢هـ) مكتبة بن تيمية، ط٤ (القاهرة/ ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م) ص١٥٠.

(٤) ينظر: البحر المحيط، ج٨/ ص٣٨.

(٥) ينظر: أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٩٧.

(٦) ينظر: أحكام القرآن للجصاص، ج٥/ ص١٨٠- ١٨٧؛ أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٣٩٧- ٤٠١؛ الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٤٤- ٢٥٤.

عليهم، فيكون ذلك بالتخفيف عنهم من مقدار المال الذي وقع التكاتب عليه[١].

انتقل السياق القرآني إلى تشريع شؤون المعاملات بين الرجال والنساء التي لها أثر في الأنساب، وشؤون حقوق الموالي والعبيد، وهذا الانتقال لمناسبة ما سبق من حكم الاكتساب المنجر من العبيد لمواليهم، وهو الكتابة فانتقل إلى حكم البغاء، والبغاء: هو أن تتعاطى المرأة الزنا بالأجر حرفة لها، فهو زنا بأجرة[٢].

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾، هذا خطاب خرج مخرج تعديد قبيح الأفعال، وكان ذلك شائعاً في الجاهلية، فاستاق ذكر ذلك تعييباً وتمقيتاً؛ لذلك قال تعالى: ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: غفور لذنوهم، رحيم بهن[٣]. كما قال رسول الله ﷺ: ((وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ، وَالنِّسْيَانُ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))[٤].

هذه المغفرة إنَّما هي للمكره لا للذي اكره عليه، ولذلك كان يقرأها ابن مسعود: (فان الله من بعد إكراه لهن غفور رحيم) والمغفرة تتعلق بالمكره المضطر إليه فضلاً من الله تعالى، كما قال في الميتة: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥][٦].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٧].

ذيلت الأحكام والمواعظ التي سبقت بإثبات نفعها وجدواها، لِما اشتملت عليه مما ينفع الناس، ويقيم عمود جماعتهم، ويميز الحق من الباطل، ويزيل من الأذهان اشتباه

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٢٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٢٢.

(٣) ينظر: تنبيه الافهام، ج٤/ ص١٤٣- ١٤٤.

(٤) سنن بن ماجة، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم الحديث (٢٠٤٥) من رواية: بن عباس رضي الله عنه، ج١/ ص٦٥٩. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. ينظر: مجمع الزوائد، ج٦/ ص٢٥٠.

(٥) سورة البقرة: من الآية ١٧٣.

(٦) ينظر: أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٤٠٢.

(٧) سورة النور: الآية ٣٤.

الصواب بالخطأ، ووصف هذه الآيات المنزلة بثلاث صفات كما وصف السورة في مطلعها بثلاث صفات، والمقصد من الأوصاف في الموضعين هو الامتنان، فكان هذا يشبه رد العجز على الصدر[1].

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ فيه استئناف، جيء به لبيان ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة، وبيان جلالة شؤونها المستوجبة للإقبال على العمل بمضمونها، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ عطف على آيات، أي: وأنزلنا مثلا من قبيل أمثال الذين مضوا من قبلكم من القصص العجيبة، فتنتظم قصة عائشة "رضي الله عنها" المحاكية لقصة يوسف عليه السلام وقصة مريم "رضي الله عنها" وسائر الأمثال الواردة في السورة الكريمة انتظاماً واضحاً، ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ تتعظون وتميلون بها عما لا ينبغي من المحرمات والمكروهات، وسائر ما يخل بمحاسن الآداب، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال عز وجل للمتقين مع أنَّ الموعظة للكل؛ وذلك حثاً للخاطبين على الاعتناء بالانتظام في سلك المتقين[2].

الآية هي ختام لآيات الأحكام، التي جاءت بها السورة، من قوله تعالى:﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾، وهي في هذا أشبه بالبدء الذي بدأت به السورة، في قوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، فبدء السورة كان إعلاناً بنزول آيات بينات، وقد نزلت هذه الآيات البينات، متضمنة تلك الأحكام الخاصة بحرمات الفروج، وحين انتهت الآيات من بيان هذه الأحكام، جاء قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ ليذكِّر بتحقيق هذا الخبر الذي أعلنته السورة في أول آية منها، وليلفت الأنظار إلى أنَّ هذه الآيات، هي الآيات البينات، التي أشارت إليها الآية الأولى من السورة، فليتحققوا من هذا الوصف، وليطلبوه منها، وليكون لهم منه عبرة وموعظة[3].

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٢٨.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٧٤.

(٣) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٧٨- ١٢٧٩.

وهنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: أدخل الله تعالى ﴿إِنْ﴾ إعتراضاً في قوله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ مع أنَّ إكراههن على الزنا حرام، في كل حال؟

الذكر الحكيم قد يشير باستعماله ﴿إِنْ﴾ إلى شيء مما كانت تحتويه الحياة العربية من قيم أخلاقية وآداب وعادات، في شيء من اللوم والتعنيف[١]. وأنَّه تعالى أقحم هذا الاعتراض؛ ليبشع ذلك عند المخاطب، ويحذره من الوقوع فيه، ولكي يتيقظ أنَّه كان ينبغي له أن يأنف من هذه الرذيلة، وإن لم يكن زاجر شرعي، ووجه التبشيع عليها أنَّ مضمون الآية النداء عليه بأنَّ أمته خير منه؛ لأنَّها آثرت التحصّن عن الفاحشة، وهو يأبى إلَّا إكراهها[٢]. وأيضاً لأنَّ سبب نزول الآية، أنَّهم في الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنا، مع إرادة التحصّن[٣]، أو لأنَّ ﴿إِنْ﴾ بمعنى (إذ) كما ورد ذلك في مواضع أخرى من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥][٦].

ثانياً: في بداية السورة قال تعالى: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[٧]، وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾[٨]؟

قال عبد الكريم الخطيب: (قدّم وصفها بالبيّنات على وصفها بالمبينات؛ لأنَّها في أول الأمر لم تكن بين يدي الناس، ولم ينظروا فيها بعد، فكان وصفها بالبيّنات وصفاً ذاتياً لها، دون نظر إلى اتصال الناس بها، فلما نزلت، واتصل الناس بها كانت مبينة لهم

(١) ينظر: الفصل والوصل في القرآن الكريم، منير سلطان، منشأة المعارف، ط٢ (الإسكندرية/ د.ت) ص١١٨.

(٢) ينظر: الكشاف، ج٣/ ص٢٣٩؛ الجدول في إعراب القرآن، ج٨/ ص٢٦١.

(٣) ينظر: فتح الرحمن، ص٣٩٦؛ الموسوعة القرآنية خصائص السور، ج٦/ ص٩٣.

(٤) سورة البقرة: من الآية ٢٧٨.

(٥) سورة آل عمران: من الآية ١٣٩.

(٦) ينظر: فتح الرحمن، ص٣٩٦.

(٧) سورة النور: من الآية ١.

(٨) سورة النور: من الآية ٣٤.

الحق من الباطل، والهدى من الضلال)[1].

ثالثاً: الأمر في قوله تعالى جاء بهمزة القطع ﴿وَأَنكِحُواْ ﴾ مع أنَّ الأمر للواحد (انكح) بهمزة الوصل؟

قال الشعراوي: (إنَّ الأمر في ﴿وَأَنكِحُواْ ﴾ جاء هكذا بهمزة القطع، مع أنَّ الأمر للواحد (انكح) بهمزة الوصل؛ ذلك لأنَّ الأمر هنا ﴿وَأَنكِحُواْ ﴾ ليس للمفرد الذي سينكح الأيم، إنَّما لغيره أن ينكحه، والمراد أمر أولياء الأمور ومن عندهم رجال ليس لهم زوجات، أو نساء ليس لهن أزواج)[2].



(١) التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٧٩.

(٢) تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٦١.

المبحث الرابع

المثل النوراني في آية النور، ويشمل الآية (٣٥)

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[١].

توطئة:

بعد أن بين الله تعالى الأحكام والأوامر والنواهي التي بينها في الآيات السابقة، يلتفت السياق إلى التنويه بشأن القرآن، الذي نزل بمثل تلك الأحكام، بجعله نوراً من الله تعالى أضاء به السماوات والأرض[٢].

جمع الله تعالى علم سورة النور كاملة من دون نقصان في هذا المثل العظيم، الذي هو واسطة عقد السورة، وهو من أعظم أمثلة القرآن الكريم، لمن فهمه وأدركه، وذاك أنَّ الطهر والفضيلة والعفة (نور) وان أضدادها من الصفات (ظلمة) فجاء هذا المثل الرباني ليبين بجلاء لا لبس معه عن حقيقة هذا النور وصفاته ووسائل تقويته، وطرق حمايته، وغير ذلك، وصدق الله القائل في كتابه العزيز: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[٣][٤].

الآية استئناف مسوق لتقرير ما فيها من البيان، مع الإشعار بكونه في غاية الكمال؛ لأنَّ بيانه تعالى ليس مقصوراً على ما ورد في السورة الكريمة، بل هو شامل لكل ما يحق بيانه من الأحكام والشرائع ومبادئها وغاياتها المترتبة عليها في الدنيا والآخرة، وغير ذلك مما له مدخل في البيان، وأنَّه واقع منه تعالى على أتم الوجوه وأكملها، حيث عبر عنه بالتنوير الذي هو أقوى مراتب البيان وأجلاها، وعبر عن المنور بنفس النور تنبيها على

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

(٢) ينظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور، ج٦/ ص٧٧.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

(٤) ينظر: أسوار العفاف، ص٤٤.

قوة التنوير وشدة التأثير، وإيذاناً بأنَّه تعالى ظاهر بذاته، وكل ما سواه ظاهر بإظهاره، كما أنَّ النور نير بذاته وما عداه مستنير به(١).

على ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآية الكريمة.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

مَن نظر إلى هذه الآية وقرأها، يظهر لأول وهلة أنَّها منقطعة عما سبقها من موضوعات، فالموضوعات السابقة تتحدث عن الزنا وحكمه والقذف واللعان وحكمهما، وآداب الاستئذان وغضُّ النظر، وزواج الأَمة والعبد، أمَّا هذه الآية جاءت لتمثيل نور الله في قلب المؤمن، ولكن من تأمل وأمعن النظر وجدها متناسقة أتم التناسق مع الموضوعات السابقة لها، ومرتبطة بها أشد الارتباط، فالله عز وجل نوَّر الكون، فلا يمكن أن نعرف الحقائق، ولا يمكن أن نحل المشاكل إلَّا من خلال نور الله تعالى، المتمثل بما شرعه لعباده من أحكام، فالآيات السابقة هي تشريعات عالج بها القرآن الكريم أغلظ واخطر ما يصيب الإنسان في كيانه البشري، وهو الانحراف الجنسي، فالعلم الذي انزله على البشر في هذه السورة نور؛ ليقشع عنهم ظلمات الجهالة والضلالة(٢).

إنَّ من يقرأ تلك الآيات البينات، والأحكام المحكمات، وذلك النظام الدقيق للأسرة، ويكرر النظر في ذلك، يجد أنَّ ذلك نور لو استضأنا به ما أظلمت حياتنا أبداً، ولَمَا وقعنا في خطر أبداً؛ لأنَّ معنا النور الإلهي الذي يهدينا إلى صاحب النور في السموات والأرض، وهو الله تعالى(٣).

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٧٥.

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٢٣.

(٣) ينظر: التفسير الواضح، ج٢/ ص٦٨١- ٦٨٢.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، إنَّ موقع الجملة عجيب من عدة جهات، وانتقال من بيان الأحكام إلى غرض آخر من أغراض الإرشاد وأفانين من الموعظة والبرهان، فجملة ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾[2]، هي بيان للجملة السابقة ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾[3]، فقد أتبع مِنَّة الهداية الخاصة في أحكام خاصة بالامتنان، بأنَّ الله هو مكون أصول الهداية العامة والمعارف الحق للناس كلهم، بإرسال رسوله بالهدى ودين الحق، مع ما في هذا الامتنان من الإعلام بعظمة الله تعالى ومجده وعموم علمه وقدرته، فهذه الآية متناسقة موضوعياً مع الموضوعات السابقة؛ لأنَّ آيات القرآن نور، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾[4]، وقال جل شأنه: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[5]، فكان قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[6]، كلمة جامعة لمعان جمة تتبع معاني النور في إطلاقه في الكلام[7].

إنَّ الله عز وجل بيَّن في الآيات السابقة أنَّه انزل آيات فصَّل فيها الحق من الباطل، وبيَّن فيها الأحكام والتعاليم على الوجه الأكمل، التي تسعد الآخذين بها في الدنيا والآخرة، وترشدهم إلى نور هدايته، فالآية الكريمة تشير إلى مصدر الآيات المبينات، وهو الله تعالى، الذي انزلها لتكون نوراً وهداية لعباده المؤمنين[8].

إنَّ نور الله تعالى، هو الذي يمسك هذا الوجود على نظامه الذي أقامه الله عليه، إذ على هذا النور يدور كل موجود في فلكه، وهذا ما يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[9]، وعلى هذا يكون المراد بنور الله تعالى، هو ما أودع في الموجودات من سنن، وما ركَّب في المخلوقات من قوى، وما بعث في الناس من رسل،

---

(١) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٢) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٣) سورة النور: من الآية ٣٤.

(٤) سورة النساء: من الآية ١٧٤.

(٥) سورة المائدة: من الآية ١٥.

(٦) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٧) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٣٠- ٢٣١.

(٨) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ٢٢٢- ٢٢٣.

(٩) سورة النور: من الآية ٤٠.

وما أنزل من كتب، ومن دلائل، ففي كل هذا نور من نور الله تعالى، ولهذا جاءت هذه الآية ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]، متناسقة مع قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2]، وذلك بعد أن كشفت آيات الله بأنوارها هذه الغاشية التي غشيت المسلمين من حديث الإفك، حتى لقد انقشع ظلامها، وانجلى ليلها عن صبح مشرق مبين[3].

قال المراغي: (بعد أن ذكر سبحانه أنَّه أنزل في هذه السورة آيات مبينات، لكل ما يحتاج إليه الناس في صلاح أحوالهم وفي معاشهم ومعادهم من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق، بَيَّنَ أنَّه نور السموات والأرض، بما بث فيهما من الآيات الكونية، والآيات التي أنزلها على رسله الدالة على وجوده ووحدانيته، وسائر صفاته من قدرة وعلم إلى نحو أولئك، هادية إلى صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة)[4].

الآيات غير فاقدة للاتصال بما قبلها، وإنَّما هي على نسق واحد، فإنَّ بيان الأحكام والشرائع كان منتهياً إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[5]، والبيان إظهار لحقائق المعارف، فهو تنوير الهي[6].

آية النور جاءت في وسط سورة النور، فهي تتناسق مع ما قبلها وما بعدها، وتعلل لما قبلها ولما بعدها، فهي واسطة العقد في هذه السورة العجيبة، وتحتوي على الجمال والكمال والإعجاز في اللفظ والمعنى، كما أنَّ فيها من المعجزات الأخرى ما يدهش ويحير، فما تحتويه الآية من روعة ما لا يحيط به البيان[7].

إنَّ ما سبق من موضوعات نجد السورة قد اتخذته مقدمة للحديث عن التوحيد والإيمان، إظهاراً لوجوب الالتزام بالأوامر والنواهي، والأحكام الواردة فيها وفي غيرها عن الله ورسوله[8].

---

(١) سورة النور: من الآية ٣٥.
(٢) سورة النور: الآية ٣٤.
(٣) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٨٦.
(٤) تفسير المراغي، ج١٨/ ص١٠٧.
(٥) سورة النور: الآية ٣٤.
(٦) ينظر: الميزان، ج١٥/ ص١٢١.
(٧) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٧٧٠- ٣٧٧١.
(٨) ينظر: قبسات من سورة النور، ص١٨١.

المطلب الثاني

تفسير الآية الكريمة

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[1].

قال أبو حيان: (النور في كلام العرب: الضوء المدرك بالبصر)[2]. ولا شك أنَّ النور هو ما به تظهر الأشياء وتتكشف، والله تعالى مُظهر السموات والأرض، وهما وما فيهما دال على ظهوره، فالله تام القدرة، شامل العلم، حاوٍ لصفات الكمال، منزه عن شوائب النقص[3].

ثم ضرب الله تعالى المثل لذلك النور، حين يقذف في قلب المؤمن[4]، فقال تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾ أي: تنويره بالإيمان قلوب المؤمنين، وقيل: مثل نور القرآن الكريم، وجائز أن يكون عني بالنور القرآن نفسه، كما قال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾[5][6].

قال ابن عطية: (ليس الأمر كما ظننتم، وإنَّما هو نور بأنَّه قوام كل شيء وخالقه وموجده)[7].

---

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

(٢) البحر المحيط، ج٨/ ص٤٢.

(٣) ينظر: نظم الدرر، ج٥/ ص٢٦٤.

(٤) ينظر: البحر المديد، ج٤/ ص٤٢.

(٥) سورة المائدة: من الآية ١٥.

(٦) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن، عبد الله بن الحسين بن ناقيا البغدادي (ت:٤٨٥هـ) تحقيق: الدكتور محمود حسن الشيباني، مركز الصف، ط١ (جدة/١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص١٢١؛ مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٣٨٦.

(٧) المحرر الوجيز لبن عطية، ج٤/ ص١٨٣.

المشكاة: هي الكوّة غير نافذة في الجدار، وذلك مثل القلب، والمصباح مثل نور الله فيه[1]. وقال الشعراوي موضحاً معنى المشكاة: (هي الطاقة التي كانوا يجعلونها قديماً في الجدار، وهي فجوة غير نافذة يضعون فيها المصباح أو المسرجة، فتحجز هذه الفجوة الضوء وتجمعه في ناحية فيصير قوياً، ولا يصنع ظلاً أمام مسار الضوء)[2]. والمصباح: هو السراج يكون ضخم ثاقب[3].

إنَّ هناك أربع أمور توجب كمال الضوء في المثال الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، **أولها**: المصباح؛ لأنَّ المصباح إذا لم يكن في المشكاة تفرقت أشعته، أمَّا إذا وضع في المشكاة اجتمعت أشعته فكانت أكثر إنارة. **وثانيها**: إنَّ المصباح إذا كان في زجاجة صافية فإنَّ الأشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى البعض، لِمَا في الزجاجة من الصفاء والشفافية، وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور. **وثالثها**: إنَّ ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به، فإذا كان ذلك الدهن صافياً خالصاً كانت حالته بخلاف حالته إذا كان كدراً. **ورابعها**: إنَّ هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجرته، فإذا كانت لا شرقية ولا غربية، بمعنى أنَّها كانت بارزة للشمس في كل حالاتها يكون زيتونها أشد نضجاً، فكان زيته أكثر صفاء وأقرب إلى أن يتميز صفوه من كدره؛ لأنَّ زيادة الشمس تؤثر في ذلك[4].

ذُكرت الشجرة باسم جنسها ثم أبدل منه زيتونة وهو اسم نوعها؛ وذلك للإبهام الذي يعقبه التفصيل، اهتماماً بتقرر ذلك في الذهن، وإنَّما وصف الزيتونة بالمباركة لِما فيها من كثرة النفع، فإنها ينتفع بحبها وبزيتها، ويستنار بزيتها، ويدخل في أدوية، وينتفع بحطبها وهو أحسن حطب؛ لأنَّ فيه المادة الدهنية، قال تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[5]، وينتفع بجودة

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت:٥٠٢هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، والدار الشامية، ط١ (دمشق/بيروت/ ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص٤٦٣.

(٢) تفسير الشعراوي، ج١٦/ ص١٠٢٧٢.

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص٤٦٣؛ الكشاف، ج٣/ ص٢٤٠؛ البحر المحيط، ج٨/ ص٤٤.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٣٨٦.

(٥) سورة المؤمنون: من الآية ٢٠.

هواء غاباتها، ووصف الزيتونة بمباركة؛ لأنَّه يمكن أن يكون وصفاً مخصصاً لزيتونة، أي: شجرة ذات نماء ووفرة ثمر من بين شجر الزيتون، فيكون ذكر هذا الوصف لتحسين المشبه به، لينجر منه تحسين للمشبه[1].

اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ إلى عدة أقول، منها ما رجحه الطبري بقوله: (إنَّها شرقية غربية، ومعنى الكلام: ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشيّ دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب، فهي شرقية غربية وإنَّما قلنا ذلك أولى بمعنى الكلام؛ لأنَّ الله إنَّما وصف الزيت الذي يوقد على هذا المصباح بالصفاء والجودة، فإذا كان شجره شرقياً غربياً، كان زيته لا شكّ أجود وأصفى وأضوأ)[2].

أشار في قوله تعالى ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾: (إشارة دقيقة، وهي أنَّ نور الإسلام وشرائعه وسط بين طرفين متقابلين، وما في شرائع الإسلام شاهد على ذلك، وهذا الزيت المستخرج من تلك الشجرة، زيت صافي يكاد يضيء بدون مس النور)[3].

قال الإمام الرازي: (المقصود من التمثيل، أنَّ إيمان المؤمن قد بلغ في الصفاء عن الشبهات، والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور)[4].

قال البقاعي: (لَمَّا علم من هذا أنَّ لهذا الممثل به أنواراً متظاهرة، بمعاونة المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت، فلم يبق مما يقوي نوره ويزيده إشراقاً، ويمده بإضاءة نقية، قال في الممثل له: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ أي: أنَّ العلم الرباني عظيم الاتساع كلما سرحت فيه النظر، وأطلقت عنان الفكر، أتى بالغرائب ولا يمكن أن يوقف له على حد)[5].

قال تعالى: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بمعنى أنَّ الله تعالى يهدي لهذا النور الثاقب وهو القرآن الكريم، من يشاء من عباده، أي: يوفق لإصابة الحق من يشاء من عباده، إمَّا

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٤٠.

(٢) جامع البيان، ج١٩/ ص١٨٧.

(٣) التفسير الواضح، ج٢/ ص٦٨٣.

(٤) مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٣٨٧.

(٥) نظم الدرر، ج٥/ ص٢٦٥.

بإلهام من الله أو يُنظره في الدليل[١].

قال تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي: إنَّ هذا النور، الذي صوّرته المشكاة، والمصباح، هو مثل، وليس حقيقة؛ لأنَّ نور الله سبحانه وتعالى لا يمكن وصفه، وإن أمكن الإشارة إليه بصورة تمثله، ولا تماثله، وإنَّ نور الله هو من عِلم الله تعالى الكاشف لكل شيء، فهو نور علم وهداية[٢].

قال ابن كثير: (لَمَّا ذكر تعالى أنَّ هذا مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن، ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال)[٣].

أخيراً فأسلوب القرآن الكريم كثيراً ما يتعرض إلى ضرب المثل؛ لتقرير تعاليم الإسلام ومبادئه، وفي هذه الآية الكريمة يبلغ المثل ذروته، فهو يصور نور الله الذي يشمل الكائنات جميعها، تصويراً يكاد يقف الفكر مبهوتاً أمام إبداعه الرائع[٤].

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: أضاف الله تعالى النور في الآية إلى السموات والأرض ولم يضف إلى غيرهما؟

ذلك لأنَّ المراد من الآية هو البيان، وهذه الإضافة إنَّما أُريد بها كمال شيوع البيان. وفي هذا المقام قال أبو السعود: (أضيف النور إلى السموات والأرض؛ للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له، وغاية شموله لكل ما يليق به من الأمور التي لها مدخل في إرشاد الناس، بوساطة بيان شمول المستعار منه لجميع ما يقبله ويستحقه من الأجرام العلوية والسفلية، فإنَّهما قطران للعالم الجسماني الذي لا مظهر للنور الحسي سواه، أو على شمول البيان لأحوالهما وأحوال ما فيهما من الموجودات، إذ ما من موجود إلَّا وقد بين من أحواله ما يستحق البيان، إمَّا تفصيلاً أو إجمالاً)[٥].

---

(١) ينظر: مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥٠٧.

(٢) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٨٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج٦/ ص٥٦.

(٤) ينظر: الجدول في إعراب القرآن، ج١٨/ ص٢٦٦.

(٥) إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٧٥.

قال الزمخشري: (أضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين: إمَّا للدلالة على سعة إشراقه، وفشوّ إضاءته، حتى تضيء له السماوات والأرض، وإمَّا أن يراد أهل السماوات والأرض، وأنَّهم يستضيئون به)[1].

ثانياً: مثَّل الله تعالى نوره بنور المصباح، ولم يمثله بنور الشمس، مع أنَّ نورها أتم وأكمل؟ أو لم يمثله بنور الشمعة مع أنَّه أتم وأشرق من نور المصباح؟

لم يمثله بنور الشمس؛ وذلك لأنَّ: (المقصود تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدر في البدن، كالمصباح، والمصباح في الزجاجة، والزجاجة في القنديل، وهذا التمثيل لا يستقيم إلَّا فيما ذكر؛ ولأنَّ نور المعرفة له آلات يتوقف هو على اجتماعها، كالذهن، والفهم، والعقل، واليقظة، وغيرها من الصفات الحميدة، كما أنَّ نور القنديل، يتوقف على اجتماع القنديل، والزيت، والفتيلة وغيرها؛ أو لأنَّ نور الشمس يشرق متوجها إلى العالم السفلي، ونور المعرفة يشرق متوجها إلى العالم العلوي، كنور المصباح)[2].

أيضاً: (إنَّ نور الشمس لا يشرق إلَّا بالنهار، ونور المعرفة يشرق بالليل والنهار كنور المصباح، وإنَّ نور الشمس يعم جميع الخلائق، ونور المعرفة لا يصل إليه إلَّا بعضهم، كنور المصباح الموصوف)[3].

إنَّما لم يمثله بنور الشمع؛ لأنَّ في الشمع غشاً لا محالة، بخلاف الزيت الموصوف في الآية، ولو مثله الله تعالى بنور الشمع، لتطاول المنافق المغشوش، إلى استحقاق نصيب في المعرفة؛ ولأنَّ نور الشمع مخصوص بالأغنياء، بخلاف نور المعرفة فإنَّه في الفقراء أغلب[4].

ثالثاً: المقصود من قوله تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[5]، هو كمصباح فيه مشكاة، فما سر هذا التقديم؟

---

(١) الكشاف، ج٣/ ص٢٤١؛ البحر المحيط، ج٨/ ص٤٣.

(٢) فتح الرحمن، ص٣٩٧.

(٣) الموسوعة القرآنية خصائص السور، ج٦/ ص٩٥.

(٤) ينظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور، ج٦/ ص٩٥.

(٥) سورة النور: من الآية ٣٥.

قال ابن عاشور: (إنَّما قدم المشكاة في الذكر؛ لأنَّ المشبه به هو مجموع الهيئة، فاللفظ الدال على المشبه به هو مجموع المركب المبتدئ بقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ والمنتهي بقوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[1]، فلذلك كان دخول كاف الشبه على كلمة مشكاة دون لفظ مصباح لا يقتضي أصالة لفظ مشكاة في الهيئة المشبه بها دون لفظ مصباح، بل موجب هذا الترتيب مراعاة الترتيب الذهني في تصور هذه الهيئة المتخيلة، حين يلمح الناظر إلى انبثاق النور، ثم ينظر إلى مصدره، فيرى مشكاة ثم يبدو له مصباح في زجاجة)[2].

رابعاً: ذكر عز وجل ﴿مِصْبَاحٌ﴾ نكرة، ثم ذكرها من بعد ذلك معرفة ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ فيكون المبهم والمعرف واحداً، والذكر بالإبهام تم التعريف فيه بيان بعد إبهام؟

قال صاحب زهرة التفاسير: (إنَّ الله تعالى ذكر ﴿مِصْبَاحٌ﴾ مُنكرة ثم ذكرها من بعد ذلك مُعرفة، فيكون المبهم والمعرف واحداً، والذكر بالإبهام تم التعريف فيه بيان بعد إبهام؛ وفي ذلك فضل بيان وتأكيد، وكذلك بالنسبة لزجاجة فقد ذكرت نكرة، ثم ذكرت معرفة، وذلك فيه أيضاً بيان وتأكيد للبيان)[3].

---

(١) سورة النور: من الآية ٣٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٣٥.

(٣) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٩٥.

الفصل الثالث

آيات بيان حال المؤمنين والكافرين وسمات كلٍّ منهما، والآيات الدالة على توحيد الله تعالى، ومقومات أهل الإيمان، ويشمل الآيات (٣٦– ٥٧)

توطئة:

بعد التأمل في آيات السورة من (٣٦– ٥٧) تبيّن أنَّها تدور حول عدة مواضيع، بَيَّن فيها السياق القرآني حال المؤمنين والكافرين، واتبع ذلك الآيات الدالة على توحيد الله تعالى، ثم بعد أن ذكر حال المؤمنين والكافرين فإنَّه اتبع ذلك ببيان السمات التي تدل على نفاق المنافقين ومقومات أهل الإيمان، ففي هذه الآيات بمجموعها كانت تدور حول ثلاث أصناف، وهم: المؤمنون والكافرون والمنافقون، وقد جاء الحديث عن هذه المواضيع في أربعة مباحث.

المبحث الأول

آيات بيان حال المؤمنين المهتدين، والكافرين الخاسرين، ويشمل الآيات (٣٦– ٤٠)

قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[1].

---

(١) سورة النور: الآية ٣٦– ٤٠.

توطئة:

إنَّ هذه الآيات جاءت لتبين أكثر الأماكن والأشخاص انتفاعاً بهذا النور الرباني[١]. وهي مرتبطة بالآية التي قبلها إعزازاً للمعنى؛ وذلك لأنَّ الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾[٢]، متعلقان بالآية التي قبلها، وفيها أفعال عدة كل فعل فيها يصلح متعلقاً، فيصح أن يكون متعلقاً بقوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ ﴾[٣]، ويصح أن يكون متعلقاً بقوله تعالى: ﴿ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ ﴾[٤]، ويصح أن يكون التعلُّق بقوله تعالى: ﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[٥]، فالمساجد تتعلق بالنور والهداية، وهي بيوت الله تعالى، وفيها النور، وفيها يوقد النور الإلهي، وفيها الهداية[٦].

قال وهبة الزحيلي: (إنَّ أول موضع تظهر فيه هداية الله ونوره، هو في المساجد التي يشيد بناءها المؤمنون، ويعمرونها بالصلاة والأذكار في أوائل النهار وأواخره، والمساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض)[٧].

على ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيات الكريمة.

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط، ج١٠/ ص١٣٠.

(٢) سورة النور: من الآية ٣٦.

(٣) سورة النور: الآية ٣٥.

(٤) سورة النور: الآية ٣٥.

(٥) سورة النور: الآية ٣٥.

(٦) ينظر: زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥١٩٦.

(٧) التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٥٢.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

تكلم الله تعالى في الموضوع السابق عن آية النور، وجاء هذا الموضوع ليبين حال المؤمنين المهتدين، وحال الكافرين الخاسرين، وبالنظر لأول وهلة يتهيأ للقارئ أنَّه لا تناسق بين الموضوعين، ولكن بعد تتبع كلام المفسرين والتأمل فيها، تبين وظهر ظهوراً تاماً أنَّ هذين الموضوعين متناسقان تناسقاً مُحكماً.

قال أبو السعود: (لَمَّا ذُكر شأن القرآن الكريم في بيانه للشرائع والأحكام، ومبادئها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب والعقاب، وغير ذلك من أحوال الآخرة وأهوالها، وأشير إلى كونه في غاية ما يكون من التوضيح والإظهار، حيث مَثَّل بما فَصَّل من نور المشكاة، وأُشير إلى أنَّ ذلك النور مع كونه في أقصى مراتب الظهور إنَّما يهتدي بهداه من تعلقت مشيئة الله تعالى بهدايته دون من عداه، عقب ذلك بذكر الفريقين، وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم في الاهتداء وعدمه)[1].

ويصور لنا سيد قطب مدى التناسق بين الموضوعين، حيث قال: (هناك صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك – في الموضوع السابق – ومشهد البيوت هنا، على طريقة التناسق القرآنية في عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه أو المتقارب، وهناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور في المشكاة، والقلوب المشرقة بالنور في بيوت الله، وتلك البيوت ... يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السماوات والأرض، وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور المضيئة)[2].

وقال ابن كثير: (لَمَّا ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح في الزجاجة الصافية، المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾)[3][4].

---

(١) إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٧٨.
(٢) في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٥٢٠.
(٣) سورة النور: من الآية ٣٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ج٦/ ص٥٦.

وذكر أبو حيان تناسق وارتباط الموضوعين، فقال: (إنَّ ارتباط هذه بما قبلها، هو أنَّه تعالى لَمَّا ذكر أنَّه يهدي لنوره من يشاء، ذكر حال من حصلت له الهداية لذلك النور وهم المؤمنون، ثم ذكر أشرف عبادتهم القلبية وهو تنزيههم الله عن النقائص، وإظهار ذلك بالتلفظ به في مساجد الجماعات، ثم ذكر سائر أوصافهم من التزام ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وخوفهم ما يكون في البعث، ولذلك جاء مقابل المؤمنين وهم الكفار في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾[1]، وكأنَّه لَمَّا ذُكرت الهداية للنور جاء في التقسيم لقابل الهداية وعدم قابلها، فبدئ بالمؤمن وما تأثر به من أنواع الهدى ثم ذكر الكافر)[2].

إنَّ مشاكي بيوت العبادة أكبر المشاكي ونورها أقوى الأنوار، فهذه الآية متناسقة مع الآية السابقة؛ لأنَّ معناها متسق مع معنى الآيات السابقة، وبذلك تكون هذه الآيات بمثابة استطراد وانتقال، لتقرر أنَّ نور الله قوي هاد، كنور المشكاة الكبيرة ذات النور الساطع التي تكون في بيوت العبادة، التي أمر الله برفع أركانها وتكريمها بذكر اسمه، والتي يسبح له فيها عباده المهتدون بنوره[3].

إنَّ من أمعن النظر في كِلا الموضوعين وجد أنَّ التناسق بينهما واضح، فبعد أن بَيَّن الله تعالى كون نوره سبيلاً لهداية عباده، بما أقام لهم من الآيات البينات، اقتضى المقام أن يذكر حال المنتفعين بذلك النور، وهم المؤمنون وأنَّهم في الدنيا يكونون في نور الله تعالى، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم، واقتضى المقام أيضاً أن يتبع ذلك ببيان حال الكافرين، فإنَّهم يكونون في الآخرة في أشد الخسران، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات[4].

وإذا كان قوله تعالى في الموضوع السابق: ﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ مشوّقاً للنفوس أن يكون لها نصيبها من هذا النور، وأن تكون فيمن شاء الله هدايتهم إليه، فمن بواعث هذا الشوق تجيء تساؤلات عن هذا النور، وكيف السبيل إليه، وبلوغ النفس حظها منه؟ ولا تكاد النفس تتلقّى هذه الخواطر المتسائلة، حتى يلقاها الدليل الذي يأخذ بها إلى

---

(١) سورة النور: من الآية ٣٩.

(٢) البحر المحيط، ج٨/ ص٤٧- ٤٨.

(٣) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٢٤.

(٤) ينظر: التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٤٩، ٢٥٧.

مواقع هذا النور: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ﴾ ففي هذه البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يلتمس نور الله، حيث يتجلى الله سبحانه وتعالى على كل من يغشون هذه البيوت، ويذكرون الله فيها[1]. وهذا يدل على مدى تناسق الموضوعين، وقوة ارتباط المعنى بينهما.

ولَمَّا ذكر الله تعالى النور، وضرب مثل قلب المؤمن، تبع ذلك بذكر محل وجود ذلك النور الرباني. قال سيد قطب: (ذلك النور الطليق، الشائع في السماوات والأرض، الفائض في السماوات والأرض، يتجلى ويتبلور في بيوت الله التي تتصل فيها القلوب بالله، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه، وتتجرد له وتؤثره على كل مغريات الحياة)[2].



(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٩٠.

(٢) في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٥٢٠.

المطلب الثاني

تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾[(١)].

قال الآلوسي إنَّ هذه الآية: (استئناف لبيان حال من حصلت لهم الهداية لذلك النور، وذكر بعض أعمالهم القلبية والقالبية)[(٢)].

قال الطبري (يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾ الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، في بيوت أذن الله أن ترفع)[(٣)].

ولقد اختلف المفسرون في المراد من البيوت في الآية، ولكن أكثرهم رَجَّح أن يكون المراد من البيوت هو المساجد[(٤)]. وذكر الرازي سببين في ترجيح ذلك، فقال: (**الأول**: إنَّ في البيوت ما لا يمكن أن يوصف بأنَّ الله تعالى أذن أن ترفع، **والثاني**: إنَّه تعالى وصفها بالذكر والتسبيح والصلاة، وذلك لا يليق إلَّا بالمساجد)[(٥)].

وقوله تعالى ﴿ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾، أي: أَذِن الله أن ترفع بناء، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾[(٦)]؛ لأنَّ ذلك هو الأغلب من معنى الرفع في البيوت والأبنية، وأذن لعباده أن يذكروا اسمه فيها، وأذن لهم بتلاوة القرآن فيها[(٧)].

قال النسفي في مراد الله تعالى من قوله ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ (أي: يصلي له فيها بالغداة صلاة الفجر، وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين، وإنما

(١) سورة النور: الآية ٣٦.

(٢) روح المعاني، ج٩/ ص٣٦٦.

(٣) جامع البيان، ج١٩/ ص١٨٨، ١٨٩.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ج١٩/ ص١٩٠؛ الكشف والبيان، ج٧/ ص١٠٧؛ زاد المسير، ج٣/ ص٢٩٧-٢٩٨؛ الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٦٦.

(٥) مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٣٩٦.

(٦) سورة البقرة: من الآية ١٢٧.

(٧) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص١٩٠.

وحد الغدو لأن صلاته صلاة واحدة، وفي الآصال صلوات والآصال جمع أصل جمع أصيل وهو العشي)[1].

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[2].

وهذه الآية بيان شارح للمساجد المذكورة في الآية السابقة، ولمن يغشونها من عباد الله تعالى، فهذه المساجد لا تهشّ، ولا تسعد إلَّا بمن يتعلق قلبه بها، ويجد الأنس والمسرّة في رحابها، ويستشعر الغربة والوحشة في البعد عنها، فهو لهذا غاد ورائح إليها، لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيها، ابتغاء رضوانه، وخوفاً من لقائه في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار[3].

وقوله تعالى ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾: يعني يخافون يوم القيامة من هوله وحذر الهلاك، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم، وتقلب القلوب هو انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر، فلا هي ترجع إلى أماكنها ولاهي تخرج، وأمَّا تقلب الأبصار فالزرق بعد الكحل والعمى بعد البصر[4].

والموصوفون بهذه الصفات، المهتدون بنور الله تعالى، سيجزيهم ثوابهم مضاعفاً، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5]، ويزيدهم على الثواب الموعود على العمل تفضلاً منه عز وجل، ويثيب من يشاء ثواباً لا يدخل في حساب الخلق[6].

قال الرازي: (ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ نبه به على كمال قدرته، وكمال جوده، ونفاذ مشيئته، وسعة إحسانه، فكان سبحانه لَمَّا وصفهم بالجد

(١) مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥٠٨.
(٢) سورة النور: الآية ٣٧.
(٣) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٩١.
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٨٠.
(٥) سورة النور: الآية ٣٨.
(٦) ينظر: مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥٠٩.

والاجتهاد في الطاعة، ومع ذلك يكونون في نهاية الخوف، فالحق سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم)[١].

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[٢].

قال ابن عطية عند تفسيره لهذه الآية: (لَمَّا ذكر الله تعالى فيما تقدم من هذه الآية، حالة الإيمان والمؤمنين، وتنويره قلوبهم، عقب ذلك بذكر الكفرة وأعمالهم فمثل لها ولهم تمثيلين، **الأول**: منهما يقتضي حال أعمالهم في الآخرة من أنَّها غير نافعة ولا مجدية، **والثاني**: يقتضي حالها في الدنيا من أنَّها في الغاية من الضلال والغمة)[٣].

إنَّ الله تعالى يريد أن يلفت أنظار من شغلتهم الدنيا عن مراد الآخرة، فيصنعون أمور كثيرة، لكن لم يخلصوا النية لله، والأصل في عمل الخير أن يكون من الله تعالى ولله تعالى، لذلك رسم القرآن الكريم هذه الصورة، فقال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾[٤].

قال الزمخشري: (السراب: ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة، يسرب على وجه الأرض كأنَّه ماء يجرى، والقيعة: بمعنى القاع أو جمع قاع، وهو المنبسط المستوى من الأرض، كـ (جيرة) في (جار))[٥]. فأعمال الكافر، يظن أنَّها نافعته في الدنيا، فإذا هي يوم القيامة كالسراب الذي يظنه الرائي العطشان ماء، فإذا قصده وأتعب نفسه بالوصول إليه لم يجد شيئاً[٦].

قال أبو حيان: (والذي يظهر لي أنَّه تعالى شَبَّه أعمالهم في عدم انتفاعهم بها بسراب صفته كذا، وأنَّ الضمائر فيما بعد الظمآن له، والمعنى في قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾ أي: ووجد مقدور الله عليه من هلاك بالظمأ عنده، أي: عند موضع السراب،

---

(١) مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٣٩٩.

(٢) سورة النور: الآية ٣٩.

(٣) المحرر الوجيز لبن عطية، ج٤/ ص١٨٧.

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٧/ ص١٠٢٨٤.

(٥) الكشاف، ج٣/ ص٢٤٣.

(٦) المحرر الوجيز لبن عطية، ج٤/ ص١٨٧.

فوفاه ما كتب له من ذلك، وهو المحسوب له، والله معجل حسابه لا يؤخره عنه، فيكون الكلام متناسقاً آخذا بعضه بعنق بعض، وذلك باتصال الضمائر لشيء واحد، ويكون هذا التشبيه مطابقاً لأعمالهم، من حيث أنَّهم اعتقدوها نافعة لهم فلم تنفعهم، وحصل لهم الهلاك بإثر ما حوسبوا)[١].

ثم قال تعالى: ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[٢].

هذا المثل الثاني الذي ضربه الله في أعمال الكافرين، أي: أعمالهم كسراب بقيعة أو كظلمات[٣].

فكان سياق الآية الأولى يدور حول ذكر أعمال الكفار، وجاء السياق في الآية الثانية لذكر كفرهم، وقد نسق الكفر على أعمالهم؛ لأنَّ الكفر أيضاً من أعمالهم، وقد قال تعالى: ﴿ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[٤]، أي: من الكفر إلى الإيمان، فيكون التمثيل قد وقع لأعمالهم بكفر الكافر وأعمالهم منها كفرهم، فيكون قد شبه أعمالهم بالظلمات[٥].

اللُجيّ: هو الماء الكثير العمق، منسوب إلى اللُج وهو معظم ماء البحر. ففي الآية الأولى شبه أعمالهم في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئا، وشبهها ثانية في هذه الآية، في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب[٦].

ونسب البحر إلى اللجة، وصفاً له بأنَّه عميق كثير الماء، فيصف أعمالهم بقوله: يغشى البحر موج، ومن فوقه موج آخر يغشاه، ومن فوق الموج الثاني الذي يغشى الموج الأول سحاب، فجعل الظلمات مثلاً لأعمالهم، والبحر اللجيّ مثلاً لقلب الكافر، فكذلك قلب هذا الكافر الذي مثل عمله مثل هذه الظلمات، يغشاه الجهل بالله تعالى، بأنَّ الله

---

(١) البحر المحيط، ج٨/ ص٥٢.

(٢) سورة النور: الآية ٤٠.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٨٣.

(٤) سورة البقرة: من الآية ٢٥٧.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٨٣؛ البحر المحيط، ج٨/ ص٥٣؛ فتح القدير، ج٤/ ص٤٦.

(٦) ينظر: الكشاف، ج٣/ ص٢٤٤.

تعالى ختم عليه، فلا يعقل عن الله تعالى، وعلى سمعه، فلا يسمع مواعظ الله تعالى، وجعل على بصره غشاوة فلا يبصر به حجج الله تعالى، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض(١).

قال أبو حيان: (لَمَّا شبه أعمال الكفار بالظلمات المتراكمة، وذكر أنَّه لا يكاد يرى اليد من شدة الظلمة، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: من لم ينور قلبه بنور الإيمان ويهده إليه، فهو في ظلمة ولا نور له، ولا يهتدي أبداً، وهذا النور هو في الدنيا)(٢).

ومما يُظهر التناسق الموضوعي بين هذين الموضوعين أن ختم الموضوع السابق بقوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وختم هذا الموضوع بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فمن لم يجعل الله له نوراً هو من لم يهده الله لنوره.

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: ما الوجه في توحيد الله تعالى للمشكاة والمصباح وجمع البيوت، ولا تكون مشكاة واحدة إلَّا في بيت واحد؟

ذلك لأنَّه من الخطاب المتلوِّن الذي يُفتح بالتوحيد ويُختم بالجمع، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾(٣)، وأيضاً فهو راجع إلى كل واحد من البيوت، فيكون المعنى: في كل بيت مشكاة، وقيل أيضاً: هو مثل قوله سبحانه ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾(٤)، وإنّما هو في واحدة منها(٥).

ولَمَّا كان القصد بالمثل هو الذي له هذا الوصف، فيدخل تحته كل كمشكاة فيها مصباح في زجاجة تتوقد من الزيت، وتكون الفائدة في ذلك أنَّ ضوءَها يظهر في هذه البيوت بالليالي عند الحاجة إلى عبادة الله تعالى، فالمراد فيما ذكره الله سبحانه في هذه

---

(١) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص١٩٧.

(٢) البحر المحيط، ج٨/ ص٥٥.

(٣) سورة الطلاق: من الآية ١.

(٤) سورة نوح: من الآية ١٦.

(٥) ينظر: الكشف والبيان، ج٧/ ص١٠٨؛ زاد المسير، ج٣/ ص٢٩٧.

الآية هو النوع[1].

ثانياً: إنّ التجارة اسم يقع على البيع والشراء، فما معنى ضم ذكر البيع إلى التجارة؟

لأنَّ الله تعالى أراد بالتجارة الشراء، ونظير ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً ﴾[2]، يعني الشراء[3]، أو أنَّ الله تعالى خصَّ البيع بالذكر تجريداً، كقوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴾[4][5]، وقيل أيضاً: إنَّ الحكمة من عطف البيع إلى التجارة، هو لتخصيص البيع وتمييزه، من حيث إنَّه أبلغ في الإلهاء؛ لأنَّ البيع الرابح يعقبه حصول الربح، بخلاف الشراء الرابح فإنَّه مع كونه مترقباً منتظراً، ولكن الربح فيه مظنون[6].

قال أبو السعود: (إفراد – البيع– بالذكر مع اندراجه تحت التجارة؛ للإيذان بإنافته على سائر أنواعها؛ لأنَّ ربحه متيقن ناجز، وربح ما عداه متوقع في الثاني الحال عند البيع، فلم يلزم من نفي إلهاء ما عداه نفي إلهائه، ولذلك كررت كلمة (لا) لتذكير النفي وتأكيده)[7].

ثالثاً: ضرب الله تعالى في موضوع هذه الآيات مثلين لحال الكافرين، **الأول**: فيما يؤول إليه أعمالهم في الآخرة، **والثاني**: فيما هم عليه في حال الدنيا، وكان الأَولى بالذكر أن يبدأ بتشبيه حالهم في الدنيا، قبل حالهم في الآخرة؟

وبدأ بتشبيه حالهم في الآخرة؛ لأنَّه آكد في الإخبار، لما فيه من ذكر ما يؤول إليه أمرهم من العقاب الدائم والعذاب السرمدي، ثم أتبعه بالتمثيل الدنيوي الذي نبههم على ما هي أعمالهم عليه، لعلهم يرجعون إلى الإيمان ويفكرون في نور الله الذي جاء به الرسول ﷺ، والظاهر أنَّه تشبيه لأعمالهم وضلالهم بالظلمات المتكاثفة[8].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٣٩٥.

(٢) سورة الجمعة: من الآية ١١.

(٣) ينظر: الكشف والبيان، ج٧/ ص١٠٩؛ الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٧٩.

(٤) سورة الرحمن: الآية ٦٨.

(٥) ينظر: التسهيل، ج٢/ ص٧١.

(٦) ينظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور، ج٦/ ص٩٦.

(٧) إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٧٩.

(٨) ينظر: البحر المحيط، ج٨/ ص٥٣.

المبحث الثاني

الآيات الدالة على توحيد الله تعالى، ويشتمل الآيات (٤١- ٤٦)

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١].

توطئة:

إنَّ هذه الآيات تقدم مجموعة من الآثار الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى وعظمته، ثم يستعرض الموضوع دليلاً آخر يحمل في طياته قبساً من نور الله تعالى إلى قلب الإنسان، من خلال هذه الظاهرة الكونية التي يمر الناس عليها غافلين كالمطر، ثم ختمت الأدلة الكونية بإشارة إلى الأصل الواحد الذي خلقت منه سائر المخلوقات، على اختلاف أشكالها وحركاتها، وهذه الآيات فيها دلالة واضحة على نور الله تعالى، ولكن ذلك النور يرشد الله تعالى إليه من يشاء من خلقه، وهم الذين اعملوا عقولهم في تلك الآيات البينات، فاهتدوا بها إلى الإيمان بالله تعالى، واستدلوا من خلالها على وحدانيته وكمال قدرته وعظمته، والتأمل بهذه الظواهر يُرسِّخ الإيمان بالخالق عز وجل، كظاهرة الليل والنهار وتقليب الله لهما، وظاهرة خلق الدواب من أصل واحد مع اختلاف كبير فيما بينها بالشكل والحجم وغيرها، مما يدل على كمال التدبير، وغاية التقدير في دقة خلقها وتناسقها وإبداعها[٢].

---

(١) سورة النور: الآية ٤١- ٤٦.

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٣١- ٢٣٤.

قال صاحب زهرة التفاسير: (هذه كلها آيات دالة على ألوهية الله جل جلاله وحده، وإنَّه لا يهتدي إلى الوحدانية مع قيام دلائلها إلَّا من سار على الطريق، واستقام على الجادة، فيأخذه الله تعالى إلى الهداية)[١].

والآيات فيها توضيح لحقائق الوجود العلمية، مع أنَّ القرآن الكريم هو كتاب هداية وإرشاد، وليس من مهمته الحديث عن ذلك، ومع ذلك فإنَّه لم تخل آياته من التعبير عن كثير من الحقائق التي أثبتها العلم الحديث، وقد دلت هذه الآيات على إعجاز القرآن وبيان مصدره الإلهي[٢].

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيات الكريمة.



(١) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥٢٠٩.

(٢) ينظر: جماليات المفردة القرآنية، ص٢٨١.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

يبدو هذا الموضوع للوهلة الأولى أنَّه بعيدٌ تماماً عن الموضوعات السابق؛ وذلك لأنَّ الموضوعات السابقة كانت تتحدث عن الآداب الاجتماعية، وسلوك الفرد في المجتمع، وهذا الموضوع يتناول الأدلة الكونية على وجود الله تعالى وتوحيده وإبداعه في خلقه، ولكن بعد التأمل في آيات هذا الموضوع، يظهر أنَّه متناسق موضوعياً مع الموضوع السابق، ومع ما تهدف إليه هذه السورة.

ويظهر التناسق بينهما من حيث إنَّ كل تشريع يرتبط بالعقيدة، ويحيا بحياتها، فالقرآن الكريم يربط الإيمان بالعمل، ويقرن الحديث عن شؤون الناس بالإيمان الواجب برب العالمين، وإنَّ رباط الشريعة بالعقيدة وثيق، وارتباط العمل بالإيمان قائم[١].

إنَّ الموضوع متصل ومتناسق بالموضوعات السابقة، وخاصة بآية النور اتصال تعقيب واستطراد، ففي هذه الآيات من مظاهر قدرة الله وإحاطته بكل شيء في السموات والأرض، عبرة لأولي البصائر النيرة والعقول السليمة، للقيام بواجبهم نحو خالقهم[٢].

ولَمَّا كانت آية النور المتوسطة لهذه السورة المباركة جاءت لترشد إلى نور الله تعالى، فإنَّ السياق ينتظم ليذكر مكان وجود هذا النور، ثم من لم يصلهم هذا النور من الكافرين، ثم جاء هذا الموضوع ليرشد إلى آثار نور الله تعالى.

قال المودودي: (قد مَرَّ في هذه السورة من قبل أنَّ الله نور السموات والأرض، ولكن لا يوفّق للاهتداء لهذا النور إلَّا الأفراد الصالحون من أهل الإيمان ولا يعمه سائر الأفراد، على كون هذا النور شاملاً محيطاً، إلَّا في الظلمة، وها قد عدد الله تعالى في هذه الآيات طائفة من آثاره المرشدة إلى نوره، إذا نظر فيها الإنسان بعيني قلبه، فإنَّ له في كل وقت أن يرى الله يعمل في كل جهة)[٣].

إنَّ هذا الموضوع، استعراض لقدرة الله، وسلطانه المتمكن في هذا الوجود، وذلك بعد أن عرضت الآيات السابقة مثلاً لنور الله تعالى، الذي يملأ الوجود كله، وأنَّ هذا النور قد

---

(١) ينظر: نحو التفسير الموضوعي، ص٢٧٧– ٢٧٨.

(٢) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٣٠.

(٣) تفسير سورة النور للمودودي، ص٢٠٨.

اهتدى به المهتدون، على حين قد عمى عن هذا النور، الضالون، والمشركون، والكافرون، وتناسق هذا الموضوع بعد أن ذكر الله تعالى مكان وجود نوره عند أهل الإيمان، ثم غفلة الكافرين عن هذا النور، ثم جاءت هذا الموضوع ليبين ماالله سبحانه وتعالى من قدرة وسلطان تثبيتاً لإيمان المؤمنين، ودعوة مجددة إلى الكافرين، والمشركين، والمنافقين، أن يعيدوا النظر في موقفهم الزائغ المنحرف عن سواء السبيل، وأن ينظروا في المعارض التي تعرضها هذه الآيات لجلال الله، وقدرته، وعظمته، ففيها نور الله لمن يلتمسون النور، ويطلبون الهدى(١).

فلَمَّا كان الكلام عن الكافرين وأعمالهم وهم الجاحدون بقدرة الله تعالى، استطردت الآيات في بيان توحيده تعالى، بذكر آيات قدرته؛ لأنَّ الله يعلم معرفتهم بهذه الآيات والبراهين، وأنَّهم يجحدون ويعاندون، فلذلك ذكرها بعد الحديث عنهم(٢).

قال أبو حيان: (لَمَّا ذكر الله تعالى مثل المؤمن والكافر، وأنَّ الإيمان والضلال أمرهما راجع إليه، أعقب بذكر الدلائل على قدرته وتوحيده)(٣).

يظهر التناسق الموضوعي بين هذا الموضوع والموضوع السابق، من خلال النظر إلى أنَّ ظاهرة الهداية واضحة في المطر والبرد والليل والنهار، وأنَّ الإنسان المنصف المدرك العاقل، يعلم أنَّ هذا الموضوع ما كان ليكون لولا الله تعالى، فمن لم يعلم ذلك فهو اجهل الجاهلين، ومن عَلِم ذلك عرف عظمة الله فعبد وخضع، أي دخل في الإسلام واهتدى بهدى الله عز وجل، ومن هنا يظهر التناسق بين هذا الموضوع وسياق السورة(٤).

واحتوى هذا الموضوع على جزئيات من ذلك النور، فذكر تعدد الدلائل على ظهور نوره تعالى في الكائنات، حيث ذكر تسبيح من في السموات والأرض، وما يطير بينهما، وتسخير السحاب وإنزال الأمطار، وتقليب الليل والنهار، إلى غير ذلك من لوامح الأنوار (٥).

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٢٩٦.

(٢) ينظر: قبسات من سورة النور، ص١٩٠.

(٣) البحر المحيط، ج٨/ ص٥٥.

(٤) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٧٨١.

(٥) ينظر: البحر المديد، ج٤/ ص٥٠، ٥٢.

إنَّ سياق السورة متناسق موضوعياً، إذ إنَّه تعالى ذكره أعقب تمثيل أهل الضلالة وكيف حرمهم الله الهدى، بطلب النظر والاعتبار، إلى أنَّه كيف هدى كثيراً من أهل السماوات والأرض، بتنزيه الله المقتضي الإيمان به وحده، وبما ألهم الطير إلى أصواتها المعربة عن بهجتها بنعمة وجودها، فكانت أصواتها دلائل حال على تسبيح الله وتنزيهه عن الشريك(١).

قال القرطبي: (لَمَّا ذكر وضوح الآيات زاد في الحجة والبينات، وبَيَّن أنَّ مصنوعاته تدل بتغييرها على أنَّ لها صانعاً قادراً على الكمال)(٢).

وبالنظر إلى الآيات السابقة نجد أنَّ الله تعالى نوَّر السموات والأرض، خلقهما وأبدعهما وأفاض على من فيهما من نوره، فاهتدى المؤمنون بنوره، واعرض الكافرون عن ذلك النور، وآيات هذا الموضوع جاءت متناسقة تناسقاً بديعاً مع الموضوع السابق، فهي تسوق مجموعة من الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله وكمال قدرته، فهي بمثابة النور الذي يظهر الموجودات للدلالة على موجِدُها، وهذه الأدلة سيقت بعد بيان موقف الكفار المتعنت لإقامة الحجة عليهم بعد إصرارهم على كفرهم، مع كثرة البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة، على وحدانيته تعالى(٣).

وذكر الله تعالى هذا الموضوع بعد عدة أوامر ونواهٍ، لأنَّ الله تعالى يريد أن يُلفتنا إلى ما يدل على وحدة الخالق الأعلى، وكمال قيوميته، وكأنَّه عز وجل يريد أن يطمئن عبده، على أنَّ هذا الكون الذي خلقه من اجله، وجعله في استقباله بسمائه وأرضه ومائه وهوائه، لن يخرج عن خدمة الناس فهو مسخر لهم(٤).

إنَّ الله تعالى ضرب في هذا الموضوع، مثلاً آخر لنوره الباطن الموجود في الموجودات، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾(٥)، وتناسق معنى هذا بالوصف السابق لنوره في السموات والأرض(٦).

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٥٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٨٦.
(٣) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٣٠.
(٤) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٧/ ص١٠٢٨٨.
(٥) سورة النور: من الآية ٤١.
(٦) ينظر: تنبيه الافهام، ج٤/ ص١٥٩.

المطلب الثاني
تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۢ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

قال أبو السعود إنَّ هذه الآية: (استئناف خوطب به النبي ﷺ؛ للإيذان بأنَّه تعالى أفاض عليه ﷺ أعلى مراتب النور وأجلاها، وبين له من أسرار الملك الملكوت وأدقها وأخفاها)[2].

والخطاب في الآية للنبي ﷺ، والمعنى: ألم تنظر يا محمد، فتعلم أنَّ الله يصلي له من في السماوات والأرض، مِن الملائكة والإنس والجنّ، والطير في الهواء أيضاً تسبح له، قد علم الله تعالى صلاة المصلي وتسبيح المسبح، وهو المالك لِما في السموات والأرض فلا شريك له يعارضه، وإليه يرجع أمر العباد في الآخرة[3].

ثمّ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[4].

---

(١) سورة النور: الآية ٤١– ٤٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٨٢.
(٣) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص١٩٩.
(٤) سورة النور: الآية ٤٣.

الخطاب للنبي ﷺ، فالله تعالى يقول: الم ترَ يا محمد أنَّ الله يسوق سحاباً حيث يريد، ثم يؤلف بين السحاب، ويجعله متراكماً بعضه على بعض، فترى القطر يخرج من بين السحاب، وهو الودق، قال الشاعر[(١)]:

**فَلا مُزْنَةٌ ودقَتْ ودْقَهَا		ولا أَرْضٌ أَبْقَلَ إِبْقَالَها.**

الشاهد فيه: قوله (ودقت ودقها) أي: أنَّ الودق هو المطر.

فيعذب بذلك الذي ينزل من السماء من جبال فيها من برد من يشاء فيهلكه، أو يهلك به زروعه وماله، ويصرف زروعهم وأموالهم على من يشاء من خلقه، يكاد شدة ضوء برق هذا السحاب، يذهب بأبصار من لاقى بصره[(٢)].

واختلف أهل العلم في المراد من جبال السماء على أقوال عدة، منها: أنَّه أراد بالجبال السحاب فإنها تشبه الجبال. ومنها أنَّه أراد الرياح الشديدة. ومنها أنَّه أراد نفس البرد، أي: وينزل من السحاب جبالاً من برد. ومنها أنَّه أراد الشواهق الشديدة الارتفاع، وهذه الشواهق قل ما تخلو من الثلج والسحاب[(٣)].

ووصف أبو السعود تقليب الليل والنهار في قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[(٤)]، بقوله، أي: (المعاقبة بينهما، أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر،

(١) شرح بن عقيل على ألفية بن مالك، بن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني (ت:٧٦٩هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، ط٢٠ (القاهرة/١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) ج٢/ ص٩٢. والمزنة: هي السحابة المثقلة بالماء، والودق: هو المطر، وأبقل، أي: أنبت البقل، وهو النبات. ينظر: المصدر السابق، ج٢/ ص٩٢. ونسب سيبويه هذا البيت إلى عامر بن جوين الطائي. ينظر: الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي الملقب سيبويه (ت:١٨٠هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط٣ (القاهرة/ ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ج٢/ ص٤٦.

(٢) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص٢٠١- ٢٠٣.

(٣) ينظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت:٤٧١هـ) تحقيق: إياد عبد اللطيف القيسي، مجلة الحكمة، ط١ (بريطانيا/ ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ج٣/ ص١٢٩٢.

(٤) سورة النور: الآية ٤٤.

أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما، مما يقع فيهما من الأمور التي من جملها ما ذكر من إزجاء السحاب وما ترتب عليه)[١].

إنَّ اختلاف الليل والنهار في هذه الآية يُظهر معنى ذلك وضوحاً بيناً، فالله تعالى يحوّل الظلام ضياء، والضياء ظلاماً، ويزيد أحدهما تارة، وينقصه تارة أخرى، مع المطر تارة، والصحو أخرى، فينشأ من ذلك التقليب من الحر إلى البرد، وغير ذلك مما يبهر العقول، ولهذا قال سبحانه في ختام الآية، منبهاً على النتيجة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ على وجود الصانع، وعلى كمال قدرته، ونفاذ مشيئته[٢].

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣].

إنَّ من تناسق الموضوعات أنَّه بعد أن ذكر أحوال السماء والأرض، ثم الآثار العلوية، ذكر بعد ذلك أحوال الحيوانات. قال الرازي: (هذا هو النوع الثالث من الدلائل على الوحدانية؛ وذلك لأنَّه لما استدل أولاً بأحوال السماء والأرض، وثانياً بالآثار العلوية، استدل ثالثاً بأحوال الحيوانات)[٤].

خلق الله تعالى كل حيوان يدب على وجه الأرض، من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، أو من ماء مخصوص وهو النطفة، ثم خالف بين المخلوقات، فمنها ما يمشي على بطنه كالحية والحوت، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطير، ومنهم من يمسي على أربع كالبهائم، وقدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو غيرها، ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع، فيخلق الله الخلق كيف يشاء، ولا يتعذر عليه شيء، فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات، فأي عقل يقف

---

(١) إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٨٥.

(٢) ينظر: عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، علي أحمد عبد العال الطهطاوى، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ص٥٥.

(٣) سورة النور: الآية ٤٥.

(٤) مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤٠٦.

عليها، وأي خاطر يصل إلى ذرة من أسرارها، بل هو الذي يخلق ما يشاء ولا يمنعه منه مانع ولا دافع[1].

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2]. والمراد: يا أيها الناس لقد أنزلنا علامات واضحات دالات على طريق الحق وسبيل الرشاد، والله يرشد ويهدي من يشاء من خلقه بتوفيقه، فيهديه إلى دين الإسلام، وهو الصراط المستقيم، والطريق القاصد الذي لا اعوجاج فيه[3].

قال ابن كثير: (يقرر تعالى أنَّه أنزل في هذا القرآن من الحِكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً، وأنَّه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى، ولهذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾)[4].

وختم وهبة الزحيلي تفسير هذه الآية، بقوله: (ما أجمل وأبدع ما ختمت به تلك الأدلة من قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ فهي تشمل كل الأدلة والعبر، ومنها بيان القرآن العظيم الذي اشتمل على أدلة الإيمان والاعتقاد، وأحكام العبادة والتشريع، وأصول الفضائل والآداب والأخلاق، والله يهدي بتلك الأدلة من يريد إلى طريق الحق والصواب، والسداد والاستقامة، دون انحراف أو اعوجاج)[5].

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: عبر بـ ﴿ مَن ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[6]، مع أنَّ فيها ما لا يعقل؟

قال صاحب زهرة التفاسير: (التعبير بـ ﴿ مَن ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ مع أنَّ فيها ما لا يعقل؛ لأنَّها كلها في دلالتها على التسبيح أقيمت مقام العاقل؛ ولأنَّ فيها عقلاء وغير عقلاء، غَلَّب في البيان العقلاء؛ لأنَّهم أعلى مكانة من غيرهم

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤٠٩؛ مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥١١- ٥١٢.

(٢) سورة النور: الآية ٤٦.

(٣) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص٢٠٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ج٦/ ص٦٧.

(٥) التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٦٩.

(٦) سورة النور: من الآية ٤١.

كالملائكة، فإنَّهم أعلى من غيرهم، ومثل ذلك عقلاء الإنس والجن المهديون، وغيرهم)[١].

ثانياً: لَمَّا قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٢]، فالتسبيح يشمل كل المخلوقات، ولكنَّه خص الطير بالذكر، فقال عزَّ وجل: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾[٣]؟

إنَّ تخصيص الطير بالذكر، مع أنَّها مندرجة في جملة ما في الأرض؛ لعدم استمرار قرارها فيها؛ ولاختصاصها بصنع بارع، وهو اصطفاف أجنحتها في الجو، وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط، فإذا طارت تكون خارجة من جملة من في السموات والأرض حالة طيرانها، ففي ذلك دلالة واضحة على كمال قدرة الصانع المجيد، وهو ما أرادت الآية التنبيه عنه[٤].

قال صاحب زهرة التفاسير، وذلك: (لِما فيها من إعجاز من أنَّها تطير، وتسير في الفضاء من غير أن يكون سيرها على أجرام جامدة تتحمل ما يسير عليها، بل هي تسير من غير جرم جامد ثقيل تسير عليه، ولذلك خصها بالذكر لفضل ما تدل عليه من إبداع في الخلق والتكوين)[٥].

قال الشعراوي خصَّ الله تعالى الطير بالذكر: (لأنَّ لها خصوصية أخرى يجب أن نلتفت إليها؛ لأنَّ الله تعالى يريد أن يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشيء أعظم، فالطير كائن له وزن وثقل، يخضع لقانون الجاذبية التي تجذب للأرض كل ثقل يعلق في الهواء، لكن الحق سبحانه وتعالى يخرق هذا القانون للطير حين يصف أجنحته في الهواء، يظل معلقاً لا يسقط: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾[٦])[٧].

---

(١) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥٢٠٣.

(٢) سورة النور: من الآية ٤١.

(٣) سورة النور: من الآية ٤١.

(٤) ينظر: البحر المحيط، ج٨/ ص٥٦؛ إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٨٣؛ البحر المديد، ج٤/ ص٤٩.

(٥) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥٢٠٣.

(٦) سورة الملك: الآية ١٩.

(٧) تفسير الشعراوي، ج١٧/ ص١٠٢٩٣.

ثالثاً: ورد ذكر (ماء) نكرة في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ ﴾[١]، بينما ورد ذكره في موضع آخر من القرآن معرفة: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ ﴾؟[٢].

والسر في ذلك هو أنَّ شيئاً واحداً تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة[٣]. وبالنظر والتأمل في الآيتين نجد بينهما اختلافاً، فسبب ذكر الماء نكرة؛ لأنَّ المعنى أنَّه خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة، فمنها هوام ومنها بهائم ومنها ناس، وأمَّا سبب ذكر الماء معرفة، هو أنَّ أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس الذي هو جنس الماء، وذلك أنَّه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط[٤].

قال ابن عاشور: (تنكير ماء لإرادة النوعية تنبيهاً على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب، إذ المقصود تنبيه الناس إلى اختلاف النطف، للزيادة في الاعتبار)[٥].

رابعاً: قال تعالى: ﴿ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ ﴾[٦]، وذلك يسمى زحفاً لا مشياً، فلا يسمى مشياً إلَّا ما كان بالقوائم؟

وأشار أهل العلم إلى هذه المسألة بعدة آراء، فقال بعضهم: إنَّ ذلك مجاز بطريق المشابهة، كما يقال: مشى هذا الأمر، وفلان لا يتمشى له أمر؛ وذلك للمبالغة في إظهار القدرة، وأنَّها تزحف بلا آلة كشبه المشي وأقوى، ويزيد ذلك حسناً ما فيه من المشاكلة؛ لذكر الزاحف مع الماشي[٧].

---

(١) سورة النور: من الآية ٤٥.

(٢) سورة الأنبياء: من الآية ٣٠.

(٣) ينظر: الجدول في إعراب القرآن، ج١٨/ ص٢٧٨.

(٤) ينظر: الكشاف، ج٣/ ص٢٤٦– ٢٤٧؛ البحر المحيط، ج٨/ ص٦٠؛ البحر المديد، ج٤/ ص٥٣؛ قبسات من سورة النور، ص١٩١.

(٥) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٦٦.

(٦) سورة النور: من الآية ٤٥.

(٧) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤٠٧؛ البحر المحيط، ج٨/ ص٦٠؛ إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٨٥؛ الجدول في إعراب القرآن، ج١٨/ ص٢٧٨.

خامساً: قال تعالى فيما سبق من هذه السورة: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾[1]، وفي ختام هذا الموضوع، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾[2]، فحُذفت (الواو) و (إليكم)؟

قال صاحب كشف المعاني: (إنَّ الأولى بعد ما قدمه قبلها من المواعظ والآداب والأحكام، فناسب العطف عليه (بالواو) و (إلى) ثم ابتدأ كلاماً مستأنفاً، بعد ما قدمه من عظيم آياته بإرسال الرياح والمطر وإنزال الماء والبرد. وقوله تعالى: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ في الأولى دون الثانية؛ لأنَّها عقيب تأديب المؤمنين وإرشادهم فكأنها خاصة بهم، والثانية عامة؛ لأنَّ آيات القدرة للكل غير خاصة، ولذلك قال تعالى بعده: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾)[3][4].

إنَّ اتصال الأولى بما قبلها اشد، فقوله في نهاية الآية الأولى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[5]، مصروف إلى الجمل السابقة، من قوله: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾[6]، إلى آخره، وفيه معطوفان بالواو، فناسب ذكرها العطف، وذكر ﴿إِلَيْكُمْ﴾ ليفيد أنَّ الآيات المبينات، نزلت في المخاطبين في الجمل السابقة، وما ذكر في هذه الآية خال عن ذلك، فناسبه الاستئناف والحذف[7].

ولَمَّا كان المقصود من هذه الآية إقامة الحجة دون الامتنان، حذف ﴿إِلَيْكُمْ﴾ ولم يقيد إنزال الآيات بأنَّه إلى المسلمين، كما قيد ذلك فيما سبق من هذه السورة، في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾[8][9].

---

(١) سورة النور: من الآية ٣٤.
(٢) سورة النور: من الآية ٤٦.
(٣) سورة النور: من الآية ٤٦.
(٤) كشف المعاني، ص٢٧٢.
(٥) سورة النور: من الآية ٣٤.
(٦) سورة النور: من الآية ٣٣.
(٧) ينظر: فتح الرحمن، ص٣٩٦.
(٨) سورة النور: من الآية ٣٤.
(٩) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٦٧.

المبحث الثالث

السمات الدالة على نفاق المنافقين، وإيمان المؤمنين، ويشمل الآيات(٤٧- ٥٤)

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾(١).

توطئة:

تتكلم هذه السورة الكريمة عن ثلاث فرق، وهم: المؤمنون والكافرون والمنافقون، وقد سبق الحديث عن الفرقتين الأوليين والفرق بينهما، وجاءت هذه الآيات تتحدث عن المنافقين وسماتهم التي تدل عليهم، وترشد إليهم، وتبين الفرق بين إيمانهم وإيمان المؤمنين المهتدين.

وتبين هذه الآيات الكريمة أيضاً موقف المنافقين المتناقض بين القول والعمل، وتقديمهم للمصلحة الشخصية على كل الاعتبارات الدينية والأخلاقية، وذلك بسبب كفرهم الباطن الذي حرمهم من نور هداية الله تعالى، الذي لا يشرق إلّا في القلوب المؤمنة، وأمّا قلوب المنافقين فهي مريضة بالنفاق، مغمورة بالظلمات، محرومة من طاعة الله والاحتكام إلى شريعته، خاصة الأحكام الشرعية التي وردت في هذه السورة، فهم المتسببين بحادثة الإفك، فكان لابد من ذكرهم في هذه السورة، لبيان خطرهم على المجتمع الإسلامي(٢).

قال سيد قطب: (منهج الإسلام الواضح في التربية، يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية، وتحويل هذه الحركة إلى عادة

---

(١) سورة النور: الآية ٤٧- ٥٤.

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٣٩.

ثابتة أو قانون، مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل، وهؤلاء كانوا يقولون: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ﴾[1]، يقولونها بأفواههم، ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم، فيتولون ناكصين يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2]، فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم)[3].

إنَّ الإيمان بالمبدأ والاعتقاد لا يعرف إلَّا واجهة واحدة هي واجهة الصراحة في القول، والحزم والجزم بالعقيدة، ومطابقة القول العمل، أمَّا المنافقون فهم كما بينت الآيات، فإنَّهم يظهرون خلاف ما يبطنون، فيريدون أن يطعنوا بالإسلام من الخلف، فغايتهم هدمه، والتنصل من أحكامه وقواعده[4].

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيات الكريمة.



(١) سورة النور: من الآية ٤٧.

(٢) سورة النور: من الآية ٤٧.

(٣) في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٥٢٥.

(٤) ينظر: التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٧٣.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

إنَّ هذه الآيات تعتبر موضوعاً جديداً مستقلاً عن الموضوع السابق، ولكن التناسق بينهما ظاهر، فحرف الواو هو عطف نسق على الآية السابقة التي تكون مقدمة تمهيد وتذكير لهذا الموضوع(١).

ولو رجعنا إلى بداية السورة نجد أنَّ السبب في إشاعة حادثة الإفك هم المنافقون، فكان لابد من أن يكون لهم ذكر في هذه السورة المباركة، وتناسقت موضوعات السورة حتى جاء ذكرهم بعد الحديث عن دلائل توحيد الله تعالى، وذلك لأنَّه تعالى لَمَّا ذكر في الموضوع السابق دلائل التوحيد، كان من تناسق الموضوعين أن يذم قوم اعترفوا بالذنب بألسنتهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم، مع وجود هذه الدلائل والبراهين القاطعة على وجوده سبحانه وتعالى، فكانوا ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم بسبب نفاقهم(٢).

ولَمَّا قال تعالى في ختام الموضوع السابق: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾(٣)، شرع في هذا الموضوع الى بيان أحوال بعض من لم يشأ الله تعالى هدايتهم إلى الصراط المستقيم، وهم المنافقون(٤).

قال المراغي: (بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الواضحة على توحيده وأتم بيانها، ثم ذكر أنَّه يهدي بها من يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم، أعقبه بذكر من لم يهتد بها وهم المنافقون)(٥).

وجاء الموضوع السابق بمجموعة من الأدلة الساطعة، الدالة على وحدانية الله تعالى وعظمته وقدرته، وهذه الآيات أوصلت المؤمنين إلى نور الله تعالى وهدايته، ولكن هناك فريق من الناس أغلقوا قلوبهم وعقولهم عن التفكر فيها، فلم يهتدوا بها، ولم يصلوا إلى أهدافها، وأغمضوا أعينهم عن نورها، فمكثوا في ظلام كفرهم، تلك هي أوصاف المنافقين الذين اظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، والتي جاءت هذه الآيات لتتحدث عنهم، وتبين

---

(١) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٣٢.

(٢) ينظر: اللباب، ج١٤/ ص٤٢٦؛ التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٧١.

(٣) سورة النور: من الآية ٤٦.

(٤) ينظر: روح المعاني، ج٩/ ص٣٨٥.

(٥) تفسير المراغي، ج١٨/ ص١٢٠.

خطرهم على المجتمع الإسلامي[١].

قال صاحب زهرة التفاسير: (بَيَّن سبحانه وتعالى الذين استضاءوا بنور الله تعالى، وأقاموا الحق في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وأشار إلى أعمال الذين كفروا، وأنَّ ما يحسبونه خيراً منها يكون كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، وشرهم كظلمات في بحر لجي، وهنا يبين سبحانه حال الذين لا يمس الإيمان قلوبهم، وتتردد به ألسنتهم)[٢].

قال أبو حيان: (لَمَّا ذكر تعالى دلائل التوحيد، أتبع ذلك بذم قوم آمنوا بألسنتهم دون عقائدهم، ثم يتولى فريق منهم عن الإيمان)[٣].

إنَّ الله عز وجل قد أعطانا في آيات الموضوع السابق، ميزاناً نعلم به صدق الإنسان في دعواه الدخول في الإسلام، وبهذا الميزان نعرف الصادق من الكاذب، وهذا الميزان هو: قبول الاحتكام إلى الله والرسول ﷺ، والسمع والطاعة والخشية والتقوى، وهذه علامة الهداية إلى الصراط المستقيم، الذي تحدثت عنه الآية في ختام الموضوع السابق، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[٤]، وعلامة النفاق رفض الاحتكام إلى الله ورسوله، وهي علامة الضلال، وعلامة عدم الدخول في الصراط المستقيم، فالتناسق بين الموضوعين ظاهر بيّن، والصلة بينهما واضحة[٥].

وأوضح سيد قطب أنَّ كِلا الموضوعين متناسقان وأنَّ بينهما صلة واضحة، فقال: (بعد تلك الجولة الضخمة في مجالي النور، في مشاهد الكون الكبير، يعود سياق السورة إلى موضوعها الأصيل، موضوع الآداب التي يربي عليها القرآن الجماعة المسلمة، لتتطهر قلوبها وتشرق، وتتصل بنور الله في السماوات والأرض، ولقد تناول في الدرس الماضي حديث الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحديث الذين كفروا وأعمالهم ومآلهم، وما هم فيه من ظلمات بعضها فوق بعض، فالآن في هذا الموضوع يتحدث عن المنافقين، الذين لا ينتفعون بآيات الله المبينات ولا

(١) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٣٥.

(٢) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥٢١٠.

(٣) البحر المحيط، ج٨/ ص٦١.

(٤) سورة النور: من الآية ٤٦.

(٥) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٨٠٠.

يهتدون، فهم يظهرون الإسلام، ولكنهم لا يتأدبون بأدب المؤمنين في طاعة رسول الله ﷺ وفي الرضى بحكمه، والطمأنينة إليه)[١].

وبذلك يظهر مدى التناسق البديع بين الموضوعين: (فبعد أن ساقت السورة ما ساقت من الأحكام والآداب ومن الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، أتبعت ذلك بالحديث عن طائفة المنافقين، الذين لم ينتفعوا بآيات الله، ولم يتأدبوا بأدب المؤمنين)[٢].



(١) في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٥٢٤- ٢٥٢٥.

(٢) التفسير الوسيط، ج١٠/ ص١٤٠- ١٤١.

المطلب الثاني
تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(1).

إنَّ هذه الآية نزلت في المنافقين، وسببها: أنَّ رجلاً من المنافقين اختصم مع يهودي في أرض، فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما، وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف(2)، ويقول: إنَّ محمداً يحيف علينا، فنزلت الآية(3).

يقول الله تعالى في هذه الآية: إنَّ المنافقون كانوا يقولون صدَّقنا بالله وبالرسول، وأطعنا الله وأطعنا الرسول، ولكن بعد قولهم تجد أنَّ كل طائفة منهم تدبر عن رسول الله ﷺ، وتدعو خصمها للمحاكمة إلى غيره، ومن قال هذه المقالة ليسوا بمؤمنين؛ وذلك لتركهم الاحتكام إلى رسول الله ﷺ وإعراضهم عنه إذا دعوا إليه(4).

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾(5).

أي: إذا حدثت خصومة بين اثنين، فيدعو احدهما إلى أن يحكم بينهم الرسول ﷺ بحكم الله تعالى، فإذا بالآخر يكون معرض عن الحكم أو عن الإجابة(6).

---

(1) سورة النور: الآية ٤٧.

(2) هو كعب بن الأشرف اليهودي الطائي، شاعر جاهلي، أدرك الإسلام، ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، وأمر النبي ﷺ بقتله سنة (٣هـ). ينظر: إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي (ت:٨٤٥هـ) تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ج١/ ص١٢٥؛ الأعلام، ج٥/ ص٢٢٤-٢٢٥.

(3) ينظر: أسباب نزول القرآن، ص٣٣٧.

(4) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص٢٠٤.

(5) سورة النور: الآية ٤٨- ٤٩.

(6) ينظر: لباب التأويل، ج٣/ ص٣٠٢.

قال ابن كثير: (وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ؛ وذلك ليروج باطله، ثم فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أنَّ ذلك هو الحق، بل لأنَّه موافق لهواه، ولهذا لَمَا خالف الحق وعدل عنه إلى غيره)[١].

قال تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٢].

والمعنى: أفي قلوب هؤلاء الذين يعرضون إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، كفر ونفاق، أم أنَّهم شكوا في أنَّ محمد ﷺ هو رسول الله، فهم يمتنعون من الإجابة إلى حكمه والرضا به، أم يخالفون أن يظلمهم الرسول ﷺ بحكمه، إذا احتكموا إليه[٣].

والسبب في وصفهم بأنَّهم ظالمون؛ لبطلان ما هم عليه؛ لأنَّ الظلم يتناول كل معصية، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٤]، إذ المرء لا يخلو من أن يكون ظالماً لنفسه أو ظالماً لغيره، ويمكن أن يقال أيضاً، لَمَّا ذكر تعالى في الأقسام كونهم خائفين من الحيف، أبطل ذلك بقوله: ﴿ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فهم لا يخافون أن يحيف عليهم الرسول ﷺ؛ وذلك لمعرفتهم بأمانته وصيانته، وإنَّما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم وهم له جحود، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ ثم يأبون المحاكمة إليه[٥].

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[٦].

وبتتبع آيات القرآن الكريم نجد أنَّ الله تعالى يذكر المبطل بعد الحديث عن المحق وبالعكس، وهذه الآية خير مثال على ذلك، فبعد أن ذكر حكاية قول المنافقين وفعلهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج٦/ ص٦٨.

(٢) سورة النور: الآية ٥٠.

(٣) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص٢٠٥.

(٤) سورة لقمان: من الآية ١٣.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤١٠- ٤١١.

(٦) سورة النور: الآية ٥١- ٥٢.

وبقائهم على النفاق، ونفي الإيمان الحق، ذكر الله تعالى ما هو شأن أهل الإيمان في الطاعة والامتثال، وصفات المؤمن الكامل وما يجب أن يسلكه المؤمنون[1].

وجاء بعد ذلك بذكر المؤمنين إذا حصلت لهم محاكمة، وفي هذا تعليم أدب الشرع على معنى أنَّ المؤمنين كذا ينبغي أن يقولوا سمعنا الدعاء، واطعنا بالإجابة، ومن كانت هذه صفاته، فإنَّه من المفلحين في الدنيا والآخرة، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب[2].

من أطاع أوامر الله تعالى وأوامر رسوله، وترك ما ينهون عنه، ويخش الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل، فأولئك العالوا الرتبة، هم الفائزون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم[3].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4].

قال الرازي: (لَمَّا بَيَّن الله تعالى كراهية المنافقين لحكم رسول الله، فقالوا: والله لئن أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، ثم إنَّه تعالى أمر رسوله أن ينهاهم عن هذا القسم، ولو كان قسمهم كما يجب لم يجز النهي عنه؛ لأنَّ من حلف على القيام بالبر والواجب لا يجوز أن ينهى عنه، وإذا ثبت ذلك أنَّ قسمهم كان لنفاقهم وأنَّ باطنهم خلاف ظاهرهم، ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه لا يكون إلَّا قبيحاً)[5].

---

(١) ينظر: السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (ت: ٩٧٧هـ) مطبعة بولاق، د.ط (القاهرة/١٢٨٥هـ/ ١٨٦٩م)، ج٢/ ص٦٣٤؛ التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٧٥.

(٢) ينظر: لباب التأويل، ج٣/ ص٣٠٢؛ تفسير القرآن العظيم، ج٦/ ص٦٨.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ج٦/ ص٦٩؛ السراج المنير، ج٢/ ص٦٣٤.

(٤) سورة النور: الآية ٥٣.

(٥) مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤١١.

قال ابن كثير: (ليكن أمركم طاعة معروفة، أي: بالمعروف من غير حلف ولا إقسام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف، فكونوا أنتم مثلهم بتباع أحكام الله تعالى وشرائعه، والله خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق، فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لا يروج عليه شيء من التدليس، بل هو خبير بضمائر عباده وإن أظهروا خلافها)[١].

إنَّ الله تعالى يعلم ما في ضمائركم، ولا يخفى عليه شيء من سرائركم، وإنَّه فاضحكم لا محالة، ومجازيكم على نفاقكم، وعلى عدم طاعتكم للرسول المبعوث من الله تعالى[٢].

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٣].

فَسَّر ابن عاشور مراد الله تعالى من الآية، بقوله إنَّها: (تلقين آخر للرسول ﷺ بما يرد بهتانهم، بقلة الاكتراث بمواعيدهم الكاذبة، وأن يقتصروا من الطاعة على طاعة الله ورسوله، فيما كلفهم دون ما تبرعوا به كذباً)[٤].

وبالنظر إلى الآية نجد أنَّ تعالى قد صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات، وهو أبلغ في تبكيتهم، فيقول لهم: إن تولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله، فما ضررتموه وإنَّما ضررتم أنفسكم، فإنَّ الرسول ﷺ ليس عليه إلَّا ما حمله الله تعالى وكلفه من أداء الرسالة، فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه، وأمَّا أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه، وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم فقد أحرزتم نصيبكم من الهدى فالضرر في توليكم والنفع عائدان إليكم، وما على الرسول إلَّا أن يبلغ ماله نفع في قلوبكم ولا عليه ضرر في توليكم، فما على الرسول إلَّا التبليغ الظاهر الواضح، والموضح لما بكم إليه الحاجة[٥].

---

(١) ينظر: تفسير القران العظيم، ج٦/ ص٦٩-٧٠.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥١٥.

(٣) سورة النور: الآية ٥٤.

(٤) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٧٩- ٢٨٠.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤١٢؛ مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥١٥.

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: قَدَّم الله تعالى ذكر المنافقين على المؤمنين؟

لأنَّ ذلك من مظاهر وحدته عز وجل؛ لأنَّه تعالى أراد أن ينتهي موضوع هذه الآيات بإثبات الإيمان للمؤمنين(١). فجاء هذا التقديم مناسباً لسياق السورة، وذلك على عادة القرآن الكريم في إرداف التوبيخ بالترغيب والذم بالثناء والوعيد بالوعد والنذارة بالبشارة(٢).

قال سعيد حوى: (بعد أن تقرر أنَّ طاعة الرسول ﷺ فريضة من فرائض الله تعالى، وأنَّها علامة الإيمان الصادق، ومظهر الدخول في الإسلام، والصراط المستقيم، فإنَّ هذه الآيات تتجه لعرض موقف المنافقين من الطاعة، ثم لعرض الموقف الصحيح منها، ثم تعقب بوعد لأهل الإيمان، كما عرضت موقف المنافقين من الاحتكام إلى الله والرسول ﷺ، والموقف الصحيح من ذلك، ثم اتبعت ذلك بوعد)(٣).

ثانياً: أشار الله تعالى إلى أنَّ الاحتكام يكون لله والرسول في قوله: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾(٤)، ولكنَّه قال ﴿لِيَحْكُمَ﴾، ولم يقل (ليحكما)؟

قال القرطبي: (قال: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ، ولم يقل (ليحكما)؛ لأنَّ المعنى به الرسول ﷺ، وإنَّما بدأ بذكر الله إعظاماً لله واستفتاح كلام)(٥).

ثالثاً: قال تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾(٦)، فإذا خافوا أن يحيف الله عليهم ورسوله فقد ارتابوا في الدين، وإذا ارتابوا ففي قلوبهم مرض، فالكل واحد، فأي فائدة في التعديد؟

ذلك لأنَّ قوله تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ إشارة إلى النفاق، وقوله: ﴿ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ ﴾ إشارة إلى أنَّهم بلغوا في حب الدنيا إلى حيث يتركون الدين بسببه، ومع أنَّ هذه الثلاثة

---

(١) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٧٩٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٧٤.

(٣) الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٨٠٠.

(٤) سورة النور: من الآية ٤٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٢٩٣.

(٦) سورة النور: من الآية ٥٤.

متغايرة ولكنها متلازمة، وقد أدخل عليها كلمة ﴿أَمِ﴾ والسبب في ذلك أنَّه تعالى أنبههم على كل واحدة من هذه الأوصاف، فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق، وكان فيها شك وارتياب، وكانوا يخافون الحيف من الرسول ﷺ، وكل واحد من ذلك كفر ونفاق(1).

رابعاً: قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(2)، جاء هذا الترتيب على نسق بديع، وكان مقتضى النظم أن يرد فيه ختام الآية إلى مطلعها، مراعى فيه الترتيب الذي جاء عليه المطلع، بمعنى أنَّ نظم الكلام يكون: فإن تولوا فإنَّما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم، وما على الرسول إلَّا البلاغ المبين، وما عليكم إلَّا أن تطيعوه؟

ووضَّح عبد الكريم الخطيب أنَّ هذا كلام وذاك قرآن، فقال: (شتان بين القرآن، وبين الكلام، فقد جاء القرآن على هذا النظم، فحمّل المنافقين الأمانة، ثم دعاهم فوراً إلى الوفاء بها، لأنَّهم هم المطلوبون، المنادى عليهم بالخيانة، على حين أنَّ الرسول ﷺ قد أدى أمانته، وليس في حاجة إلى تنبيه أو طلب، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ توكيداً وشرحاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ وليس دعوة جديدة للنبي ﷺ أن يبلغ البلاغ المبين، على حين أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ هو أمر مطلوب من المنافقين أداؤه)(3).

(1) ينظر: مفاتيح الغيب، ج24/ ص410؛ اللباب، ج14/ ص429؛ السراج المنير، ج2/ ص634.

(2) سورة النور: الآية 54.

(3) التفسير القرآني للقرآن، ج9/ ص1314.

المبحث الرابع

مقومات أهل الإيمان، ويشمل الآيات (٥٥- ٥٧)

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

توطئة:

احتوت الآيات السابقة على الآداب والسلوك الاجتماعيّ التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون، ليكونوا خلفاء الله على الأرض، فكأنَّما ما سبق هو مقدمة لهذه الآيات، لأنَّه لا يحصل الاستخلاف إلَّا بتحقق أسبابه، فهذه الآيات (تعالج حالة الهزيمة النفسية التي قد تتعرض لها الأمة عندما تفقد إحساسها بكرامتها ورفعة مكانتها، واليأس من مستقبلها، فهي تفتح باب الأمل أمامها، فما على المؤمنين إلَّا تحصيل شروط الاستخلاف، وأمَّا قوة أعدائهم فقد تكفل الله تعالى بردها مهما بلغت، مِصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾)[2][3].

ولقد أشار ابن عاشور إلى ذلك، إذ قال: (لقد كان المسلمون واثقين بالأمن ولكن الله قَدَّم على وعدهم بالأمن، أن وعدهم بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين والشريعة فيهم، تنبيها لهم بأنَّ سنة الله أنَّه لا تأمن أمة بأس غيرها، حتى تكون قوية مكينة مهيمنة، ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمنا إيماء إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه، مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأنَّ ملاك ذلك هو طاعة الله

(١) سورة النور: الآية ٥٥- ٥٧.

(٢) سورة النور: الآية ٥٧.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٤٥.

والرسول ﷺ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾[1]، وإذا حل الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات، فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات)[2].

وتحققت هذه الوعود الثلاثة عندما فتح الله تعالى للمسلمين مشارق الأرض ومغاربها، وقد تحققت بشارة رسول الله ﷺ لأصحابه التي وردت في الحديث الصحيح الذي رواه ثوبان[3]، فقال: إنَّ النبي ﷺ قال: ((إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا))[4].

قال وهبة الزحيلي: (هذه هي أصول دولة الإيمان، تنبئ عن قواعد ومبادئ أهمها الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، وثمرتها، أولاً: إنجاز وعد الله بالعزة والسيادة في الأرض في الدنيا، ونصرة الإسلام على الكفر، وتمكين هذا الدين المرتضى وهو دين الإسلام في الأرض، أي تثبيته وتوطيده وتأمينه وتأمين أهله وإزالة الخوف الذي كانوا عليه، وثانياً: الظفر برحمة الله في الآخرة)[5].

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيات الكريمة.

---

(١) سورة النور: من الآية ٥٧.

(٢) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٨٢- ٢٨٣.

(٣) هو أبو عبدالله ثوبان بن بجدد، مولى رسول الله ﷺ، كان معه في السفر والحضر إلى أن توفي ﷺ، وقد روى عنه جماعة من التابعين، توفي سنة (٥٤هـ). ينظر: الاستيعاب، ج١/ ص٢٠٨؛ أسد الغابة، ج١/ ص٤٨٠.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم الحديث (٢٨٨٩) من رواية: ثوبان ﷺ، ج٤/ ص٢٢١٥.

(٥) التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٨٦- ٢٨٧.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

بعد تتبع آيات هذا الموضوع مع الموضوع السابق، واستقراء كلام العلماء، تبين أنَّ هذا الموضوع متناسق موضوعياً مع الموضوع السابق؛ وذلك لأنَّ الله تعالى لَمَّا ذكر أحوال المنافقين الذين ما أبقاهم على النفاق إلَّا ترددهم في عاقبة أمر المسلمين، وخشيتهم أن لا يستقر بالمسلمين المقام بالمدينة حتى يغزوهم المشركون، وكانوا يظهرون الإسلام اتقاء من تمام أمر الإسلام ويبطنون الكفر ممالاة لأهل الشرك حتى إذا ظهروا على المسلمين لم يلمزوا المنافقين بأنَّهم قد بدلوا دينهم، ذكر أنَّ الله تعالى أنجز وعده للمسلمين باستخلافهم في الأرض، واستبدال الخوف الذي كان بينهم إلى أمن وتمكين في الأرض، وهذا متناسق مع قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[1][2].

إنَّ كل ما سبق من أحكام ومعاني تصب في هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]، فالله تعالى يريد سلامة المجتمع وسلامة الخلافة في الأرض، فمن اقتدى بالآداب الإسلامية، والأحكام والشرائع التي انزلها الله تعالى، كان أهلاً للخلافة عن الله تعالى[4].

إنَّ آيات الموضوع متناسقة بالآيات السابقة سياقاً وموضوعاً، تناسقاً بديعاً، واتصالاً وثيقاً، وأنَّها جاءت معقبة على الموضوع السابق، فقد نددت آياته بمرضى القلوب، ودعت إلى الإخلاص في السمع والطاعة والإيمان، وقررت أنَّ هذا هو لخير الناس ومصلحتهم، فجاءت هذه الآيات تعد المخلصين بما تعدهم، وتؤكد واجب الطاعة للرسول ﷺ وما في ذلك من ضمان رحمة الله[5].

قال وهبة الزحيلي: (بعد الكلام عن الطاعة وثمرتها، وهي أنَّ من أطاع الرسول ﷺ فقد اهتدى إلى الحق وفاز بالجنة، ووعد الله سبحانه بتمكين المؤمنين الطائعين في خلافة

---

(١) سورة النور: من الآية ٥٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٨١.

(٣) سورة النور: من الآية ٥٥.

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٧/ ص١٠٣١٧.

(٥) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٣٧.

الأرض، وتأييدهم بالنصر والإعزاز، وإظهار دينهم على الدين كله، وتبديلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً، فيعبدون الله آمنين لا يشركون به شيئاً ولا يخافون، ثم أمرهم بالصلاة والزكاة شكراً لتلك النعم، وطمأنهم بتحقق الوعد السابق بإهلاك الكافرين وزجّهم في نار جهنم)[١].

إنَّ الله تعالى لما كشف في الموضوع السابق سر المنافقين، وفضح حالهم، وعرفهم المؤمنون، اتبع ذلك ببيان مكانة الدولة الإسلامية بين الدول، فأراد أن يطمئن المؤمنين، ويشد أزرهم[٢].

قال المراغي: (بعد أن بيَّن أنَّ من أطاع الرسول فقد اهتدى إلى الحق، ومن اهتدى إلى الحق فجزاؤه دار النعيم، أردف ذلك وعده الكريم بأنَّه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله خلفاء في الأرض، ويؤيدهم بالنصرة والإعزاز، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً، فيعبدون الله وحده وهم آمنون، ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك فقد عصى ربه، وكفر أنعمه)[٣].

إنَّ الإسلام منهاج حياة كامل فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها، ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة وينسق بينها جميعا، وهذه السورة نموذج من ذلك التنسيق، فلقد تضمنت بعض الحدود إلى جانب الاستئذان على البيوت، وإلى جانبها جولة ضخمة في مجال الوجود، ثم عاد السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين في التحاكم إلى الله ورسوله، وسوء أدب المنافقين، وتناسق السياق بأنَّ يذكر الله تعالى وعده للمؤمنين بالاستخلاف والأمن والتمكين، فكلها آداب تأخذ بها الجماعة المسلمة وتنتظم بها علاقاتها، والقرآن يربيها في مجالات الحياة الكبيرة والصغيرة على السواء[٤].

---

(١) التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٨٢.

(٢) ينظر: التفسير الواضح، ج٢/ ص٦٩٥.

(٣) تفسير المراغي، ج١٨/ ص١٢٥.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٥٣٢.

لقد ذكر عز وجل في الموضوع السابق أنَّ من أطاع الله ورسوله فهو من المفلحين، فجاءت آيات هذا الموضوع تبين الفلاح المذكور في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١)، فمن أطاع الله الطاعة الكاملة والإيمان الصادق، كان من الذين استخلفهم الله تعالى في الأرض(٢).



(١) سورة النور: الآية ٥١.

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٤١.

المطلب الثاني
تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[١].

أخرج الحاكم[٢]، سبب نزول الآية، عن أبي بن كعب ﷺ أنَّه قال: (لَمَّا قَدِم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلَّا بالسلاح ولا يصبحون إلَّا فيه، فقالوا: ترون أنَّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلَّا الله، فنزلت الآية)[٣].

في الآية تقدير، ذكره الرازي بقوله: (إعلم أنَّ تقدير النظم: بلِّغ أيها الرسول، وأطيعوه أيها المؤمنون، فقد ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن يستخلفهم في الأرض، فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين، كما استخلف عليها من قبلهم في زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما، وأنَّه يُمكِّن لهم دينهم، وتمكينه ذلك هو أن يؤيدهم بالنصرة والإعزاز، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً، بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم، فيعبدونني آمنين لا يشركون بي شيئاً ولا يخافون، ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي: من بعد هذا الوعد وارتد ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾)[٤].

---

(١) سورة النور: الآية ٥٥.

(٢) الحاكم: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم النيسابوري، الشهير بالحاكم، كان إمام عصره في الحديث، صالحاً، ثقة، يميل إلى التشيع، من أهم مؤلفاته: (المستدرك على الصحيحين) و (معرفة أصول الحديث وعلومه وكتبه) توفي سنة (٤٠٥هـ). طبقات الحفاظ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص٤١١؛ ينظر: الأعلام، ج٦/ ص٢٢٧.

(٣) المستدرك على الصحيحين، ج٢/ ص٤٣٤؛ أسباب النزول، ص٣٣٨- ٣٣٩؛ الصحيح المسند من أسباب النزول، ص١٥٣- ١٥٢. قال الحاكم: الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتابعه الذهبي بقوله: صحيح. ينظر: المستدرك على الصحيحين، ج٢/ ص٤٣٤.

(٤) مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤١٢.

قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[١]. أمر الله تعالى عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ، أي: سالكين وراءه فيما به أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك، ومن اتبع هذه الأوامر دخل مع الذين سيرحمهم الله تعالى، كما قال في سورة التوبة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾[٢][٣].

ولَمَّا تحدث عن أهل الاستخلاف في الأرض، تناسق السياق ليذكر أنَّ من اصطفاهم الله تعالى ليكونوا خلفائه على الأرض، يجب أن يطيعوه في جميع الأوامر والنواهي والأحكام، ويطيعوا الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[٤].

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية: (هذا تسلية للنبي ﷺ ووعد بالنصرة)[٥].

لقد كان المشركون في قوة وكثرة، وكان المسلمون يخافون باسهم، وكان بين المسلمين تردد وتعجب من الوعد المذكور في الآية السابقة، فجاءت هذه الآية لتزيل أي ريب كان ينتابهم.

قال ابن عاشور جاءت الآية: (لتحقيق ما اقتضاه قوله: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا ﴾[٦]، فقد كان المشركون يومئذ لم يزالوا في قوة وكثرة، وكان المسلمون لم يزالوا يخافون بأسهم، فربما كان الوعد بالأمن من بأسهم متلقى بالتعجب والاستبطاء الشبيه بالتردد، فجاء قوله: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ تطميناً وتسلية، والخطاب

---

(١) سورة النور: الآية ٥٦.

(٢) سورة التوبة: من الآية ٧١.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ج٦/ ص٧٤.

(٤) سورة النور: الآية ٥٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٣٠١.

(٦) سورة النور: من الآية ٥٥.

لمن قد يخامره التعجب والاستبطاء دون تعيين، والمقصود من النهي عن هذا الحسبان، التنبيه على تحقيق الخبر)[١].

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: توسط الظرف بين المعطوفين، في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[٢]، وتأخر في موضع آخر من سورة الفتح، في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[٣]؟

السبب في ذلك ذكره أبو السعود بقوله: (توسيط الظرف بين المعطوفين؛ لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، وللإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم، وأما تأخيره عنهما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[٤]، فلأن (من) هناك بيانية، والضمير الذين معه ﷺ من خُلَّص المؤمنين، ولا ريب في أنَّهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة، مثابرون عليهما، فلا بد من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة بكمالها)[٥].

ثانياً: سقط الجار من قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[٦]، ولم يقل: (من بعد ذلك)؟

وأوضح البقاعي السبب في سقوط الجار من هذه الآية، بقوله: (لَمَّا كان الفاسق الكامل إنَّما هو من مات على كفره فحبط عمله، فكان بذلك كفره مستغرقاً لزمانه، دون من مات مسلماً وإن كان كافراً في جميع ما مضى له قبل ذلك، أسقط الجار)[٧].

---

(١) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٩٠.

(٢) سورة النور: من الآية ٥٥.

(٣) سورة الفتح: من الآية ٢٩.

(٤) سورة الفتح: من الآية ٢٩.

(٥) إرشاد العقل السليم، ج٦/ ص١٩٠.

(٦) سورة النور: من الآية ٥٥.

(٧) نظم الدرر، ج٥/ ص٢٨٠.

ثالثاً: عبر الله تعالى: بـ ﴿وَءَاتُوا۟﴾ دون (أدوا)؟

لأنَّ الله تعالى أراد أن يُشير بهذا اللفظ إلى أنَّ الزكاة هي عطاء يعطى، ويعطيها المزكي على أنَّها مغنم لا على أنَّها مغرم؛ لأنَّ في إيتائها تعاون اجتماعي، ليس فيه مذلة لفقير، ولا استطالة لغني[1].

رابعاً: تبين الآية الأولى من هذا الموضوع غاية الجهاد، والآية الأخيرة حال الذين يجاهدهم المؤمنون، فكِلا الآيتين متصلتين، ومع ذلك فلم تُعطف بأداة عطف؟

قال صاحب زهرة التفاسير: (كان الفصل بين الجملتين، وعدم الاتصال بالعطف؛ لكمال الاتصال بين موضوع الآيتين، فالآيتان السابقتان فيهما بيان ما للمؤمنين من منزلة، وما تحلَّوا به من طاعة للرسول، والآية الأخيرة فيها بيان المخالفة والمعاندة، وفوق ذلك فإنَّ الآية الأولى تبين غاية الجهاد، والثانية حال الذين يجاهدهم المؤمنون)[2].



(١) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥٢٢٢.

(٢) المصدر السابق، ج١٠/ ص٥٢٢٣.

الفصل الرابع

الاستئذان، وآدابه في مجلس النبي ﷺ، ويشمل الآيات (٥٨- ٦٤)

توطئة:

بعد التأمل في آيات السورة من (٥٨- ٦٤) والنظر في أقوال المفسرين، تبين لي أنَّ الآيات سيقت لبيان الاستئذان، وآدابه في مجلس النبي ﷺ، وقد سبق الحديث عن آداب الاستئذان ولكن هذه الآيات تتحدث عن آداب الاستئذان في داخل الأسرة الواحدة، وأيضاً حكم الأكل في بيوت الأقارب دون إذن، وذكرت آداب الاستئذان في مجلس النبي ﷺ، وقد جاء الحديث عن هذا الموضوع من خلال ثلاثة مباحث، وكل مبحث يمثل موضوع مستقل من موضوعات السورة.

المبحث الأول

الاستئذان في داخل الأسرة، ويشمل الآيات (٥٨-٦٠)

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١).

توطئة:

بعد هذه الوقفة الطويلة مع الإلهيات التي ابتدأت بالإشارة إلى نور الله تعالى، الذي أنار قلوب عباده المؤمنين، فأقبلوا على طاعته وتحاكموا إلى شريعته، واستجابوا لله تعالى ورسوله، فكافأهم على ذلك استخلافاً في الأرض تمكيناً وأمناً، يعود سياق السورة إلى محورها الأساسي، ليكمل ما بدأته من تشريع للآداب والأحكام الشرعية المتعلقة بالأسرة

---

(١) سورة النور: الآية ٥٨ – ٦٠.

والمجتمع، فقد شرَّع الله تعالى في بداية السورة أدب الاستئذان للدخول على البيوت، ثم تتناسق الموضوعات وصولاً إلى تشريع أدب الاستئذان داخل البيوت، وكلها آداب اجتماعية هامة تنظم علاقات المسلمين فيما بينهم[١].

قال البيضاوي إنَّ هذه الآيات: (رجوع إلى تتمة الأحكام السالفة في هذه السورة، بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها، والوعد عليها والوعيد على الإعراض عنها)[٢].

قال وهبة الزحيلي في موضوع هذه الآيات، إنَّ: (موضوع هذه الآيات استئذان الأقارب بعضهم على بعض، والتخفيف عن العجائز بإلقاء الثياب الظاهرة، أمَّا ما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض)[٣].

لَمَّا سبق ذكر ضوابط تنظيم علاقات الأفراد خارج الأسرة، انتقل السياق إلى سلوك يمس المجتمع من داخله والأسرة في أدق خصوصياتها، فذكر ضوابط تحمي هذه الخصوصية؛ لتنظيم علاقات الأفراد في الأسرة الواحدة[٤].

لم يترك الدستور الإسلامي الإلهي شيئاً إلَّا وجعل له أحكاماً وقوانين، لينشأ المجتمع سليماً خالياً من الهفوات والزلل، ولذلك فإنَّه لم يقتصر على آداب الدخول إلى البيوت، إنَّما تعدى ذلك إلى البيوت التي يعيش فيها أسرة كبيرة، فيها الإخوة والخدم والعبيد، فهذه الآيات جاءت لتبين الآداب الخاصة لمن يعيش في أسرة كبيرة في بيت واحد، إنقاذاً من ذلك الحرج[٥].

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيات الكريمة.

---

(١) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٤٧.

(٢) أنوار التنزيل، ج٤/ ص١١٣.

(٣) التفسير المنير، ج١٨/ ص٢٩٢.

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٧/ ص١٠٣٢٨- ١٠٣٢٩.

(٥) ينظر: التفسير الواضح، ج٢/ ص٦٩٨.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

يظهر التناسق الموضوعي في آيات هذا الموضوع، والموضوع السابق من خلال تتبع واستقراء موضوعات السورة وصولاً إلى هذا الموضوع؛ لأنَّ الله تعالى قد فصَّل بين الاستئذان المذكور في بداية السورة، والاستئذان في موضوع هذه الآيات، ولكن الأمر ليس كما يظهر للوهلة الأولى، وإنَّما كان فعل الشارع فيه مقصد وغاية، وذلك أنَّه عز وجل لَمَّا أمر في بداية السورة بعدم دخول البيوت بغير أذن، فإنَّ السياق بدأ بالحديث عن استئذان الأجانب بعضهم على بعض، ثم أمر بغض البصر، وتبعه الحديث عن النكاح، ثم تناسقت الموضوعات التي تخص كل ما يمكن أن يحدث من أمور خارج البيوت، ثم جاء هذا الموضوع؛ ليكمل الحديث عن الاستئذان في داخل البيوت في الأسرة الواحدة، فالمراد بالاستئذان هنا هو استئذان الأقارب بعضهم على بعض، فالاستئذان الأول كان عاماً، والاستئذان الثاني فيه تخصيص، وكأنَّ كل ما سبق من موضوعات هو عبارة عن موضوع واحد، وهو الاستئذان لدخول البيوت، فالتناسق واضح بين هذا الموضوع وسابقه.

قال عبد الكريم الخطيب: (جاءت هذه الآيات الثلاث لتستكمل أدب المعاشرة والمخالطة في المجتمع الإسلامي، بعد أن بينت الآيات السابقة أحكام الاستئذان، والحجاب والتحصن في الزواج، وكان من تدبير الحكيم العليم في هذا، أنَّه لم يجيء بهذه الأحكام جميعها في معرض واحد، حتى لا تزحم العقل، وحتى لا يفلت منها شيء في هذا المزدحم، فهي جميعها دستور متكامل، وعقد منتظم، إن انفرطت حبة منه انفرطت حبات العقد كلها، ومن أجل هذا كان هذا الفصل بينها بتلك الآيات)[1].

قال البقاعي: (لَمَّا كان المَلَل من شِيم النفوس، فكان تدريج الكلام في المقاصد، لاسيما الأحكام شيئاً فشيئاً خلال مقاصد أخرى أوقع في القلب، وأشهى إلى الطبع، لاسيما إذا كان على وجوه من المناسبات عجيبة، وضروب من الاتصالات هي مع دقتها غريبة، زين الله تأصيلها بتفصيلها، فابتدأ السورة بطائفة منها، وفصلها بدر الوعظ، وجواهر الحكم، والحث على معالي الأخلاق، ومكارم الأعمال، ثم وصلها بالإلهيات التي هي أصولها، وعن عُلي مقاماتها تفرعت فصولها، فلَمَّا ختمها بالتمكين لأهل هذا الدين،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٣١٨.

وتوهين أمر المعتدين، شرع في إكمالها، بإثبات بقية أحوالها، تأكيداً لِمَا حكم به من التمكين، وما ختمه من ذلك من التوهين، وتحذيراً مما ختمه من العذاب المهين، وتحقيقاً لما ألزم به من الطاعة، ولزوم السنة والجماعة، فقال واصلاً بما ختم به الأحكام الأولى، من الأمر بإنكاح الأيامى، والكف عن إكراه البغايا، إثر الذين لم يظهروا على عورات النساء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾)[1][2].

عبر الآلوسي عن التناسق بين الموضوعين بأنَّه واضحٌ بينٌ، فقد قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾[3]، رجع إلى: (بيان تتمة الأحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها، وفي الأحكام اللاحقة من التمثيلات، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وفي التحقيق، ويحتمل أن يقال: إنَّه مما يطاع الله تعالى ورسوله لله فيه، وتخصيصه بالذكر؛ لأنَّ دخوله في الطاعة باعتبار أنَّه من الآداب أبعد من غيره)[4].

الآيات بمضمونها من الأحكام التشريعية، تشكل جزءًا أصيلاً من الأجزاء التي شكلت محور السورة، المتعلق بالآداب الاجتماعية والتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع، فالموضوع السابق يدور حول مقومات أهل الإيمان، وتناسقاً لذلك جاء هذا الموضوع ليكمل هذه المقومات داخل البيت الواحد[5].

قال ابن عاشور: (استئناف انتقالي إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة، وهو عود إلى الغرض الذي ابتدأت به السورة، وقطع عند قوله: ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[6]، وقد ذكر في هذه الآية شرع الاستئذان لأتباع العائلة، ومن هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول

---

(١) سورة النور: من الآية ٢٧.

(٢) نظم الدرر، ج٥/ ص٢٨١- ٢٨٢.

(٣) سورة النور: من الآية ٥٨.

(٤) روح المعاني، ج٩/ ص٤٠٠.

(٥) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٥٠.

(٦) سورة النور: من الآية ٣٤.

بيت، فهو من متممات ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[(١)][(٢)].

عرض سيد قطب في تفسيره أنَّ هذه السورة هي نموذج واضح للتناسق الموضوعي، إذ قال: (إنَّ الإسلام منهاج حياة كامل، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها، ومن ثَم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة، وينسق بينها جميعاً، ويتجه بها إلى الله تعالى في النهاية، وهذه السورة نموذج من ذلك التنسيق، فقد تضمنت بعض الحدود، إلى جانب الاستئذان على البيوت، وإلى جانبها جولة ضخمة في مجال الوجود، ثم عاد السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين في التحاكم إلى الله ورسوله وسوء أدب المنافقين، إلى جانب وعد الله الحق للمؤمنين بالاستخلاف والأمن والتمكين، ثم يعود إلى آداب الاستئذان في داخل البيوت، إلى جانب الاستئذان من مجلس رسول الله ﷺ وينظم علاقة الزيارة والطعام بين الأقارب والأصدقاء إلى جانب الأدب الواجب في خطاب الرسول ودعائه، فكلها آداب يأخذ بها أهل الإيمان، لتنتظم بها علاقاتهم، والقرآن الكريم يربيها في مجالات الحياة الكبيرة والصغيرة على السواء)[(٣)].

إنَّ ما يرد من هذا الاستئذان هو استمرار لِمَا ورد من الاستئذان في بداية السورة، وقد فَصَل الله تعالى بين آيات الاستئذان بمعان متعددة، بعضها يقتضيه سياق الآيات التي ورد فيها الاستئذان هناك، وبعضها يخدم قضية الاستئذان هاهنا، فلما جاءت آيات الاستئذان هناك في سياق الكلام عن القذف والزنا، لم يناسب ذلك السياق أن يذكر موضوع الاستئذان من قِبلِ المماليك والصغار، ثم إنَّ موضوع الاستئذان بالنسبة للطوافين يحتاج إلى مقدمات، ولذلك فقد جاء هنا بعد مقدمات طويلة توطئ للالتزام[(٤)].

---

(١) سورة النور: من الآية ٢٧.

(٢) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٩١.

(٣) في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٥٣١- ٢٥٣٢.

(٤) ينظر: الأساس في التفسير، ج٧/ ص٣٨٠٣- ٣٨٠٤.

المطلب الثاني

تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[(١)].

جاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ وجَّه غلاماً من الأنصار، إلى عمر بن الخطاب ﷺ، وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر ﷺ بحالة كره عمر رؤيته ذلك، فقال: يا رسول الله، وددت لو أنَّ الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية[(٢)].

والمراد بالنداء في الآية، أنَّه عُني به الذكور والإناث; لأنَّ الله تعالى عمَّ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾ جميع أملاك أيماننا، ولم يخصص منهم ذكراً ولا أنثى، فتأويل الكلام: يا أيُّها الذين صدقوا الله ورسوله، ليستأذنكم في الدخول عليكم عبيدكم وإماؤكم، فلا يدخلوا عليكم إلَّا بإذن منكم لهم، ليس عليكم معشر أرباب البيوت والمساكن، ولا على الذين ملكت أيمانكم من الرجال والنساء، والذين لم يبلغوا الحلم من أولادكم الصغار حرج ولا إثم بعد هذه الأوقات الثلاث، وأمَّا هؤلاء المماليك والصبيان الصغار هم طوّافون عليكم أيُّها الناس، أي: أنَّهم يدخلون ويخرجون على مواليهم وأقربائهم في منازلهم غدوة وعشية بغير إذن يطوفون عليهم، بعضكم على بعض في غير الأوقات الثلاث التي أمرهم أن لا يدخلوا على ساداتهم وأقربائهم فيها إلَّا بإذن، وإنَّ الله تعالى كما بَيَّن لكم أيُّها الناس أحكام الاستئذان في هذه الآية، كذلك يبين لكم جميع أعلامه وأدلته وشرائع دينه، فالله ذو علم بما يصلح عباده، حكيم في تدبيره إياهم، وغير ذلك من أموره[(٣)].

---

(١) سورة النور: الآية ٥٨.

(٢) ينظر: أسباب النزول، ص٣٣٩.

(٣) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص٢١١- ٢١٢، ٢١٤.

إنَّ الله تعالى أمر أن يستأذن العبيد والإماء من الرجال والنساء الذين ملكت أيمانكم، والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ثلاث أوقات في اليوم والليلة، وهي: قبل صلاة الفجر؛ لأنَّه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة، ووقت الظهيرة؛ لأنَّها وقت وضع الثياب للقائلة، وبعد صلاة العشاء؛ لأنَّه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم(١).

قال الرازي: (قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ إن أريد به العبيد والإماء إذا كانوا بالغين فغير ممتنع أن يكون أمراً لهم في الحقيقة، وإن أريد الذين لم يبلغوا الحلم لم يجز أن يكون أمراً لهم، ويجب أن يكون أمراً لنا بأن نأمرهم بذلك ونبعثهم عليه، كما أمرنا بأمر الصبي وقد عقل الصلاة أن يفعلها لا على وجه التكليف لهم، لكنه تكليف لنا لما فيه من المصلحة لنا ولهم بعد البلوغ)(٢).

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٣).

المراد من الآية، الأحرار دون المماليك، فإذا بلغوا وأرادوا الدخول عليكم فليستأذنوا في جميع الأوقات، كما استأذن الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال، فالمعنى أنَّ الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن، إلَّا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا بالاحتلام أو بالسن، وجب أن يفطموا عن تلك العادة، وتحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات، كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلَّا بإذن، فالله تعالى عليم بأحوال خلقه ومصالحهم، حكيم فيما دبر لهم(٤).

قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٥).

---

(١) ينظر: الكشاف، ج٣/ ص٢٥٣.

(٢) مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤١٥- ٤١٦.

(٣) سورة النور: الآية ٥٩.

(٤) ينظر: مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥١٨- ٥١٩.

(٥) سورة النور: الآية ٦٠.

جاء في الآية الحديث عن النساء اللاتي قد قعدن عن الولد من الكبر، فلا يحضن ولا يلدن، وقد يئسن من البعولة، فلا يطمعن في الأزواج فليس عليهن حرج ولا إثم أن يضعن جلابيبهن، فلا حرج عليهن أن يضعن ذلك عند المحارم من الرجال، وغير المحارم من الغرباء غير متبرجات بزينة، ولم يردن بوضع ذلك عنهن أن يبدين ما عليهن من الزينة للرجال. والتبرج: هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تستره، وإن تعففن عن وضع جلابيبهن وأرديتهن، فيلبسنها خير لهن من أن يضعنها، بعثاً منه عن اختيار أفضل الأعمال وأحسنها[1].

قال البقاعي: (لَمَّا كان ما ذكر من حالهن من الخلطة على ذلك الوصف، معلوماً أنَّه لا يخلو عن كلام، كان التقدير: فالله في وضع الحرج عنهن رؤوف بهن رحيم، عطف عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي: الذي له جميع صفات الكمال ﴿سَمِيعٌ﴾ أي: لكلامهن إذا خاطبن الرجال هل يخضعن فيه ويتصنعن في ترخيم الصوت به، أو يلقينه على الحالة المعروفة غير المنكرة؟ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يقصدن به)[2].

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ﴾[3]، أمر الله تعالى الذين لم يبلغوا الحلم بالاستئذان، مع أنَّهم غير مكلفين؟

إنَّ حقيقة الأمر هي لأوليائهم؛ ليؤدبوهم[4]. وذلك لأنَّ الأطفال لا عناية لهم بتطلع أحوال الناس، وكون الغير مكلف من الأطفال، لا يمنع وليه من أن يعوده على ما يطلب منه من الآداب والحقوق[5].

ثانياً: أشار الله تعالى إلى الأوقات بالمرات في قوله تعالى: ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾[6]، ولم

---

(١) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص٢١٦، ٢١٨.

(٢) نظم الدرر، ج٥/ ص٢٨٤.

(٣) سورة النور: من الآية ٥٨.

(٤) ينظر: فتح الرحمن، ص٣٩٩.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٩٢؛ التفسير الواضح، ج٢/ ص٦٩٨.

(٦) سورة النور: من الآية ٥٨.

يقل (ثلاث أوقات) على اعتبار أنَّه ذكر بعدها ثلاث أوقات للاستئذان؟ ثم عَبَّر عنها بالعورات، فقال: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡ ﴾[1]؟

قال الرازي: (﴿ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ﴾ يعني: ثلاث أوقات؛ لأنَّه تعالى فسرهن بالأوقات، وإنَّما قيل ثلاث مرات للأوقات؛ لأنَّه أراد مرة في كل وقت من هذه الأوقات؛ لأنَّه يكفيهم أن يستأذنوا في كل واحد من هذه الأوقات مرة واحدة، ثم بين الأوقات، فقال: ﴿ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ ﴾[2]، يعني الغالب في هذه الأوقات الثلاثة أن يكون الإنسان متجرداً عن الثياب مكشوف العورة)[3].

أمَّا تسميتها بالعورات؛ وذلك لبيان العلة الموجبة للإذن، وفي ذلك قال ابن العربي: (﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡ ﴾ العورة كل شيء لا مانع دونه، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ ﴾[4]، أي: سهلة المدخل، لا مانع دونها، فبَيَّن العلة الموجبة للإذن، وهي الخلوة في حال العورة)[5].

قال الزمخشري: (وسمى كل واحدة من هذه الأقوال عورة؛ لأنَّ الناس يختل تسترهم وتحفظهم فيها، والعورة الخلل، ومنها أعور الفارس، وأعور المكان، والأعور: المختل العين)[6].

ففي هذه الأوقات نوع من الخلل والخصوصية، والله تعالى لا يريد لعبده أن يراه أحد على شيء يكرهه؛ لذلك سمى الأوقات الثلاثة بالعورات[7].

---

(١) سورة النور: من الآية ٥٨.

(٢) سورة النور: من الآية ٥٨.

(٣) مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤١٨.

(٤) سورة الأحزاب: من الآية ١٣.

(٥) أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٤١٦.

(٦) الكشاف، ج٣/ ص٢٥٣.

(٧) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٧/ ص١٠٣٣٢.

ثالثاً: في بداية السورة جاء بالطفل بصيغة المفرد، في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾(١)، وجاء في هذا الموضع بصيغة الجمع، ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾(٢)؟

ذكر الشعراوي سبب ذلك بقوله: (جاء بالطفل بصيغة المفرد؛ لأنَّ الأطفال في هذه السن لم تتكون لديهم الغريزة، وليست لهم هذه الميول أو المآرب، فكأنَّهم واحد، أمَّا بعد البلوغ وتكوَّن الميول الغريزية قال: ﴿ٱلْأَطْفَـٰلُ﴾ لأنَّ لكل منهم بعد البلوغ ميوله وشخصيته)(٣).

رابعاً: ختم الله تعالى ﴿ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ بالتعريف ب (ال) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٤)، ثم ختم بعدها بالإضافة إليه، في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٥)، مع اتحاد الخاتمة في كِلا الآيتين؟

إنَّ السبب في ذلك هو كراهة التكرار لِمَا فيه من مج النفوس، وأيضاً فإنَّ الله تعالى لَمَّا قدم الأوقات التي يستأذن فيها، والاستئذان من أفعال العباد، قال ﴿ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: العلامات على أحكامه تعالى، ولَمَّا قدم على الثانية بلوغ الأطفال، وهو من فعله تبارك وتعالى وخلقه لا من فعل العبد، نسب الآيات إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾؛ لاختصاص الله تعالى بذلك(٦).

---

(١) سورة النور: من الآية ٣١.

(٢) سورة النور: من الآية ٥٩.

(٣) تفسير الشعراوي، ج١٧/ ص١٠٣٣٤.

(٤) سورة النور: من الآية ٥٨.

(٥) سورة النور: من الآية ٥٩.

(٦) ينظر: كشف المعاني، ص٢٧٣.

إنَّ الآية الأولى تشتمل على علامات يمكن الوقوف عليها، وهي: ﴿ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾[1]، ومثله قوله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2]، أي: يبين لكم حد الزانين وحد القاذفين، فختم بقوله: ﴿ ٱلْأَيَٰتِ ﴾، وأمَّا بلوغ الأطفال في الآية الثانية فلم يُذكر له علامات يمكن الوقوف عليها، بل إنَّ بلوغ الحلم مما يختص الله تعالى بفعله، فخصها بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ بالإضافة إليه عز وجل، وختم كل آية بما اقتضاها أولها، والفرق بين الموضعين واضح[3].



(١) سورة النور: من الآية ٥٨.

(٢) سورة النور: الآية ١٧- ١٨.

(٣) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي الأصبهاني (ت:٤٢٠هـ) تحقيق: الدكتور محمد مصطفى آيدين، معهد البحوث العلمية، ط١ (مكة المكرمة/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ج١/ ص٩٥٥؛ أسرار التكرار، ص١٨٧- ١٨٨؛ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، أبو طاهر محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزآبادى (ت:٨١٧هـ) تحقيق: محمد علي النجار، إحياء التراث الإسلامي، د.ط (القاهرة/١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ج١/ ص٣٣٨.

المبحث الثاني

حكم الأكل في بيوت الأقارب دون إذن، ويشمل الآية (٦١)

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١].

توطئة:

هذه هي سورة النور، السورة التي تناولت موضوعاتها المتناسقة، الآداب الاجتماعية بين الأفراد والمجتمع، فالحديث يستمر إلى آخر آيات السورة في بيان حكم الأكل وآدابه في بيوت الأقارب والأصدقاء. وهذا معنى قول النيسابوري[٢]: (ثم ختم السورة بسائر الصور التي يعتبر فيها الإذن)[٣].

إنَّ إحصاء هذه الآداب الخاصة، استغرق ثلثي السورة، وإنَّ من لطائف القرآن الكريم أن تجيء آية طويلة تتحدث عن الأكل في البيوت، وعن الأقارب والأصدقاء، الذين يصح الأكل معهم جميعاً أو أشتاتاً، فهذا هو الأدب القرآني[٤].

قال صاحب زهرة التفاسير: (هذه الآية الكريمة واضحة في بيان التعاون في الأسرة، في المال وما توجبه النفقات، وكأنَّ مال الأسرة شركة بينهم، وإنَّها شركة يفرضها التعاون، وسد حاجة المحتاج، بحيث يعطي الغني القادر من فضل ماله ما يسد حاجة

---

(١) سورة النور: الآية ٦١.

(٢) هو نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري، يقال له: الأعرج، وهو مفسر، وله اشتغال بالحكمة والرياضيات، من أهم مؤلفاته: (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) و(لُب التأويل) توفي سنة (٨٥٠هـ). ينظر: الأعلام، ج٢/ ص٢١٦.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت:٨٥٠هـ) تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٦هـ/١٩٩٥م) ج٥/ ص٢١٢.

(٤) ينظر: نحو التفسير الموضوعي، ص٢٧٦.

الفقير العاجز، وكأنَّه يسد حاجة نفسه، وبذلك تكون القرابة والمودة هي الرابطة بين الناس)[١].

لم يرد الله تعالى أن يتركنا نتخبط في شيء، حتى في الأمور العامة التي هي مُباحة لنا، وليست من العقائد والعبادات، بل أراد عز وجل أن يرسم لنا الطريق، وأن نتأدب بالأدب الإسلامي العالي في الأكل والشرب مع غيرنا[٢].

اشتملت هذه الآية على جزأين، **الأول:** هو رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض، في الأكل من بيوت غيرهم، **والجزء الثاني:** رفع الحرج عن سائر الناس في أكلهم من بيوت أقربائهم المذكورين في الآية، وهم: الأب والأم، والأخ والأخت، والعم والعمة، والخال والخالة، وما ملكتم مفاتحه، والأصدقاء[٣].

على ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآية الكريمة.



(١) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥٢٣٠.

(٢) ينظر: التفسير الواضح، ج٢/ ص٧٠١.

(٣) ينظر: تفسير سورة النور للمودودي، ص٢٢٧.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

يظهر التناسق بين الموضوعين بصورة جلية؛ وذلك لأنَّ الله تعالى لَمَّا ذكر في الموضوع السابق آداب الاستئذان للكبار من الرجال والنساء، ثم ذكر أحكام الصغار، جاء هذا الموضوع ليرفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض، إستكمالاً لآيات الاستئذان التي تناولتها هذه السورة.

والآية متناسقة مع سابقاتها سياقاً وموضوعاً، وهي بسبيل تعليم آداب السلوك مثلها، ومن المحتمل أن يكون بعض المسلمين وقعوا في حرج ما بشؤون متصلة بما احتوته الآية، فاستفتوا النبي ﷺ فنزلت، وممكن أن تكون نزلت مع الآيات الثلاث السابقة التي قبلها؛ لأنَّها من موضوعها، وأيضاً ممكن أن تكون نزلت عقبها، فوضعت في ترتيبها للتناسق الموضوعي والظرفي، أو تكون نزلت في ظرف آخر فوضعت في ترتيبها للتناسق الموضوعي(١).

إنَّما جُعل الاستئذان لحفظ البصر، حِفاظاً على حرمات البيوت، وهذا قد يدفع إلى تساؤل: هل ما ذكر سابقاً هو أمر سارٍ في الأقارب وغيرهم؟ فجاء الجواب متناسقاً، بأنَّه ليس عليكم حرج أن تأكلوا في بيوت الأقارب. قال البقاعي: (لَمَّا أتم سبحانه ما ذكر من حرمات البيوت المستلزمة لصيانة الأبضاع، على وجه يلزم منه إحراز الأموال، أتبعه ما يباح من ذلك للأكل الذي هو من أجلِّ مقاصد الأموال اجتماعاً وانفراداً، فقال في جواب من كأنَّه سأل: هل هذا التحجير في البيوت سارٍ في الأقارب وغيرهم في جميع الأحوال؟)(٢).

لقد ذُكرت هذه الرخصة عقب الاستئذان للتناسق بينهما؛ لأنَّ مقصد الترخيص هو للأعمى فإنَّه لا يتعين عليه استئذان، ثم ذكر الأعرج والمريض إدماجاً وإتماماً لحكم الرخصة لهما، للمناسبة بينهما وبين الأعمى(٣).

---

(١) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٤٩.

(٢) نظم الدرر، ج٥/ ص٢٨٤- ٢٨٥.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٣٠٠.

لَمَّا ذكر الله تعالى آداب الاستئذان، اتبع ذلك ذكر آداب الأكل في بيوت الأقارب؛ لئلا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة، مبيحة لإسقاط الآداب، فإنَّ واجب المرء أن يلازم الآداب مع القريب والبعيد، ولا يغرنه قول الناس: إذا استوى الحب سقط الأدب(١).

بالنظر إلى موضوع هذه الآيات نجد أنَّه سيق لنفس الغرض السابق، فلما شرعت الآيات السابقة أدب الاستئذان داخل البيوت، ورخصت للقواعد من النساء في وضع ثيابهن، وما ذلك إلَّا استكمال للتشريعات الأدبية والأخلاقية التي يريد الإسلام ترسيخها في المجتمع المسلم، جاءت هذه الآيات ومعها استثناء جديد، يتصل بموضوع الاستئذان، وهو رفع الحرج عن المسلم لتناول الطعام في البيوت المذكورة في الآية(٢).

قال وهبة الزحيلي: (إنَّ الآية في أمر يتعلق بنظام الحياة في الأسرة، كالآيات السابقة في الاستئذان، وتخفيف العجائز من الألبسة الظاهرة، وأنَّها تريد أن تجمع بين أفراد الأسرة الأصحاء وأصحاب الأعذار في تناول الطعام على مائدة واحدة، وترفع الكلفة والمشقة في الأكل من البيوت الخاصة أو بيوت الأقارب والأصدقاء دون إذن صريح، وأنَّ الحكم في البيت الخاص كبيت القريب والصديق على حد سواء)(٣).

إنَّ التناسق بين الموضوعين يبدو واضحاً، من خلال النظر إلى آيات الموضوع السابق، فقد كانت دستوراً يحكم العلاقة بين الأقارب، وذوى الأرحام، من رجال ونساء، في اختلاط بعضهم ببعض، كما أنَّها تحكم العلاقة بين المسلمين عامة في دخول البيوت، بعد الاستئذان من أصحابها، ولَمَّا كان هذا الاختلاط بين الأقارب، يضع المخالطين والزائرين في أحوال يشهدون فيها طعاماً بين يدي أهل البيت الذي دخلوا إليه مستأذنين، فقد كان من تمام الحكمة أن تبين الشريعة ما يقضى به الموقف إزاء هذا الطعام الممدود، وهل من حرج على من يحضره أن يتناول منه، إذا دعي إليه؟ إنَّ هناك مشاعر كثيرة مختلطة تشتمل على أهل الدار وعلى زائرهم، فكان ما جاءت به الآية الكريمة هنا، ما يصحح هذه المشاعر، ويقيمها على ميزان حكيم عادل(٤).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٣٠٣.

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٥٢.

(٣) التفسير المنير، ج١٨/ ص٣٠٣- ٣٠٤.

(٤) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٣٢٦.

أنَّ الآية آية تشريع، فإننا نلحظ فيها دقة الأداء اللفظي والتناسق الموضوعي، كما نلمح فيها ترتيب القرابات، فهي تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج المتضمن في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾، وتليها بيوت الآباء، فبيوت الأمهات، فبيوت الإخوة، فبيوت الأخوات، فبيوت الأعمام، فبيوت العمات، فبيوت الأخوال، فبيوت الخالات، ويضاف إلى هذه القرابات الخازن على مال الرجل، فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف ولا يزيد على حاجة طعامه، ويلحق بها بيوت الأصدقاء، ليلحق صلتهم بصلة القرابة، عند عدم التأذي والضرر، فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان[١].



(١) ينظر: في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٥٣٣.

المطلب الثاني

تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾[1].

جاء في سبب نزول هذه الآية عن سعيد بن المسيب[2]، أنَّه كان يقول: (أنزلت في أناس كانوا إذا خرجوا مع النبي ﷺ، وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك، فكانوا يقفون أن يأكلوا منها، ويقولون: نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة، فأنزل الله تعالى هذه الآية)[3].

أنَّ أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ كانوا لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض، فقال بعضهم: إنَّما كان بهم التقذّر والتقزّز، وقال بعضهم: المريض لا يستوفي الطعام، كما يستوفي الصحيح، والأعرج المنحبس لا يستطيع المزاحمة على الطعام، والأعمى لا يبصر طيب الطعام، فأنزل الله ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ حرج في مؤاكلة المريض والأعمى والأعرج[4].

وسبب نزول قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾[5]،

---

(١) سورة النور: من الآية ٦١.

(٢) هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي القرشي، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث، والفقه، والزهد، والورع، توفي سنة (٩٤هـ). ينظر: طبقات الفقهاء، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت:٤٧٦هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، ط١ (بيروت/١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ج١/ ص٥٧؛ ينظر: الأعلام، ج٣/ ص١٠٢.

(٣) أسباب النزول، ص٣٤٠.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص٣٤٠.

(٥) سورة النور: من الآية ٦١.

أنَّ حيّاً من كنانة[1]، كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده، فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح، تحرجاً من أن يأكل وحده، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل، فنزلت هذه الآية[2].

جاءت هذه الآية لرفع الحرج عن المعذورين المذكورين في الآية، فأجازت لهم الأكل من البيوت؛ لأنَّ عذرهم يثبت لهم حقاً على المجتمع[3].

إنَّ الله سبحانه وتعالى أباح الأكل للناس من هذه المواضع، وظاهر الآية يدل على أنَّ إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان؛ لأنَّ عادة هؤلاء القوم أنَّهم تطيب أنفسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب[4].

قال النسفي في قوله تعالى ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾: (مفاتِحه: جمع مفتح، وهو ما يفتح به الغلق، قال ابن عباس ﵄: هو وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وما شيته، له أن يأكل من ثمر ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته، أريد بملك المفاتيح كونها في يده وحفظه، وقيل: أريد به بيت عبده؛ لأنَّ العبد ما في يده لمولاه)[5].

المراد من الصديق في قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ هو من يصدقك في مودته، وتصدقه في مودتك، قال ابن عباس ﵄ الصديق أوكد من القرابة، ألَّا ترى استغاثة الجهنميين، لَمَّا استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات، بل قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[6][7].

---

(١) هم بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن معد بن عدنان، من العدنانية، قبيلة عظيمة، كانت ديارهم بجهات مكة. ينظر: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر بن رضا بن محمد كحالة (ت: ١٤٠٨هـ) مؤسسة الرسالة، ط٧ (بيروت/١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ج٣/ ص٩٩٦.

(٢) ينظر: أسباب النزول، ص٣٤١.

(٣) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٥٣.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤٢١– ٤٢٢.

(٥) مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥٢٠.

(٦) سورة الشعراء: الآية ١٠٠– ١٠١.

(٧) ينظر: أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٤٢٢؛ الكشاف، ج٣/ ص٢٥٧؛ الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٣١٦.

ثم بعد ذلك يبين لهم أنَّ الأكل يكون إمَّا مجتمعين أو متفرقين، لا حرج عليكم في ذلك، في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾. فهذه الآية جاءت رداً على مذهب جماعة من العرب كانت لا تأكل أفراداً البتة، وكان بعضهم إذا كان له ضيف لا يأكل إلَّا أن يأكل مع ضيفه، فنزلت هذه الآية مبينة سنة الأكل ومذهبة كل ما خلفها من سنة العرب، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرماً، نحت به نحو كرم الخلق، فأفرطت في إلزامه[1].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

لمَّا انتهى من بيان الحالة التي يجوز الأكل عليها إمَّا مجتمعين أو متفرقين، شرع في بيان آداب دخول البيوت التي يؤكل فيها، فقد أمرت الآية بإلقاء السلام على من بداخل البيوت، وهذا من الأدب القرآني الذي شرعه الله تعالى لعباده المؤمنين[3].

في مطلع السورة ذكر الله تعالى أحكام الاستئذان، وأمر بالسلام على أهل البيوت، فقال جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[4]، ولم يذكر شيء عن هذا السلام؛ لأنَّ المقام كان يقتضي ذلك، فأراد في الموضع الأول أن يبين الاستئذان وآدابه، فلم يتطرق إلى ثمرة هذا الاستئذان، وجاء ذكر سببه وثمرته في ختام السورة متناسقاً في موضعه، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فقد انتهت آداب الاستئذان التي أراد الله سبحانه أن يعقلها عباده ويهتدوا بها؛ لتزداد الأخوة والمحبة بين المسلمين، استناداً لقول النبي ﷺ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَلَا

(١) ينظر: المحرر الوجيز لبن عطية، ج٤/ ص١٩٦.
(٢) سورة النور: من الآية ٦١.
(٣) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٥٥.
(٤) سورة النور: من الآية ٢٧.

أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُم))[1].

إنَّه في بداية السورة ذكَّر ونبه على السلام فقط؛ لأنَّ مسألة السلام على الغرباء أمر متعارف عليه، والدليل على أنَّ المراد من السلام الأول هو التذكير والتنبيه عليه، قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]، أمَّا السلام الثاني فقد ذكر فيه سبب السلام وثمرته، فقال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾، والسلام الثاني فيه زيادة وتأكيد؛ لذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّ كثرة التردد بين الأقارب تجعل أكثر الناس تغفل عن السلام مع الأهل والأقارب.

لقد اختار الطبري أنَّ المراد هو البيوت كلها، فقال: (أولى الأقوال بالصواب، قول من قال معناه: فإذا دخلتم بيوتاً من بيوت المسلمين، فليسلم بعضكم على بعض؛ لأنَّ الله جلّ ثناؤه قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾، ولم يخصص من ذلك بيتاً دون بيت، وقال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض، فكان معلوماً إذ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنَّه معنيّ به جميعها، مساجدها وغير مساجدها)[3].

فإذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت لتأكلوا، فابدؤوا بالسلام على أهلها، الذين هم منكم ديناً وقرابة، أو بيوتاً فارغة، أو مسجد، فقولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، تحية ثابتة بأمر الله تعالى، مشروعة من لدنه، ووصفها بالبركة والطيب؛ لأنَّها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تعقلوها وتتدبروا ما فيها من أحكام تنظم حياتكم[4].

وبعد الانتهاء من الآيات التي تحدثت عن الاستئذان وآدابه، يمكن الخروج بخلاصة:

١. وجوب أمر الصغير المميز بالاستئذان قبل الدخول في الأوقات الثلاثة التي هي مظنة كشف العورات.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في إفشاء السلام، رقم الحديث (٢٦٨٨) من رواية: أبي هريرة ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح، ج٥/ ص٥٢.

(٢) سورة النور: من الآية ٢٧.

(٣) جامع البيان، ج١٩/ ص٢٢٧.

(٤) ينظر: مدارك التنزيل، ج٢/ ص٥٢١.

٢. صيغة الاستئذان أن يكون باللفظ، وصيغته المثلى أن يقول المستأذن: السلام عليكم، أأدخل؟.

٣. الاستئذان ثلاثاً لا يزيد عليها، ويرجع إن لم يرد عليه أحد.

لأهل العلم في هذه الآية أقوال ومسائل يطول ذكرها، فالصفح عن ذكرها أولى، وما أوردناه في معناها هو الذي يعطيه سياقها.

بتتبع آيات هذه السورة نجد أنَّها قد تكرر ذكر البيان فيها سبع مرات، وهذا التكرار يدل أنَّ السورة بينة أشد البيان، قال تعالى:

١. ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[١].

٢. ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾[٢].

٣. ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾[٣].

٤. ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٤].

٥. ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٥].

٦. ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٦].

٧. ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٧][٨].

على هذا النحو من البيان الرائع، والأسلوب المُتقن، والأدب العالي، والتوجيه السليم، والتناسق المنتظم بين موضوعات السورة الواحدة، جرت عادة القرآن الكريم في أن يبين الله عز وجل آياته في كتابه العزيز، فتمتلئ قلوب عباده بالحكمة، ونفوسهم بالرحمة، وحياتهم تنظيماً[٩].

---

(١) سورة النور: من الآية ١.

(٢) سورة النور: من الآية ٣٤.

(٣) سورة النور: من الآية ٤٦.

(٤) سورة النور: من الآية ٥٤.

(٥) سورة النور: من الآية ٥٨.

(٦) سورة النور: من الآية ٥٩.

(٧) سورة النور: من الآية ٦١.

(٨) ينظر: أسوار العفاف، ص٩.

(٩) ينظر: التفسير الواضح، ج٢/ ص٧٠٢.

وهنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: قال تعالى: ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾[1]، ذكر الله تعالى في الآية انتفاء الحرج عن أكل الإنسان من بيته، وهذا معلوم لاشك فيه ولا شبهة؟

لو حاولنا جمع الأقارب المذكورين في الآية؛ لتبين أنَّ الآية لم تذكر شيئاً عن الأبناء مع إنَّهم في مقدمة هذا الترتيب.

إنَّ الله تعالى لم يذكر بيوت الأبناء حين ذكر بيوت الآباء والأقارب؛ وذلك لدخولهم في ذكر الأنفس، فالمراد من قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ أي: بيوت أولادكم[2].

نسبت أولادهم إليهم لِمَا صَحَّ من قول النبي ﷺ: ((أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ))[3]، فلم يرد الله تعالى أن يجعل للأبناء بيوتاً مع الآباء، لأنَّهما شيء واحد[4].

بهذا الخصوص قال البقاعي: (وعبر بذلك تذكيراً بأنَّ الكل من نفس واحدة ﴿ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ أي: التي فيها عيالكم، وذكرها سبحانه لئلا يحصل من تركها لو تركها ريبة، وليدخل فيها بيوت الأولاد؛ لأنَّهم من كسب الأب)[5].

ثانياً: ذكر الله تعالى كل الأقارب الذين ورد ذكرهم في الآية بصيغة الجمع، إلَّا الصديق، فإنَّه ذُكر بصيغة المفرد في قوله تعالى: ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾[6]، ولم يقل: أصدقائكم؟

السر القرآني في ذلك ذكره ابن عاشور بقوله: (وصديق هنا مراد به الجنس الصادق بالجماعة، بقرينة إضافته إلى ضمير جماعة المخاطبين، وهو اسم تجوز فيه المطابقة لمن يجري عليه، إن كان وصفاً أو خبراً في الإفراد، والتثنية، والجمع، والتذكير،

---

(١) سورة النور: من الآية ٦١.

(٢) ينظر: أحكام القرآن لبن العربي، ج٣/ ص٤٢١؛ أنوار التنزيل، ج٤/ ص١١٥؛ التسهيل، ج٢/ ص٧٥.

(٣) سنن بن ماجه، كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم الحديث (٢٢٩١) من رواية: جابر بن عبدالله ﷺ، ج٣/ ص٣٩١. قال بن القطان: هذا حديث صحيح. ينظر: بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن القطان (ت:٦٢٨هـ) تحقيق : الدكتور الحسين آيت سعيد، دار طيبة، ط١ (الرياض/١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ج٥/ ص١٠٢.

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي، ج١٧/ ص١٠٣٣٩.

(٥) نظم الدرر، ج٥/ ص٢٨٥.

(٦) سورة النور: من الآية ٦١.

والتأنيث، وهو الأصل، والغالب في فصيح الاستعمال أن يلزم حالة واحدة قال تعالى: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾)[1]. فكلمة صديق مثل كلمة عدو، تستعمل للجمع بصيغة المفرد، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾[2][3]، قال جرير[4]:

دَعَوْنَ الْهَوَى ثُمَّ ارْتَمَيْنَ قُلُوبَنَا   بِأسهُمِ أعداء وَهُنّ صَديقُ.

الشاهد فيه: قوله (صديق) فقد استعمل هذا اللفظ بصيغة المفرد، وإنَّما مراده (وهنَّ أصدقاء)؛ لأنَّه لفظ يستعمل للجمع بصيغة المفرد.

قال الشعراوي: (لأنَّهم وإن كانوا جماعة لا بد أن يكونوا على قلب رجل واحد، وكذلك في حالة العداوة نقول عدو، وهم جمع؛ لأنَّ الأعداء تجمعهم الكراهية، فكأنَّهم واحد)[5].



---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٠٠- ١٠١.

(٢) سورة الشعراء: من الآية ٧٧.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٣١٥.

(٤) ديوان جرير، ص٣١٥.

(٥) تفسير الشعراوي، ج١٧/ ص١٠٣٣٩.

المبحث الثالث

آداب الاستئذان في مجلس النبي ﷺ، ويشمل الآيات (٦٢-٦٤)

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[١].

توطئة:

قال محمد حجازي عن ختام هذه السورة المباركة: (كان هذا خير ما يختم به تلك السورة العظيمة، التي عالجت علاقة الناس مع بعضهم، وبخاصة في الأسرة والبيوت، وها هي الآن تعالج أدب الجلوس مع النبي ﷺ في أمر هام)[٢].

والإسلام يدعو إلى تنظيم العلاقات بين المسؤول ورعيته، خاصة في الأوقات التي تستدعي من الجميع المشاركة، كالحروب والنكبات والنوازل وغيرها، فلا يجوز الانصراف من تلك المشاركة إلَّا بالاستئذان من المسؤول، وعليه أن يُقدر حالة الاضطرار، ويوازن بين مصلحة بقاء المستأذن، أو انصرافه[٣].

قال ابن عاشور: (هذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة؛ لأنَّ من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع، وقد أشارت مشروعية الإمامة إلى ذلك النظام، ومن السنة أن لا يجتمع جماعة إلَّا أمَّروا عليهم أميراً، فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين، فهو في مقام النبي ﷺ، فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلَّا بعد أن يستأذنه، لأنَّه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر؛ لكان ذريعة لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جمعت لأجلها،

---

(١) سورة النور: الآية ٦٢- ٦٤.

(٢) التفسير الواضح، ج٢/ ص٧٠٣.

(٣) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٦١.

وكذلك الأدب أيضاً في التخلف عن الاجتماع عند الدعوة إليه، كاجتماع المجالس النيابية، والقضائية، والدينية، أو التخلف عن ميقات الاجتماع المتفق عليه، إلَّا لعذر واستئذان)[١].

بالنظر إلى الآيات نجدها تذكر صورة أخرى من صور الإذن، وهي الاستئذان من مجلس رسول الله ﷺ، والآيات تهدف إلى تهويل وتعظيم الجناية بغياب الغائب عن مجلسه ﷺ، أو عن صفوف المحاربين بغير إذنه ﷺ، إذا كانوا معه على أمر جامع، وتؤكد الآيات أنَّ أوامر رسول الله ﷺ هي أوامر الباري عز وجل، فطاعة رسوله ﷺ أمر واجب[٢].

قال محمد عزة: (عبارة الآيات واضحة، وفيها تأديب للمؤمنين إزاء مجالس الرسول ودعائه، وتنويه بالذين يتصرفون في ذلك بما يليق بمركزه ومقامه، فلا يتركون مجالسه إلَّا لعذر وبعد الاستئذان منه وإذنه، فهم المؤمنون حقاً بالله ورسوله، وتنديد بالذين يتصرفون في ذلك تصرفاً غير لائق فيتسللون من مجالسه، وإنذار دنيوي وأخروي لهم)[٣].

وعلى ذلك اقتضى المبحث أن ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثاني: تفسير الآيات الكريمة.

(١) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٣٠٨.

(٢) ينظر: قبسات من سورة النور، ص٢١٢- ٢١٣.

(٣) التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٥٤.

المطلب الأول

التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

يستمر السياق القرآني بالحديث عن آداب الاستئذان، فبعد أن بَيَّن سبحانه وتعالى في الموضوع السابق حكم البيوت، وكيفية المعاشرة مع الأقارب والمسلمين عموماً، جاء هذا الموضوع متناسقاً موضوعياً مع سابقه، وذلك لأنَّه عز وجل بَيَّن فيه حكم البيوت التي تفصل فيها الأمور السياسية بطريق المشاورة، ذاكراً مع ذلك أدب الخروج من مجلس النبي ﷺ، ليكون نموذجاً لمن يأتي بعده ﷺ، وتشريعاً عاماً مستمر المدى، وهو أنَّ المجالس السياسية يكون جمعها وانتهائها تحت أمرة المسؤول عن المجلس، ولا يجوز لأحد أفرادها أن ينسحب أو يترك المجلس من دون أذنه(١).

قال ابن عاشور: (لَمَّا جرى الكلام السابق في شأن الاستئذان للدخول، عقب ذلك بحكم الاستئذان للخروج، ومفارقة المجامع، فاعتنى من ذلك بالواجب منه، وهو استئذان الرسول ﷺ في مفارقة مجلسه أو مفارقة جَمع جُمع عن إذنه لأمر مهم كالشورى، والقتال، والاجتماع للوعظ، ونحو ذلك)(٢).

تعتبر هذه الآيات موضوع جديد، ولكن بسبب ما احتوته من تأديب للمسلمين، وتعليم لآداب السلوك في مجالس النبي ﷺ، جعلها متناسقة موضوعياً بالموضوعات السابقة، فإذا لم تكن نزلت بعدها مباشرة فيكون وضعها في ترتيبها للتناسق الموضوعي(٣).

بعد أن جاءت آيات الموضوع السابق لتبين الصلة بين أفراد المجتمع الإسلامي، تبع ذلك بيان الصلة بين المؤمنين وبين النبي ﷺ، وأنَّها صلة وثيقة العُرى، ملاكها السمع والطاعة لرسول الله ﷺ، من كل مؤمن ومؤمنة(٤).

عند التأمل في هذه السورة الكريمة نجد أنَّ التناسق مُطَّرد في موضوعاتها، وألفاظها، ومعانيها من بدايتها وحتى ختامها. ويظهر هذا من خلال كلام

---

(١) ينظر: أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد بن صالح بن طه أفندي الخطيب الموصلي (ت:١٣٩٩هـ) دار الكتب، ط١ (الموصل/١٣٩١هـ/١٩٧١م) ج٦/ ص١٩٧.

(٢) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٣٠٦.

(٣) ينظر: التفسير الحديث، ج٨/ ص٤٥٨.

(٤) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٣٣٤.

أبي حيان إذ قال: (لَمَّا افتتح السورة بقوله ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾[1]، وذكر أنواعاً من الأوامر والحدود مما أنزله على الرسول ﷺ، اختتمها بما يجب له ﷺ على أمته من التتابع والتشايع على ما فيه مصلحة الإسلام، ومن طلب استئذانه إن عرض لأحد منهم عارض، ومن توقيره في دعائهم إياه)[2].

قال صاحب زهرة التفاسير: (ابتدأت السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[3]، وأنزل سبحانه وتعالى ما يكون وقاية للأسر، من عقوبات للزناة، والذين يرمون المحصنات الأطهار، ويريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وبينت أمراً أهم المسلمين جميعاً، وهو حديث الإفك، ثم تكلمت في نور الإيمان وظلمات الكفر، ثم تكلمت على عورات الأسرة في داخلها وحماية آحادها، وانتقلت السورة من حماية الأسرة إلى حماية الجماعة المؤمنة، وحمايتها بطاعة رسول الله ﷺ حيَّاً، وطاعة الإمام العادل الذي يخلفه بشورى المؤمنين، واختبارهم من بعده)[4].

لقد وقع هذا الموضوع ختاماً لسورة النور وذلك للتناسق الموضوعي في هذه السورة، ويوضح ذلك أنَّه عز وجل ذكر في أول السورة أنَّه انزل ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾[5]، على لسان النبي محمد ﷺ، فختم السورة بتأكيد الأمر بمتابعته ﷺ، ليُعلم أنَّ أوامره هي أوامر الله تعالى، يبلغها لهم وما على الرسول إلَّا البلاغ المبين[6].

بهذا يظهر مدى التناسق الموضوعي القوي بين الموضوعين؛ لأنَّ السياق قد انتقل من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء، إلى تنظيم العلاقة بين المؤمنين والنبي ﷺ، وذلك بإبراز بعض الآداب اللازمة في معاملته ﷺ، فهذا الأدب مُكمل لما سبقه[7].

(١) سورة النور: من الآية ١.

(٢) البحر المحيط، ج٨/ ص٧٣.

(٣) سورة النور: من الآية ١.

(٤) زهرة التفاسير، ج١٠/ ص٥٢٣٤.

(٥) سورة النور: من الآية ١.

(٦) ينظر: قبسات من سورة النور، ص٢١٣.

(٧) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٥٨.

المطلب الثاني
تفسير الآيات الكريمة

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[١].

أراد الله تعالى أنَّ المؤمنون هم الذين صدقوا الله ورسوله، وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ، على أمر يجمع جميعهم من حرب حضرت، أو صلاة اجتمع لها، أو تشاور في أمر نزل، لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر، حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ، وإنَّ الذين لا ينصرفون يا محمد إذا كانوا معك في أمر جامع عنك إلَّا بإذنك لهم طاعة منهم لله ولك، وتصديقاً بما أتيتهم به من عندي، أولئك الذين يصدقون الله ورسوله حقاً، لا من يخالف أمر الله وأمر رسوله، فينصرف عنك بغير إذن منك له، بعد تقدمك إليه أن لا ينصرف عنك إلَّا بإذنك، وإذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلَّا بإذنك في هذه المواطن لبعض حاجاتهم التي تعرض لهم، فأذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها، ففي هذا تعظيماً لك ورعاية للأدب معك، وادع الله لهم بأنَّ يتفضل عليهم بالعفو عن تبعات ما بينه وبينهم، فالله سبحانه يغفر ذنوب عباده التائبين، وهو ارحم الراحمين بهم فلا يعاقبهم على أفعالهم بعد توبتهم منها[٢].

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣].

---

(١) سورة النور: الآية ٦٢.

(٢) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص٢٢٨.

(٣) سورة النور: الآية ٦٣.

المعنى: أنَّ الله تعالى أمرهم أن يشرفوا النبي ﷺ ويفخموه، وأن لا يصيح أحدهم من بعيد، ويقول: يا أبا القاسم، أو يا محمد، بل عظموه كما قال في سورة الحجرات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾[١]، وقولوا يا رسول الله، برفق ولين[٢].

قال تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗا﴾[٣]، أي: قد يعلم الله المنافقين الذين كانوا ينصرفون عن أمر جامع من غير استئذان قليلاً قليلاً، ويتسللون من المجلس تدريجياً، ملاوذة بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يؤذن له فينطلق معه كأنَّه تابعه[٤].

المراد من قوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٥]، أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً، وخرج عن أمره ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، كما صَحَّ عن النبي ﷺ، أنَّه قال: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ))[٦]، أن تصيبهم فتنة في قلوبهم من كفر، أو نفاق، أو بدعة، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك[٧].

---

(١) سورة الحجرات: من الآية ٣.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ص٣٢٢.

(٣) سورة النور: من الآية ٦٣.

(٤) ينظر: أنوار التنزيل، ج٤/ ص١١٦.

(٥) سورة النور: من الآية ٦٣.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم الحديث (٢٦٩٧) من رواية: أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، ج٣/ ص١٨٤؛ صحيح مسلم، كتاب الاقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم الحديث (١٧١٨) من رواية: أمِّ المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"، ج٣/ ص١٣٤٣.

(٧) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ج٦/ ص٨٢.

ثم قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾[1].

أراد الله تعالى أن يبين للناس أنَّ الله هو مالك كل ما في السموات والأرض، فلا ينبغي لمملوك أن يخالف أمر مالكه فيعصيه، فيستوجب بذلك عقوبته، بل أطيعوه، وأتمروا لأمره، ولا تنصرفوا عن رسوله إذا كنتم معه على أمر جامع إلَّا بإذنه، والله تعالى يعلم ما انتم عليه من طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم من ذلك، ويوم يرجع إلى الله الذين يخالفون عن أمره فيخبرهم حينئذ بما صنعوا في الدنيا، فيجازيهم على ما أسلفوا فيها، من خلافهم على ربهم، والله عز وجل ذو علم بكل شيء عملتموه أنتم وغيركم، لا يخفى عليه شيء، بل هو محيط بذلك كله، وهو موفٍّ كل عامل منكم أجر عمله يوم ترجعون إليه[2].

ختم الله تعالى السورة بما يحمل على التمسك بما جاء فيها؛ وذلك بالترغيب والترهيب المنطوي في بيان قدرته عز وجل، وبيان ملكيته لهذا العالم، فبَيَّن لهم أنَّه يعلم كل ما يصدر من الناس، وأنَّ كل ما في الكون تحت تصرفه وسلطانه[3].

إنَّ الختام فيه إشارة رهيبة، تُشعر القلوب بخالقها وأنَّه مراقب لهم في كل وقت وحين، مما يجعل القلب مرتبط بربه، يخشاه ويتقيه في كل أحواله، وهذا الشعور يحفز الإنسان ويدفعه لفعل الطاعات واجتناب المنهيات، والحرص على نيل مغفرة الله تعالى ورضوانه[4].

وههنا ظهرت بعض اللطائف البيانية عند تفسير هذه الآيات، منها:

أولاً: يدل الحرف (قد) في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾[5]، على التوقع لأمر مترقب[6]. ولكن المفسرون قالوا إنَّها جاءت في هذه الآية لتوكيد علمه عز وجل؟

بيان ذلك أنَّ المفسرين قالوا: إذا دخلت (قد) على الفعل المضارع، فإنَّها تدل على

---

(١) سورة النور: الآية ٦٤.

(٢) ينظر: جامع البيان، ج١٩/ ص٢٣٢.

(٣) ينظر: أولى ما قيل في آيات التنزيل، ج٦/ ص١٩٨.

(٤) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج٥/ ص٢٦٠.

(٥) سورة النور: من الآية ٦٤.

(٦) ينظر: تنبيه الافهام، ج٤/ ص١٦٩.

التكثير؛ لأنَّ (قد) مع المضارع تكون بمنزلة (رُبَّما) التي تستعمل للتكثير[1].

قال الزمخشري: (أدخل (قد) ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد، وذلك أنَّ (قد) إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى (رُبَّما) فوافقت (رُبَّما) في خروجها إلى معنى التكثير)[2].

كما جاء في بيت زهير[3][4]:

أخِي ثِقَةٌ لا تُهلِكُ الخَمرُ مَالُهُ وَلَكِنَّهُ قَد يُهلِكُ المَالَ نَائلَهُ.

الشاهد فيه: أنَّه ادخل (قد) على الفعل المضارع، فكانت بمعنى (رُبَّما). فيريد من البيت: (إنَّ الممدوح لا يتلف ماله الخمر، إنَّما يتلفه العطاء والنوال)[5].

لكن أبو حيان له رأي مخالف في هذه المسألة، إذ قال: (وكون قد إذا دخلت على المضارع أفادت التكثير قول بعض النحاة وليس بصحيح، وإنَّما التكثير مفهوم من سياقة الكلام في المدح، والصحيح في رب أنَّها لتقليل الشيء أو تقليل نظيره، فإن فهم تكثير فليس ذلك من رب، ولا قد، إنَّما هو من سياقة الكلام)[6].

ثانياً: نجد في قوله تعالى: ﴿ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ ﴾[7]، أنَّ الفعل (يخالف) هو فعل متعدي بنفسه، ومع هذا فانَّه تعدى في الآية بحرف الجر (عن)؟

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٣١٠؛ قبسات من سورة النور، ص٢١٧؛ الفصل والوصل، ص١١٦.

(٢) الكشاف، ج٣/ ص٢٦٠.

(٣) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني، حكيم الشعراء في الجاهلية، اخو الشاعرة خنساء، له ديوان هو: (ديوان زهير بن ابي سلمى) توفي سنة (١٣ ق.م). ينظر: الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت:٢٧٦هـ) دار الحديث، د.ط (القاهرة/١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ص١٣٧-١٣٨؛ الأعلام، ج٣/ ص٥٢.

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى، زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني (ت: ١٣ ق.م) شرح: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص٩١.

(٥) المصدر السابق، ص٩١.

(٦) البحر المحيط، ج٨/ ص٧٦- ٧٧.

(٧) سورة النور: من الآية ٦٣.

قال الإمام الرازي: (دخلت ﴿عَنۡ﴾ لتضمين المخالفة معنى الإعراض)[1].

فيكون المعنى كما ذكره الإمام الطبري: (أدخلت ﴿عَنۡ﴾؛ لأنَّ معنى الكلام: فليحذر الذين يلوذون عن أمره، ويدبرون عنه معرضين)[2].

أشار عبد الكريم الخطيب إلى هذه المسألة بقوله: (في تعدية الفعل ﴿يُخَالِفُونَ﴾ بحرف الجر ﴿عَنۡ﴾ مع أنَّه فعل يتعدى بنفسه، إشارة إلى أنَّ هذا الفعل قد ضمن معنى الخروج، فهو مخالفة، وخروج معاً، إذ قد تكون المخالفة في الرأي، ثم يكون الامتثال بالعمل، وهؤلاء المخالفون الذين يتوعدهم الله إنَّما جمعوا بين المخالفة في الرأي، والخروج عليه قولاً وفعلاً)[3].

إنَّ الله تعالى أراد أن يبين أنَّهم لم يخالفوه فقط، وإنَّما كانوا معرضون عنه، قال الشعراوي: (قال تعالى: ﴿يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ ولم يقل (لا يخالفون أمره) فقد جعل في المخالفة معنى الإعراض، لا مجرد المخالفة، فالمعنى: يعرضون عنه)[4].

ثانياً: انتقل السياق القرآني من الخطاب ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾[5]، إلى الغيبة ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾[6]، وكان النظم يقضى بأن تأتي الآية على النحو الآتي: (ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا) فلابد من وجود سر لهذا الانتقال السياقي للآية؟

قال عبد الكريم الخطيب السر في ذلك: (لأنَّ الخطاب بعلم الله سبحانه وتعالى بما عليه الناس من خير أو شر هو خطاب عام، موجه إلى الناس جميعاً، أمَّا قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ فهو موجه إلى المكذبين بهذا اليوم، الذين لا يرجون لقاء الله تعالى، ولكن على طريق الإيماء، وذلك بتوجيه الحديث الذي هو من شأنهم إلى غيرهم، من المؤمنين الذين يؤمنون باليوم الآخر، وما يلقى الناس فيه، وكأنَّهم

---

(١) مفاتيح الغيب، ج٢٤/ ص٤٢٥.

(٢) جامع البيان، ج١٩/ ص٢٣١.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٣٣٧.

(٤) تفسير الشعراوي، ج١٧/ ص١٠٣٤٦.

(٥) سورة النور: من الآية ٦٤.

(٦) سورة النور: من الآية ٦٤.

بهذا غير أهل لأن يخاطبوا، وأنَّه إذا كان ثمة حديث إليهم، فليوجه إلى غيرهم، ممن هم أهل لأن يسمعوا، ويعقلوا، وأنَّه إذا كان لهؤلاء المكذبين بهذا الحديث، عودة إلى أنفسهم، وإلى النظر في هذا الحديث، فليأخذوه من أهله)[١].

وبعد فلعل دراستنا لسورة النور قد أكدت أنَّها النور الهادي للبصائر العاقلة القادرة على تمييز أنَّ الله العالم بالظاهر والباطن من قول أو عمل يصدر من عباده، وبهذا تختم السورة، فيتناسق بدؤها وختامها، مع موضوعها واتجاهها، ذلك التناسق المعجز، الدال بذاته على مصدر هذا الكتاب العظيم الهادي المُنير[٢].



(١) التفسير القرآني للقرآن، ج٩/ ص١٣٤٠- ١٣٤١.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، ج٥/ ص٢٨٨٦؛ قبسات من سورة النور، ص٢٢٠.

الخاتمة:

حسبي بهذا العمل أن أكون قد أرضيتُ الله تعالى، التي لم اختزل في إرضائها جهداً، فإن سلِم البحث فذلك من فضل الله تعالى، وإن كانت الأخرى فهذا جهد المقل، وطاقة الناشئة التي ما تزال ترقب من وراء الغيب أملاً فسيحاً.

وبعد هذه الفصول العلمية التي وقفت عليها لبيان التناسق الموضوعي في سورة النور وإظهاره، أثبت أهم النتائج التي توصلت إليها، وأذكر عددًا من النتائج والتوصيات، التي يمكن إيجازها في النقاط الآتية:

أولاً: النتائج:

١. تبين لي أنَّ مصطلح التناسق هو وجه من وجوه الإعجاز القرآني المندرج ضمن علوم القرآن.

٢. أثبتُ أن مصطلح التناسق الموضوعي هو: انتظام موضوعات السورة وتتابعها، ومعرفة مقاصد علل الترابط والانسجام داخل السياق القرآني.

٣. اظهر البحث الفرق بين التناسب والتناسق في القرآن الكريم، فالتناسب يكون في الألفاظ والجمل والآيات، والتناسق يكون بين موضوعات السورة الواحدة، فالنسبة بينهما هي: عموم وخصوص مطلق، فالتناسب أعم من التناسق، فكل تناسق تناسب، وليس كل تناسب تناسقاً.

٤. ظهر من خلال بعض التفاسير الاهتمام بدلالة السياق، وربط الآيات بعضها ببعض، وإظهار تناسقها، كتفسير الرازي، والبقاعي، وابن عاشور، وسيد قطب، ومحمد عزة، وغيرهم.

٥. إنَّ في دراسة التناسق الموضوعي في السورة القرآنية ردًّا على أهل الشبه والأهواء وما زعموه من أنَّ هذا القرآن لا يجمع آياته في السورة الواحدة جامع، وأنَّ موضوعات سوره عشوائية وفيها اضطراب، ليتوصلوا بهذه الشبه إلى أنَّ القرآن وليد فكر بشري لا وحيٌ إلهيّ، ولكن لو كان هذا الأمر من تأليف البشر لَمَا خَلا من تناقض واضطراب ولكنَّهُ ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

---

(١) سورة فصلت: من الآية ٤٢.

٦. إنَّ التناسق الموضوعي يفسح المجال للوقوف على أسرار القرآن الكريم، وإظهار جانب من جوانب إعجاز النظم القرآني، من خلال تكوين صورة شاملة للسورة كلها، عن طريق معرفة مقصود السورة ومحورها وصلتهما بالسياق القرآني، والخيوط الخفية التي تجعل أول السورة تمهيداً لآخرها، وآخرها متناسقاً مرتبطاً بأولها، مما يعطي تذوقا مرهفاً يؤثر في إحساس وشعور القارئ والسامع لكلام الباري عز وجل.

٧. إنَّ التناسق سمة واسعة السطح عميقة الغور، فهو النظام الخفي الذي يربط الأشياء بعضها ببعض فتبدو في وحدة متجانسة متكاملة على نسق واحد، فعن طريق معرفة الكيفية التي تناسقت بها موضوعات السورة، نستطيع أن ندرك أنَّ هذا الحكم ما قدم في الترتيب إلَّا لحكمة، وإنَّ الآخر ما أُخر إلَّا لسر، وهذا منهج تربوي يسعى إلى تزكية النفوس، وتهذيب الأخلاق، وإصلاح القلوب.

٨. تبين أنَّ سورة النور ليس لها إلَّا اسم واحد ثبت به الخبر، وهو توقيفي كغيره من أسماء سور القرآن الكريم.

٩. ظهر من خلال البحث والنظر والتأمل الطويل أنَّ موضوع سورة النور، يدور حول: (التربية الأخلاقية، والآداب الاجتماعية).

١٠. ظهر لي من خلال هذه الدراسة أنَّ هناك تناسقاً وتناسباً بديعين بين موضوعات السور تمثل حلقات عقد قد أُحكمت في نسق واحد منتظم.

ثانياً: التوصيات:

١. التوصية بإقامة مؤتمر أو ندوة عن التناسق القرآني، وما يتصل به من مباحث في الدراسات القرآنية والتفسيرية، ولفت عناية الباحثين والمتخصصين إلى تناوله وبحثه والتأليف فيه، تنظيراً وتطبيقاً.

٢. التوصـية بدراسـة موضـوع التناسـق الموضـوعي فـي بحـوث ورسـائل جامعيـة شـاملة لجميع سور القرآن الكريم.

٣. توصي الباحثة ببذل المزيد من الجهود في دراسة المراجع القديمة والحديثة التي لها عناية بالمناسبات والنظم والتدبر القرآني، وبحث مناهجها وطرائقها للاستفادة منها في بيان وجوه التناسق في النظم القرآني، وعمل البحوث المتعلقة به.

علي ذلك فإنَّ القرآن بحر لا ساحل له فمهما بحث في علومه الباحثون، وولج في أعماقه المفسرون فإنَّه يظل غضاً طرياً، ربما تنقضي الأعمار ويأتي الجيل بعد الآخر من دون أن يستطيع أحد أن يُلم بعلومه، مما يدل دلالة عظيمة على أنَّه من لدن عليم خبير، فهو بحق معجزة الله الخالدة.

ختاماً أحمد الله حمداً كثيراً مباركاً فيه، وأساله أن ينفعني والمسلمين بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم، لا حظ لأحد فيه ولا نصيب، وأن يجزي علماء الأمة السابقين واللاحقين خير الجزاء على ما قدموا للأمة من علوم غنية انتفع بها كل مسلم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أنَّ لا اله إلَّا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وصلى الله على نبينا محمد وعلى اله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن اهتدى بهديهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين.

ثبت المصادر والمراجع

🕮 بعد القرآن الكريم.

1. أبجد العلوم، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن القِنَّوجي (ت:١٣٠٧هـ) دار ابن حزم، ط١ (بيروت/١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
2. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط (مصر/١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).
3. الأثمار الجنية في أسماء الحنفية، أبو الحسن علي بن سلطان محمد نور الدين القاري (ت: ١٠١٤هـ) تحقيق: الدكتور عبد المحسن عبد الله احمد، ديوان الوقف السني، ط١ (بغداد/١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
4. أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت:٣٧٠هـ) تحقيق: عبد السلام محمد علي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
5. أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي الاشبيلي (ت:٥٤٣هـ) راجعه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط٣ (بيروت/١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
6. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت:٥٠٥هـ) دار المنهاج، ط٢ (جدة/١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).
7. إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين الحموي (ت:٦٢٦هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١ (بيروت/ ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
8. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد ابن مصطفى العمادي (ت:٩٨٢هـ) دار إحياء التراث العربي، د.ط (بيروت/ د.ت).
9. الأزهري مفسراً في كتابه تهذيب اللغة، دكتور ماهر حسن الأومري، ديوان الوقف السني، ط١ (بغداد/١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).
10. أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/ ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
11. الأساس في التفسير، سعيد بن محمد ديب حوى (ت:١٤٠٩هـ) دار السلام، ط١ (القاهرة/١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
12. أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي (ت:٤٦٨هـ) تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، ط٢ (الدمام/١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).
13. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت: ٤٦٣هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط١ (بيروت/١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

١٤. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن الأثير الجزري (ت:٦٣٠هـ) تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
١٥. أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) دار الفضيلة، د.ط (د.م/ د.ت).
١٦. أسماء سور القرآن وفضائلها، الدكتورة منيرة محمد ناصر الدوسري، دار ابن الجوزي، ط١ (المملكة العربية السعودية/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
١٧. أسنى المطالب شرح روض الطالب، أبو يحيى زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري السنيكي (ت:٩٢٦هـ) دار الكتاب الإسلامي، د.ط (د.م/ د.ت).
١٨. أسوار العفاف، عصام بن صالح العُوَيِّد، مركز تدبر، ط١ (الرياض/١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).
١٩. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
٢٠. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ) دار الفكر، د.ط (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
٢١. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت:١٤١٩هـ) دار المعارف، ط٣ (د.م/ د.ت).
٢٢. الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي (ت:١٣٤١هـ) دار ابن حزم، ط١ (بيروت/١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
٢٣. الإكليل في استنباط التنزيل، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: سيف الدين عبد القادر، دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/ ١٤٠١هـ/١٩٨١م).
٢٤. إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، أبو العباس أحمد ابن علي بن عبد القادر المقريزي (ت:٨٤٥هـ) تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
٢٥. إمتاع الفضلاء بتراجم القرّاء فيما بعد القرن الثامن الهجري، إلياس بن أحمد حسين بن سليمان علي الساعاتي، تقديم: محمد تميم الزّعبي، دار الندوة العالمية، ط١ (د.م/١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
٢٦. الإنتصار للقرآن، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني (ت:٤٠٣هـ) تحقيق: الدكتور محمد عصام القضاة، دار الفتح، دار ابن حزم، ط١ (عَمَّان/ بيروت/١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٢٧. إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، أبو الفرج علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي (ت:١٠٤٤هـ) دار الكتب العلمية، ط٢ (بيروت/١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

٢٨. انسجام الخواتيم في الآيات القرآنية، الدكتور حازم ذنون إسماعيل، مجلة التربية والعلم، المجلد (١٦) العدد (٢) (الموصل/١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

٢٩. الانسجام النصي وأدواته، قواوة طيب العزالي، مجلة المَخبَر، جامعة محمد خضير، عدد(٨) (الجزائر/١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).

٣٠. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (ت:٦٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الرحمن، دار إحياء التراث العربي، ط١ (بيروت/ ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٣١. الأنوار القدسية في شرح القصيدة الهمزية، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني (ت:١٢٢٤هـ) اعتنى بتقديمه: عبد السلام العمراني الخالدي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

٣٢. أنوار القرآن وأسرار الفرقان، أبو الحسن علي بن سلطان نور الدين الهروي (ت:١٠١٤هـ) تحقيق: الدكتور ناجي السويد، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/ ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).

٣٣. أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، الدكتور مساعد بن سليمان ابن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، ط٣ (د.م/١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).

٣٤. أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، الدكتور عبد الله محمود شحاته، الهيئة المصرية للكتاب، د.ط (مصر/١٣٩٦هـ/١٩٧٦م).

٣٥. أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد بن صالح بن طه أفندي الخطيب الموصلي (ت:١٣٩٩هـ) دار الكتب، ط١ (الموصل/١٣٩١هـ/١٩٧١م).

٣٦. البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (ت:٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، د.ط (بيروت/١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٣٧. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الأنجري (ت:١٢٢٤هـ) تحقيق: أحمد عبد الله القرشي، نشره: الدكتور حسن عباس زكي، د.ط (القاهرة/١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٣٨. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت:٧٧٤هـ) تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن، دار هجر، ط١ (د.م/١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

٣٩. البرهان في تناسب سور القرآن، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت:٧٠٨هـ) تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د.ط (المغرب/١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٤٠. البرهان في علوم القرآن، أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت:٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط١ (بيروت/ ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م).

٤١. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، أبو طاهر محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزآبادى (ت:٨١٧هـ) تحقيق: محمد علي النجار، إحياء التراث الإسلامي، د.ط (القاهرة/١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

٤٢. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، د.ط (لبنان/ د.ت).

٤٣. بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك ابن القطان (ت:٦٢٨هـ) تحقيق: الدكتور الحسين آيت سعيد، دار طيبة، ط١ (الرياض/١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٤٤. البيان في عدِّ آي القرآن، أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني (ت:٤٤٤هـ) تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث، ط١ (الكويت/١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

٤٥. تاج العروس من جواهر القاموس, أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزاق الزَّبيدي (ت:١٢٠٥هـ) دار الهداية، د.ط (بيروت/ د.ت).

٤٦. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت:٧٤٨هـ) تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١ (بيروت/١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٤٧. تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت:٤٦٣هـ) تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١ (بيروت/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

٤٨. تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر (ت:٥٧١هـ) تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، د.ط (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٤٩. تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن احمد بن إبراهيم المهايمي (ت:٨٥٣هـ) مطبعة بولاق، د.ط (مصر/ د.ت).

٥٠. التبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا يحيى بن شرف محيي الدين النووي (ت:٦٧٦هـ) تحقيق: محمد الحجار، دار ابن حزم، ط٣ (بيروت/١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٥١. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم ابن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني (ت:٦٥٤هـ) تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، إحياء التراث الإسلامي، ط١ (مصر/١٣٨٣هـ/١٩٦٣م).

٥٢. تحرير التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية للسورة، الأستاذ الدكتور محمد ابن عمر بن سالم بازمول، د.ط (د.م/ د.ت).

٥٣. تحرير القواعد المنطقية، قطب الدين محمود الرازي (ت:٧٦٦هـ) مصطفى البابي الحلبي، ط٢ (مصر/١٣٦٧هـ/١٩٤٨م).

٥٤. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (المعروف بالتحرير والتنوير) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (ت:١٣٩٣هـ) الدار التونسية، د.ط (تونس/١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٥٥. التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد ابن جزي الكلبي (ت:٧٤١هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١ (بيروت/١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

٥٦. التصريح بمضمون التوضيح، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهري (ت:٩٠٥هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

٥٧. التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

٥٨. التفسير الحديث، محمد عزة بن عبد الهادي دروزة (ت:١٤٠٤هـ) دار إحياء الكتب العربية، د.ط (القاهرة/١٣٨٣هـ/١٩٦٣م).

٥٩. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ) مطابع أخبار اليوم، د.ط (مصر/د.ت).

٦٠. تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد بن علي رضا القلموني (ت:١٣٥٤هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط (مصر/١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٦١. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت:٧٧٤هـ) تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

٦٢. تفسير القرآن الكريم، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) تحقيق: الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، ط١ (بيروت/ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٦٣. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد١٣٩٠هـ) دار الفكر العربي، د.ط (القاهرة/ د.ت).

٦٤. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت:١٣٧١هـ) مكتبة مصطفى البابى الحلبي، ط١ (مصر/١٣٦٥هـ/١٩٤٦م).

٦٥. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي (ت:١٤٣٦هـ)، دار الفكر المعاصر، ط٢ (دمشق/١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٦٦. التفسير الموضوعي لسور القرآن، نخبة من العلماء بإشراف: الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ط١ (الإمارات العربية المتحدة/ ١٤١٣هـ/ ٢٠١٠م).

٦٧. التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، دار الجيل الجديد، ط١٠ (بيروت/ ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

٦٨. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي (ت:١٤٣١هـ) دار النهضة، ط١ (القاهرة/١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
٦٩. تفسير سورة النور، أبو الأعلى بن احمد حسن المودودي الهندي (ت:١٣٩٩ه) مؤسسة الرسالة، د.ط (بيروت/١٤٠٣ه/١٩٨٣م).
٧٠. تفسير سورة النور، أبو العباس احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (ت:٧٢٨ه) راجعه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الدار السلفية، ط١ (الهند/١٤٠٨ه/١٩٨٧م).
٧١. تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي (ت:١٣٠٠ه) تحقيق: محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام ، ط١ (العراق/١٣٩٩ه/١٩٧٩م).
٧٢. التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار ابن الجوزي، ط١ (الدمام/١٤٣٢ه/٢٠١١م).
٧٣. تناسب وتناسق الآيات وأسرار فواتح وخواتيم السور، مجدى فتحي السيد، مراجعة: الأستاذ الدكتور سامي عبد الفتاح، دار الصحابة للتراث، ط١ (طنطا/١٤٢٧ه/ ٢٠٠٦م).
٧٤. تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١ه) تحقيق: عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٦ه/١٩٨٦م).
٧٥. التناسق الموضوعي في السورة القرآنية، محمد بن عمر بن سالم بازمول، د.ط (د.م/ د.ت).
٧٦. التناسق الموضوعي في سورة المجادلة (رسالة ماجستير)، ناهد عمر سعيد سريجي، جامعة أم القرى- قسم الكتاب والسنة، د. ط (المملكة العربية السعودية/ ١٤٣٤ه/٢٠١٣م).
٧٧. تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرُّف الآيات والنبأ العظيم، عبد السلام ابن عبد الرحمن بن محمد ابن برجان الاشبيلي (٥٣٦ه) تحقيق: احمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٣٤ه/٢٠١٣م).
٧٨. تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا يحيى بن شرف محيي الدين النووي (ت:٦٧٦ه) دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/ د.ت).
٧٩. تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢ه) مطبعة دائرة المعارف النظامية، ط١ (الهند/١٣٢٦ه/١٩٠٨م).
٨٠. تهذيب اللغة, أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت:٣٧٠ه) تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١ (بيروت/١٤٢٢ه/ ٢٠٠١م).
٨١. توجيه النظر إلى أصول الأثر، طاهر بن صالح بن أحمد بن موهب الجزائري (ت:١٣٣٨ه) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط١ (حلب/١٤١٦ه/١٩٩٥م).

٨٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت:١٣٧٦هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١ (بيروت/١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
٨٣. جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري (ت:٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١ (بيروت/١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).
٨٤. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (المعروف بصحيح البخاري) أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت:٢٥٦هـ) تحقيق: محمد زهير ناصر، دار طوق النجاة، ط١ (د.م/١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٨٥. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين القرطبي (ت:٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط٢ (القاهرة/١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).
٨٦. الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي (ت:١٣٧٦هـ) دار الرشيد، مؤسسة الإيمان، ط٤ (دمشق/بيروت/١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
٨٧. جمال القراء وكمال الإقراء، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي (ت:٦٤٣هـ) تحقيق: الدكتور مروان العطيَّة والدكتور محسن خرابة، دار المأمون للتراث, ط١ (دمشق/بيروت/١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).
٨٨. الجمان في تشبيهات القرآن، عبد الله بن الحسين بن ناقيا البغدادي (ت:٤٨٥هـ) تحقيق: الدكتور محمود حسن الشيباني، مركز الصف، ط١ (جدة/١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).
٨٩. جمهرة اللغة, أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت:٣٢١هـ) تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط١ (بيروت/١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
٩٠. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن أيوب بن القيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) دار المعرفة، ط١ (المغرب/١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).
٩١. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت:٨٧٥هـ) تحقيق: محمد علي، وعادل أحمد، دار إحياء التراث العربي، ط١ (بيروت/١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
٩٢. خزانة الأدب وغاية الأرب، أبو بكر بن علي بن عبد الله بن حِجة الحموي (ت:٨٣٧هـ) تحقيق: عصام شقيو، دار الهلال ودار البحار، الطبعة الأخيرة (بيروت/١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
٩٣. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت:١٠٩٣هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط٤ (القاهرة/ ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
٩٤. خواص القرآن الكريم، الدكتور تركي بن سعد بن فهيد الهويمل، دار ابن الجوزي، ط١ (الدمام/١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).

٩٥. الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله فواز العاملي (ت:١٣٣٢هـ) المطبعة الكبرى الأميرية، ط١ (مصر/١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م).

٩٦. الدر المنثور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) دار الفكر، د.ط (بيروت/د.ت).

٩٧. دراسات في علوم القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط١٢ (د.م/١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٩٨. دراسات في علوم القرآن، الدكتور محمد بكر إسماعيل (ت:١٤٢٦هـ) دار المنار، ط٢ (د.م/١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٩٩. درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الأصبهاني (ت:٤٢٠هـ) تحقيق: دكتور محمد مصطفى، معهد البحوث العلمية، ط١ (مكة المكرمة/١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

١٠٠. درج الدرر في تفسير الآي والسور، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت:٤٧١هـ) تحقيق: إياد عبد اللطيف القيسي، مجلة الحكمة، ط١ (بريطانيا/١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).

١٠١. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ) تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٢ (صيدر اباد/١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

١٠٢. دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، الدكتور محمد خليل جيجك، مؤسسة الرسالة، ط١ (بيروت/١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

١٠٣. دلائل النبوة، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت:٤٥٨هـ) تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

١٠٤. دلائل النظام، عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي الهندي (ت:١٣٤٩هـ) المطبعة الحميدية، ط١ (د.م/١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

١٠٥. شعر أبو زبيد الطائي، أبو زبيد حرملة بن المنذر بن النعمان بن حية الطائي (ت: ٤٠هـ) تحقيق: الدكتور نوري حمودي، المعارف، د.ط (بغداد/١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

١٠٦. ديوان الإمام الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ت:٢٠٤هـ) تحقيق: محمد عفيف الزعبي، دار العلوم الحديثة، مكتبة الشرق الجديد، ط٤ (بيروت/بغداد/ د.ت).

١٠٧. ديوان امرؤ القيس، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (ت:٥٦٥م) ضبطه وصححه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط٥ (بيروت/١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

١٠٨. ديوان جرير، جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر الخطفي (ت: ١١٤هـ) دار بيروت، د.ط (بيروت/١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

١٠٩. ديوان زهير بن أبي سلمى، زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني (ت:١٣ ق.م) شرح: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

١١٠. ديوان زيد بن عدي العبادي (ت: ٣٥ ق.هـ) تحقيق: محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية، د.ط (بغداد/١٣٨٥هـ/١٩٦٥م).

١١١. الرحيق المختوم من سيرة الرسول ﷺ، صفي الرحمن المباركفوري، دار المعرفة، ط٨ (بيروت/ ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

١١٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الألوسي (ت:١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

١١٣. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن القيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١١٤. زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت:٥٩٧هـ) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط١ (بيروت/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

١١٥. زهرة التفاسير، أبو زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى (ت:١٣٩٤هـ) دار الفكر العربي، د.ط (بيروت/ د.ت).

١١٦. سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت:٣٩٢هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

١١٧. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (ت:٩٧٧هـ) مطبعة بولاق، د.ط (القاهرة/١٢٨٥هـ/١٨٦٩م).

١١٨. سعادة الدارين في بيان وعدِّ آي معجز الثقلين على ما ثبت عند أئمة الأمصار وجرى عليه سائر الأقطار، محمد بن علي بن خلف الحسيني الحداد (ت:١٣٥٧هـ) مطبعة المعاهد، ط١ (مصر/١٣٤٣هـ/١٩٢٥م).

١١٩. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني (ت:٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د.ط (بيروت/ د.ت).

١٢٠. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير السجِستاني (ت:٢٧٥هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد كامل قره، دار الرسالة العالمية، ط١ (د.م/١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٢١. سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى الترمذي (ت:٢٧٩هـ) تحقيق: إبراهيم عطوة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢ (مصر/ ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

١٢٢. السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت:٤٥٨هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط٣ (بيروت/١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

١٢٣. سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت:٧٤٨هـ) دار الحديث, د.ط (القاهرة/ ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).

١٢٤. السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت:٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مصطفى البابي الحلبي، ط٢ (مصر/١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

١٢٥. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن مخلوف (ت:١٣٦٠هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

١٢٦. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري (ت:١٠٨٩هـ) تحقيق: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، ط١ (دمشق/ بيروت/١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

١٢٧. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني (ت:٧٦٩هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، ط٢٠ (القاهرة/١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

١٢٨. شرح السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (ت:٥١٦هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢ (دمشق/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٢٩. شرح ديوان صريع الغواني، أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري (٢٠٨هـ) تحقيق: الدكتور سامي الدهان، دار المعارف، ط٣ (القاهرة/ د.ت).

١٣٠. شعر عمرو بن احمر الباهلي، عمرو بن احمر بن فرّاص أبو الخطاب الباهلي (بعد:٧٥هـ) تحقيق: الدكتور حسين عطوان، مجمع اللغة العربية، د.ط (دمشق/ د.ت).

١٣١. الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت:٢٧٦هـ) دار الحديث، د.ط (القاهرة/١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

١٣٢. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية, أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت:٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٤ (بيروت/ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

١٣٣. ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط١٢ (دمشق/١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

١٣٤. ضياء السالك إلى أوضح المسالك، محمد عبد العزيز النجار، مؤسسة الرسالة، ط١ (بيروت/١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

١٣٥. طبقات الحفاظ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٣٦. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت:٧٧١هـ) تحقيق: الدكتور محمود محمد الطناحي والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، ط٢ (د.م/١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
١٣٧. طبقات الفقهاء، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت:٤٧٦هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، ط١ (بيروت/١٣٩٠هـ/١٩٧٠م).
١٣٨. الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد (ت:٢٣٠هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
١٣٩. طبقات المفسرين العشرين، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، ط١ (القاهرة/١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).
١٤٠. طبقات المفسرين، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي (ت:٩٤٥هـ) دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/ د.ت).
١٤١. الظاهرة القرآنية، مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (ت:١٣٩٣هـ) دار الفكر، ط٤ (دمشق/١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
١٤٢. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، الدكتور صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء، ط١ (القاهرة/١٤٣١هـ/٢٠٠٠م).
١٤٣. علم المناسبات في السور والآيات، الدكتور محمد بن عمر بن سالم بازمول، د.ط (د.م/ د.ت).
١٤٤. العواصم من القواصم، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي الاشبيلي (ت:٥٤٣هـ) قدم له وعلق عليه: محب الدين الخطيب، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١ (المملكة العربية السعودية/١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
١٤٥. عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، علي أحمد عبد العال الطهطاوى، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
١٤٦. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي (ت:١٧٠هـ) تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، دار الهلال، د.ط (بغداد/١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
١٤٧. غاية النهاية في طبقات القراء، أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري (ت:٨٣٣هـ) مكتبة ابن تيمية، د.ط (د.م/ د.ت).
١٤٨. غرائب التفسير وعجائب التأويل، أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر برهان الدين الكرماني (ت:٥٠٥هـ) دار القبلة للثقافة الإسلامية، د.ط (جدة/ د.ت).
١٤٩. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت:٨٥٠هـ) تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

١٥٠. فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي القِنَّوجي (ت:١٣٠٧هـ) راجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، د.ط (بيروت/١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

١٥١. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، أبو يحيى زكريا بن محمد بن أحمد السنيكي (ت:٩٢٦هـ) تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، ط١ (بيروت/ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٥٢. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (ت:١٢٥٠هـ) دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط١ (دمشق/بيروت/١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

١٥٣. الفرائد الحسان في عدِّ آي القرآن، عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي (ت:١٤٠٣هـ) مكتبة الدار، ط١ (المدينة المنورة /١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

١٥٤. الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري (ت:٣٩٥هـ) تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم، د.ط (القاهرة/ د.ت).

١٥٥. الفصل والوصل في القرآن الكريم، منير سلطان، منشأة المعارف، ط٢ (الإسكندرية/ د.ت).

١٥٦. فضائل القرآن الكريم، الدكتور عبد السلام بن صالح بن سليمان الجار الله، دار التدمرية، ط١ (الرياض/١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).

١٥٧. فضائل القرآن وتلاوته، أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي (ت:٤٥٤هـ) تحقيق: الدكتور عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، ط١ (د.م/ ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

١٥٨. فضائل القرآن، أبو العباس جعفر بن محمد بن المعتز المستغفِري (ت:٤٣٢هـ) تحقيق: أحمد بن فارس السلوم، دار ابن حزم، ط١ (د.م/ ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).

١٥٩. فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد جمال الدين الجوزي (ت:٥٩٧هـ) دار البشائر، ط١ (بيروت/١٤٠٨ هـ/١٩٨٧م).

١٦٠. الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، شهاب الدين أحمد بن غانم ابن سالم ابن مهنا النفراوي (ت:١١٢٦هـ) دار الفكر، د.ط (بيروت/١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

١٦١. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت:١٣٨٥هـ) دار الشروق، ط١٧ (بيروت/ القاهرة/ ١٤١٢هـ/١٩٩١م).

١٦٢. القاموس المحيط, أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ) تحقيق: التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط٨ (بيروت/١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

١٦٣. قبسات من سورة النور، الدكتور محمود كامل احمد، دار النهضة العربية، د.ط (بيروت/١٤٠١هـ/١٩٨١م).

١٦٤. قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن، مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمي (ت:١٠٣٣هـ) تحقيق: سامي عطا حسن، دار القرآن الكريم، د.ط (الكويت/ د.ت).

١٦٥. قواعد الترجيح عند المفسرين، الدكتور حسين بن علي بن حسين الحربي، راجعه: مناع القطان، دار القاسم، ط١ (الرياض/ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

١٦٦. القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز، أبو عيد رضوان بن محمد بن سليمان المخللاتي (ت:١٣١١هـ) تحقيق: عبد الرزاق بن علي موسى، وزارة الأعلام، ط١ (المدينة المنورة/١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

١٦٧. الكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم، إعداد مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، ط١ (عمان/١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

١٦٨. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار المعروف بمصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة (ت:٢٣٥هـ) تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، ط١ (الرياض/١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

١٦٩. الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه (ت:١٨٠هـ) تحقيق: عبد السلام محمد، مكتبة الخانجي، ط٣ (القاهرة/١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

١٧٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي، ط٣ (بيروت/١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

١٧١. كشف المعاني في المتشابه من المثاني، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني (ت:٧٣٣هـ) تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، دار الوفاء، ط١ (المنصورة/١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

١٧٢. الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت:١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، د.ط (بيروت/ د.ت).

١٧٣. لباب التأويل في معاني التنزيل، أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم الخازن (ت:٧٤١هـ) تحقيق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/ ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

١٧٤. لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/ د.ت).

١٧٥. لسان العرب, أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن منظور الرويفعي (ت:٧١١هـ) دار صادر، ط٣ (بيروت/١٤١٤هـ/١٩٨٤م).

١٧٦. لسانيات النص، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، ط١ (بيروت/ ١٤١٢هـ/١٩٩١م).

١٧٧. مباحث في التفسير الموضوعي، الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، دار القلم، ط٧ (دمشق/١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٧٨. مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (ت:١٤٢٠هـ) مكتبة المعارف، ط٣ (د.م/١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
١٧٩. المبسوط، أبو سهل محمد بن أحمد السرخسي الحنفي (ت:٤٨٣هـ) دار المعرفة، د.ط (بيروت/١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
١٨٠. المجتبى من السنن، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت:٣٠٣هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، المطبوعات الإسلامية، ط٢ (حلب/ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
١٨١. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل أمين الدين الطبرسي (ت:٥٤٨هـ) دار المرتضى، ط١ (بيروت/١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
١٨٢. مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، جمال الدين محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي (ت:٩٨٦هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٣ (د.م/١٣٨٧هـ/١٩٦٧م).
١٨٣. محاضرات في التفسير الموضوعي، الأستاذ الدكتور عباس عوض الله عباس، دار الفكر، ط١ (دمشق/١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
١٨٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي (ت:٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
١٨٥. المحرر الوجيز في عدِّ آي الكتاب العزيز، عبد الرازق علي إبراهيم موسى، مكتبة المعارف، ط١ (الرياض/١٤٠١هـ/١٩٨٨م).
١٨٦. المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة، خالد بن سليمان المزيني، دار ابن الجوزي، ط١ (الدمام/١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
١٨٧. المحكم والمحيط الأعظم, أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت:٤٥٨هـ) تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
١٨٨. المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت:٤٥٨هـ) تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، ط١ (بيروت/ ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).
١٨٩. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت:٧١٠هـ) تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، ط١ (بيروت/ ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
١٩٠. المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح سعيد، الدار الإسلامية، ط٢ (بور سعيد/١٤١١هـ/١٩٩١م).

١٩١. المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شُهبة محمد بن محمد بن سويلم (ت:١٤٠٣هـ) مكتبة السنة، ط٢ (القاهرة/١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
١٩٢. مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: الدكتور عبد المحسن العسكر، دار المنهاج، ط١ (الرياض/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
١٩٣. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري (ت:٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١١هـ/١٩٩٠م).
١٩٤. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت:٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط١ (بيروت/١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
١٩٥. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، د.ط (بيروت/ د.ت).
١٩٦. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، أبو بكر إبراهيم بن عمر ابن حسن بن البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) دار المعارف، ط١ (الرياض/١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).
١٩٧. مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (ت:٢١١هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط٢ (بيروت/ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
١٩٨. مطالب أولي النهى شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي الحنبلي (ت:١٢٤٣هـ) المكتب الإسلامي، ط٢ (د.م/١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
١٩٩. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) دار الكتب العلمية، ط١(بيروت/١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
٢٠٠. المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، د.ط (القاهرة/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
٢٠١. معجم اللغة العربية المعاصرة، الدكتور أحمد مختار عمر (ت: ١٤٢٤هـ) عالم الكتب، ط١ (الرياض/١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).
٢٠٢. المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، صبحي عبد الرؤوف عصر، دار الفضيلة، د.ط (القاهرة/ د.ت).
٢٠٣. المعجم الوسيط, إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة ، د.ط (الإسكندرية/ د.ت).

٢٠٤. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر بن رضا بن محمد كحالة (ت:١٤٠٨هـ) مؤسسة الرسالة، ط٧ (بيروت/١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

٢٠٥. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم، مكتبة الآداب، ط١ (القاهرة/١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).

٢٠٦. معرفة أنواع علوم الحديث، أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن بن الصلاح (ت: ٦٤٣هـ) تحقيق: نور الدين عتر، دار الفكر، ودار الفكر المعاصر، د.ط (سوريا/ بيروت/١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٢٠٧. المغازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت:٢٠٧هـ) تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي، ط٣ (بيروت/١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

٢٠٨. مغني الطلاب، محمود حسن المغنيسي (ت:١٢٢٢هـ) تحقيق: عصام مهذب السبوعي، دار البيروتي, ط١ (دمشق/١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

٢٠٩. مفاتيح الغيب، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي، ط٣ (بيروت/١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

٢١٠. مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أبو الخير أحمد ابن مصطفى بن خليل طاشكبري زاده (ت:٩٦٨هـ) دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٢١١. مفردات القرآن، عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي (١٣٤٩هـ) تحقيق: الدكتور محمد أجمل أيوب الاصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط١ (بيروت/١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).

٢١٢. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت:٥٠٢هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، والدار الشامية، ط١ (دمشق/ بيروت/١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص٤٦٣.

٢١٣. المقاصد الحسنة، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (ت:٩٠٢هـ) تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، ط١ (بيروت/ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٢١٤. مقاييس اللغة, أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت: ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط (بيروت/١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٢١٥. من بلاغة القرآن، أحمد احمد عبد الله البيلي البدوي (ت:١٣٨٤هـ) دار النهضة، د.ط (القاهرة/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

٢١٦. مناسبات الآيات والسور، الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد (٩) (المدينة المنورة/ د.ت).

٢١٧. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (ت:١٣٦٧هـ) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣ (د.م/ د.ت).

٢١٨. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف محيي الدين النووي (ت:٦٧٦هـ) دار إحياء التراث العربي، ط٢ (بيروت/١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).
٢١٩. الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي (ت:٧٩٠هـ) تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن، دار ابن عفان، ط١ (د.م/١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
٢٢٠. الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، إشراف: الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د.ط (مصر/١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
٢٢١. الموسوعة القرآنية خصائص السور، جعفر شرف الدين، تحقيق: عبد العزيز عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط١ (بيروت/١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
٢٢٢. موسوعة فضائل سور وآيات القرآن، محمد بن رزق بن طرهوني، دار ابن القيم، ط١ (المملكة العربية السعودية/١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
٢٢٣. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت:٧٤٨هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، ط١ (بيروت/ ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م).
٢٢٤. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت:١٤٠٢هـ) دار الاعلمي، ط١ (بيروت/١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
٢٢٥. الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس (ت:٣٣٨هـ) تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام، مكتبة الفلاح، ط١ (الكويت/١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).
٢٢٦. النبأ العظيم، الدكتور محمد عبد الله دراز (ت:١٣٧٧هـ) دار الثقافة، د.ط (الدوحة/١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص١٤٢.
٢٢٧. نحو التفسير الموضوعي، محمد احمد السقا الغزالي (ت:١٤١٦هـ) دار النهضة، ط١ (مصر/ د.ت).
٢٢٨. نحو النص، الأستاذ الدكتور احمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، ط١ (القاهرة/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٢٢٩. نزهة الألباء في طبقات الأدباء, أبو البركات عبد الرحمن ابن محمد بن عبيد الله الأنباري (ت:٥٧٧هـ) تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار, ط٣ (الأردن/ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
٢٣٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أبو بكر إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي (ت:٨٨٥هـ) تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط٣ (بيروت/١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
٢٣١. نظم العقيان في أعيان الأعيان، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ) تحقيق: فيليب حتي، المكتبة العلمية، د.ط (بيروت/ د.ت).

٢٣٢. نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد محمد معبد (ت:١٤٣٠هـ) دار السلام، ط٢ (القاهرة/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
٢٣٣. النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي (ت:٤٥٠هـ) تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/ د.ت).
٢٣٤. نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري (ت:٧٣٣هـ) دار الكتب والوثائق القومية، ط١ (القاهرة/١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).
٢٣٥. نونية القحطاني، أبو محمد عبد الله بن محمد الاندلسي (ت: ٣٨٧هـ) تعليق: محمد بن احمد سيد احمد، مكتبة السوادي، ط٣ (جدة/١٤١٠هـ/١٩٨٩م).
٢٣٦. نيل المرام من تفسير آيات الاحكام، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن ابن علي القِنَّوجي (ت:١٣٠٧هـ) تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، د.ط (بيروت/١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
٢٣٧. هدية العارفين، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البابانى البغدادي (ت:١٣٩٩هـ) دار إحياء التراث العربي، د.ط (بيروت/ د.ت).
٢٣٨. الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، الدكتور محمد محمود حجازي، مطبعة المدني (القاهرة/١٣٩٠هـ/١٩٧٠م).
٢٣٩. وحدة النسق في السورة القرآنية فوائدها وطرق دراستها, رشيد الحمداوي، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، عدد٣ (جدة/ ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
٢٤٠. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (ت:٤٦٨هـ) تحقيق: الدكتور أحمد محمد صيرة ودكتور أحمد عبد الغني الجمل وآخرون، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
٢٤١. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان البرمكي (ت:٦٨١هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، د.ط (بيروت/ ١٣١٨هـ/١٩٠٠م).
٢٤٢. وقفات مع نظرية التفسير الموضوعي، عبد السلام حمدان اللوح، مجلة الجامعة الإسلامية، مجلد (١٢) عدد (١) (غزة/١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

المواقع الالكترونية:

١- شبكة الالوكة الثقافية، إعداد: أحمد بن محمود الداهن، تاريخ الإضافة، ٢٠٠٧/١٢/٢٦.
www.alukah.net/culture/0/1721/
٢- موقع إسلاميات، مقاصد السور القرآنية، إعداد: الدكتور محمد الخضيري، تاريخ الإضافة ٢٠١٠/٧/٣. www.islamiyyat.com/3-63
٣- الشبكة الدعوية، مناع القطان www.daawa-info.net/bio.php?id=92
٤- وكيبيديا الموسوعة الحرة: ترجمة الشعراوي، ومحمد حجازي، ومناع القطان:ar.wikipedia.org/wiki

ثبت المحتويات



هذا الكتاب:

إنَّ القرآن الكريم معجزة خالدة، وحجة باقية فهو كتاب نور وهداية، وكتاب علم وعمل، فلا تنقضي عجائبه، نزّله الله تعالى على قلب رسوله ﷺ منجماً حسب الوقائع والأحداث، وكان كلما نزلت عليه آية أمر أصحابه بكتابتها في مواضع يعينها لهم، حسبما يبلغه جبريل عليه السلام دون مراعاة لترتيب النزول، وقد تألف مما جُمع على هذا النحو سور مؤتلفة المباني منسجمة المعاني متناسقة الموضوعات، لا تكاد تحس بأدنى خلل في بنائها أو تنافر بين أجزائها. وإنَّ أشرف العلوم وأرفعها قدراً هو علم التفسير؛ لتعلقه بكلام الله تعالى، فالاشتغال به شرف عظيم، وأجر كبير، ومن هنا اهتم علماء الإسلام بهذا العلم، وأولوه عنايتهم، بل أفنى بعض علماء السلف والخلف أعمارهم في خدمة هذا العلم الجليل، دراسةً وتعليماً. وهذا الكتاب يكشف عن مفهوم مصطلح التناسق الذي له الأثر في تشكيل المعنى، ويكشف التناسق بين موضوعات سورة النور، والموضوعات الأساسية التي تناولتها السورة، وبيان المقاصد القرآنية في السورة، فهذه الدراسة تعتبر لوناً مهماً وإضافة جديدة في فن علوم القرآن، كما أنها دراسة مهمة في رد الشبهات المتعلقة بترتيب القرآن الكريم، من ناحية آياته أو موضوعات سوره، والتي تولى كبرها عامة المستشرقين، هذه هي فكرة الكتاب.





ISBN 978-9922-9584-6-0

